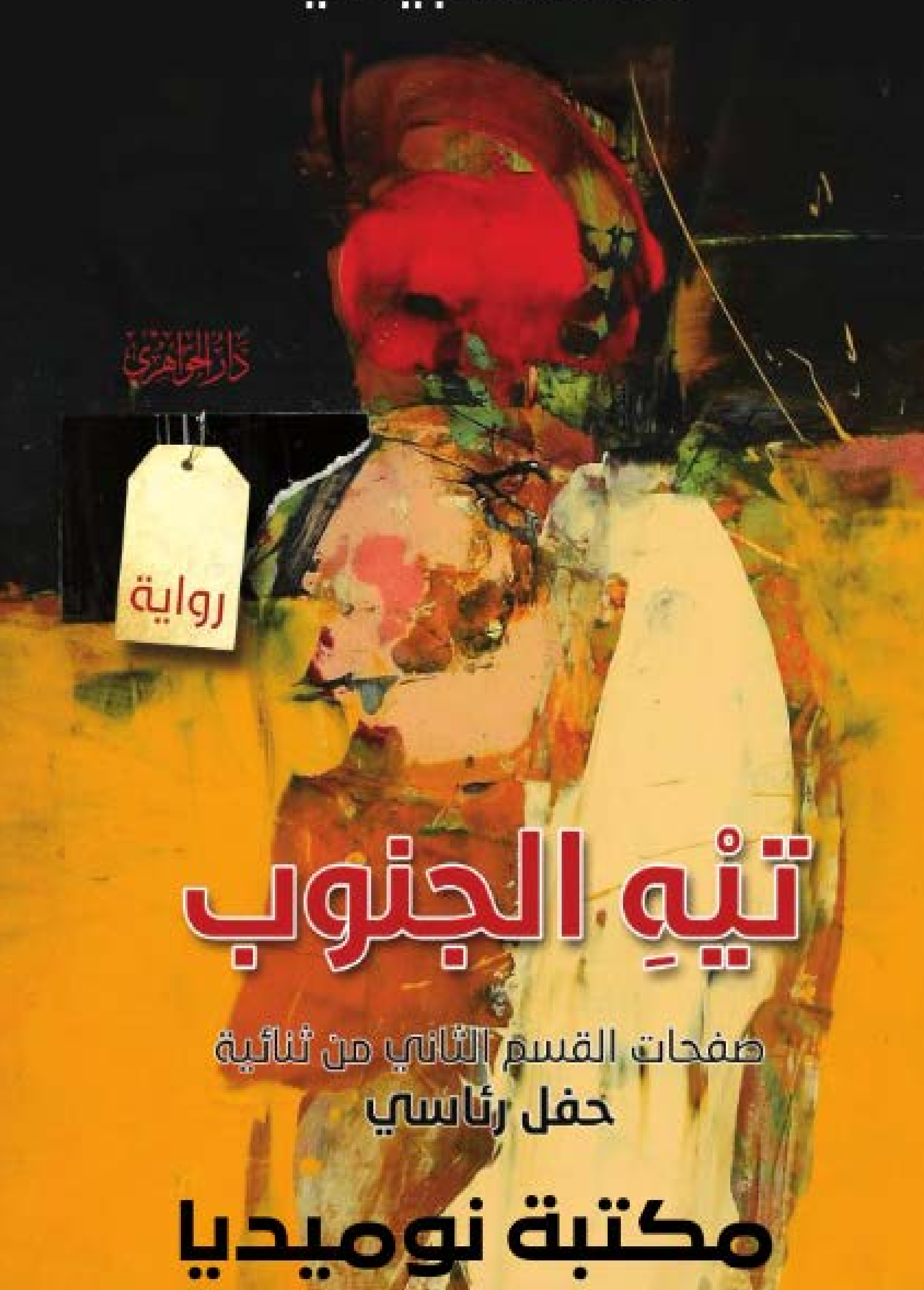
سعد العبيدي



تيهِ الجنوب

صفحات القسم الثاني من ثنائية
حفل رئاسي

تيه الجنوب

رواية

سعد العبيدي

تيه الجنوب

روايــة

الكتاب: تيه الجنوب

الكاتب: سعد العبيدي

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ /٢٠١٦م





بغداد - شارع المتنبي

البريد الإلكتروني:

E - Mail: daraljwahere@yahoo. com

موبايل: 07702910090

بغداد - شارع المتنبي

بيروت - لبنان

دمشق- سوريا

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

إلى ضحايا التِيه....

الذين ابتعدت عنهم

شطآن أوطانِهم

عساهم يعودون إليها يوماً

رغبة مكبوتة

أوقفني أحدهم عند مفرق الصليخ سائلاً عن جسر الصرافية، صوته في أذني كان مبعثراً كنقيق ضفدع جائع، ومخدوشاً بتأتأة طالما أثارت قرفي وملأت صدري بالحقد الأسود. وقبل التدقيق في وجهه الأسمر العابس، شعرت غلَّ العالم موجود في هذا الصوت، الذي أعرفه، لذاك المدعو عبد اللّه الذي نجوت من ضربة عصاه في أحد نوبات التدجين بسجن أبو غريب احتفالاً بمرور سنة على نطق الحكم بحقنا نحن مجموعة رفاق غضب الرئيس على وجودنا السياسي قريباً منه. كان منظره مخيفاً، كأنه لم ينم سنتين متتاليتين، وكان الخوف هو الخميرة التي يريدها الرئيس كافية لتحويلنا من سجناء سياسيين الى حيوانات مدجنة.

سألت نفسي لِمَ تغيّر شكله واقترب من حال الشيطان. وعندما لم أجد جواباً، تركته ومخلب الذعر ينهشني مسرّعاً الخطى ركضاً باتجاه الوزيرية، مثل أرنب يتبعه كلب صيد أجرب. لم يساعدني جسم أحمله مترهلاً على الاستمرار بالركض أكثر من عشرين خطوة، بعد زيادة فاضحة للوزن لما يقارب العشرين كيلوغراماً، وترهلٍ مضطرد للعضلات خلال السنتين الأخيرتين. اضطررت بسببهما وشدة الخوف من عبد

اللّه الى الجلوس على حافة الرصيف الذي حفرت فيه عربات خيول غزت شوارع بغداد إبان حروبها جيوباً ملأتها النفايات، ومع هذا وبعد استعادة ما تسرب من خزين طاقتي واصلت السير قلقاً، معاوداً التدقيق في جهاتي الأربع.

كأن البيت الذي تعودت زيارته مرتين في الأسبوع في أقل تقدير، قد تغيرت هيأته، بات سياجه الطيني منخوراً بفعل المطر، بَنت فيه الدبابير الحمر ممالكها. شبابيكه الحديدية تغيرت هي الأخرى الى خشب، أنشأت فيها حشرة الارضة ممرات لها بشكل واضح. لون طلاء جدرانه أسود حزين، كأنه مسكن أشباح. حيرني حاله وعواء كلاب تكاثرت في الشارع المجاور، تفتش عما يسد رمقها من جوع نافذ، تسببت فيه خسارة معركة قيل عنها الأخيرة في الحرب، وامرأة عجوز تقف على سطحه، مثل ساحرة تمتطي عصا في نهايتها قش.

هممت بالعودة من حيث أتيت، أدرت وجهي ساعياً للهروب مغلوباً على أمري، فجاء صوت هاني من جهة الباب المخلوع نصفها الأيمن:

- الى أين أنت ذاهب وجئت قاصداً لأمر مهم؟.

كان وكأنه ينتظر قدومي، وإن لم أبلغه القدوم.

سألته عما أخرجه من هذا البيت المسكون في لحظة حرج أهمُ فيها قاصداً الرجوع؟.

أجاب بهدوء غير مسبوق:

كنت أنتظرك، وكان الوقت المتوقع لوصولك قبل ساعة من الآن. قلت:

- لقد أخرني الخوف المنبوذ.

سأل بامتعاض:

- لم أصبحت هكذا خوافاً في سنيك الأخيرة؟. قلت:

- ألا تعلم أني أخاف السير في الأماكن المكتظة بالناس، ومن خيالي عندما أسير في الشارع أثناء النهار؟. هل نسيت من يتبعني طوال التنقل، يترصدني جليس فراش أفلج بين الصحو والغفوة، فيزيد عمداً مخاوفي التي شكلت سلوكي، لتجنب بني البشر منذ الأيام الأولى لدخولي سجن أبو غريب، واستمر مرصوصاً بناءه في داخلي الى هذه اللحظة التي أقف بها أمامك، خائفاً منك ومن عواء الكلاب، ومن تلك الساحرة الشمطاء في أعلى السطح؟.

توقفت قليلاً عن الكلام، كمن يحاول ترتيب أوراق له تبعثرت في لجة ريح وسألت:

- هل تتكاثر في بيتك الكلاب؟.

نعم أعرف كل شيء، وأعرف القصد من مقدمك، وأعرف بتكاثر الكلاب قال هاني، وأخرج من جيب سترته العسكرية مفاتيح سيارته السوبر. وأشر بيده اليمنى:

- خذها، سوف لن أفصح عما أعرف. إنها حديثة تفي بالغرض، لقد استلمتها من الدولة قبل أيام إثر حصولي على نوط الشجاعة العاشر في معركة لم أشترك فيها.

- سأذهب بها حيث عائلتي المتواجدة هناك منذ أسبوع.

- اذهب الى أي مكان تريد، افعل ما شئت لن اسألك عن الجهة، والأسباب فإني عارف بكل شيء.

خيم الوجوم على هيأتي بشكل واضح، فزاد من اصفرار وجهي العابس، وضاعف من شدة ارتجاف الساقين. اتكأت على كتفه الأيمن قبل الصعود خلف مقود السيارة، وعندما مرر أطراف اصابعه على كتفي، اهتزت عضلات جسمي ارتجافا مثل أوتار عود يعزف صاحبه بنشاز.

لم أودعه.

لم أشكره على الموقف والمفاتيح.

لم أسأله ثانية عن تكاثر الكلاب.

ولم أعرف السبب.



قيادة السيارة في صيف حار بمكيف ياباني مسألة جداً مريحة. استجابة محركها وصوته الناشط نقلني الى عالم الشباب. فاندفعت للضغط على دواسة الوقود، كي أشعر أكثر بنشوة الشباب. عزمت تجريب سرعتها القصوى في الشارع القريب، وعلى جسر الصرافية المشهور، رمقني شرطي المرور بابتسامة ثناء على ما أقوم به من تجريب. كان من محبي السرعة ومن أنصار إقامة سباقاتها في شوارع بغداد التي تملأها عربات تجرها حمير بحوافر مثقوبة. بغداد التي يلفها مغيب فيه بصيص من نور معتم، يتعالى في أجواء كرخها أذان المغرب، وقد اختتمه مؤذن الجامع الكبير تواً، في الوقت الذي لم يبدأ في رصافتها العامرة بعد.

مسلمو بغداد، غالبية ساكنيها من أبناء الصوبين يعيشون فرقاً في التوقيت الاسلامي لـلأذان يقترب من العشر دقائق. هكذا هو الحال فروق في الوقت، وشكل الوقوف في الصلاة، وطريقة الدعاء منذ مئات السنين. الأجيال الحالية تثني على أجدادها لما أورثوه لهم من خلافات في التوقيت وأشياء أخرى، ويثنون في جلساتهم، وحواراتهم على هذا الزاد في مد الانتقام بجرع تطيل أمده الى يوم الدين.

في هذا الزمن العابر بين التوقيتين، راحت عينيَّ الغائرتين الى مرآة السيارة فوق الزجاج الأمامي من الداخل، دون سيطرة من عقلي المشغول بنشوة الشباب، ساعية الى تدقيق سير المركبات من بعدي، وعندما لم تجد إحداها قريبة، أشعرتني بقليل من الجـرأة، فأخرجت عند وصول الجرأة الى الدرجة الأعلى، مسدس كان قد أهداني إياه رئيس الجمهورية، قبل فقدان شجاعتي بسنوات. وضعته الى جانبي بحركة لم أتعودها حتى في سنيّ المراهقة، كمن يريد اكتمال شخصيته القلقة بمسدس يرمز الى القوة، وكأن هذا المسدس قد ملأ الفراغ الذي كان قد شكل جيوباً للخوف في خصائص شخصيتي المكتسبة، وشجعني للتجوال في مدينة المنصور التي اعتدت قضاء بعض الوقت في شوارعها تسكعاً أيام العزوبية، بشخصية لا تعوزها الجرأة.

قلت بصوت مسموع وكأني أخاطب أحداً يجلس بجانبي سأتوقف عند هذه المقهى التي يتنقل عاملها المصري مبتسماً بين موائدها الموجودة على الرصيف بحلة جديدة تقليداً لمقاهي بيروت، عساي أتذكر الماضي... الحلو من الماضي ليس غير.

سألني قبل كل شيء عن موعد عودته الى النيل، الذي يخشى نسيان مياهه العذبة، والعشاق الجالسين على حافاته وبائع الكشري، وقد أغلقت الحرب كل السبل الممكنة للعودة، وسأل أيضاً عن التحويلات بالدولار التي عُلقت الى حين تحسن الموقف المالي. وختم اسئلته بسؤال هو الأهم:

- هل يتحسن الموقف المالي في العراق؟. وأكمل:

- سأطلب لك فنجاناً من القهوة أعمله خصيصاً لمن ينوي الانطلاق بمهامه الخاصة من هذه المقهى، ينفعك في البقاء نشطاً طوال الطريق، فسألته:

- وهل تقرأ الفنجان؟.

- قراءة الأفكار أسهل بكثير من قراءة خطوط تتركها بقايا بن في فنجان، يعتمد أصحابه القراء وسائل ايحاء كسبيل مقبول للوصول الى الاقناع. قلت:

- لا أحب شرب القهوة مساءً، أريد عصيراً طازجاً ينعش ذاكرتي المشوشة.

- أنت على خطأ سيدي الذاهب بعيداً الى المجهول، فالذاكرة وفي مثل مهمتك وهامش المجهول في محيطها وما سيواجهك من متاعب ومفاجئات، ليس من المناسب إنعاشها. المناسب في هذا الطريق الطويل فقط، هو سد منافذ التذكر التي تستدعي الماضي، وماضيك لا تنفع محتوياته الآن، وفي هذا الزمن، ولهذه المهمة بالذات.

- مقهاكم البيروتية، لا يشبه روادها العراقيون أولئك البيروتيون.

- نعم لا أحد يشبه أحداً، روادها هناك شباب يعشقون بعضهم

البعض، مقاهيهم أسست أصلاً لمن يحب الحياة، قريبة من بحر ينفتح على عالم مليء بالحياة. مقاهينا هنا تنتصب موائدها عند حافات الحرب، روادها عائدون من معارك نتائجها متساوية بين المنتصر والمهزوم، يؤمها من يكره حياة الحرب، ومن يريد إقناع نفسه أنه خارج أسورتها الموقدة بالنار.

- الحرب أيها المصري البعيد عن نيله العجيب تنسي العشق والتأمل، إنها تقوي فقط الرغبة بالتشبث في الحياة، وان كانت تافهة بمعايير الحضارة الحالية.

وأنا أتكلم مع المصري الذي يتحرك بين الطاولات، يرد ويبتسم، لم أرفع عينيَّ عن الشارع وسيارتي المتوقفة أمام المقهى، حيث لم تقترب منها أي سيارة، ولم تأخذ واحدة مكانا لها في القريب أو في الجهة المقابلة، شعور جميل بالطمأنينة، بعد استنتاج بعدم وجود مراقبة، دفعني لأن أودع المصري بالإشارة والقول لقد حان وقت الرحيل. فرد بالقول:

- وداعا سيدي لا تنسَ مرورك على المقهى في العودة من مهمتك المجهولة كي تطمئنني، رواد المقهى العائدون من الحرب، والذاهبون اليها يسجلون لديّ كي أحصي الأموات، أوصيك بعدم الاستعجال في طريق الموت، كل شيء في أوانه، والأهم من هذا وذاك، أن المكلفين بالمراقبة لهذا اليوم في إجازة، لقد حضروا هنا وغادروا هذه المقهى الى بيوت اللهو يكتبون منها التقارير عنك، وعن بقية الزملاء.

❖ ❖ ❖

نظرتي الى الطريق السريع بغداد السماوة باقية كما هي، مفتوح للسير دون سرعات محددة. السرعة هنا وعلى هذا الطريق يحددها أصحابها المصابون بحواز الاستعجال وأنا واحد منهم، حتى أضحى الزمن في ذاكرتنا المنقولة عن الأجداد لا قيمة له، الا ما يتعلق منه باستعجالنا الحصول على ما نريده، وان كان رغيف خبز يابس. زخات مطر في هذا الصيف تبدأ مع دخولي الطريق من جهة اليوسفية، لم تعيق هذه السيارة الحديثة، ولم تثنيني سائقاً حلت عليه الجرأة فجأة من السير بسرعة تؤشرها اللوحة مائة وخمسين كيلومترا في الساعة، لأنني أحث الخطى ساعياً الوصول الى هدفي في السماوة قبل انتصاف القمر المكتمل وسط السماء، حيث تكون الدنيا كما لو أنها غارقة في ماء صاف يقترب من الزرقة. لكن المطر الذي تزايدت شدته، يبطئ سرعتي.

مشهد السيول غير المألوفة على هذا الطريق في الكيلو مائة وواحد تثير الرعب. أربع رجال يحملون فوانيس كأنهم يشيعون أحدهم الى مثواه الأخير، يتقدمهم الأنحف عوداً، وهم يقتربون من السيارة بجهد يقاومون به الانجراف الى القعر بقوة السيل. بانت هيأته عند اقترابه خطوة أخرى، وكأنه شبح تاه صاحبه في صحراء الربع الخالي قبل مئات السنين، قال بشيطنة واضحة:

– لا يمكنك الاستمرار في السير والأرض مفتوحة شهيتها.

قال الآخر، قصير القامة:

– لقد حاولنا الاستمرار من قبلك بدقائق معدودات، فجرفَ السيل سيارتنا، أغرق سائقنا، وكان فلاح في طريقه الى الزريبة لإنقاذ

حيواناته، قد أبقى على أرواحنا عندما كسر زجاج السيارة الخلفي بـ (حدرته)[1].

طلب الثالث انحرافاً حاداً بالسيارة الى اليمين ثم قال:

- دعنا نصحبك، نُدلك على الطريق المناسب مقابل إيصالنا الى الديار سالمين، في مدينة بابل الأثرية.

- لكنني لا أعرفكم، والوقت قد أصبح ليلاً.

قال الرابع:

- لا حاجة لك أن تعرفنا، نحن نُخيّم هنا كل أسبوع، نصطاد طيوراً، نقيم لها حفل شواء خاص، نحتسي شراباً أحمر كدم المسيح، ثم نعود الى أهلنا مع الفجر الذي نعده أصل الحياة.

- تحرك فالسيول ستأتي من السماء هذه المرة، لا نريد أن تأخذنا قسراً الى أماكن لم نجد فيها من يسأل عنا، ولا نريد أن تُطفئَ لنا فوانيس نحتفظ بها صالحة لحفلات قادمة، كما لا نريد لحياتنا هذه، وحياتك أنت نهاية يحددها المطر.

- مالكم وحياتي؟.

قال النحيف:

- لأننا نعرفك جيداً.

١- الحدرة، عصا بمتوسط طول يقترب من ثلاثة أرباع المتر، في نهايتها حديد مصبوب تجعله بيضوي الشكل، كانت تستخدم في الريف العراقي، كنوع من السلاح البسيط للدفاع عن النفس.

- لكني لا أتذكركم.

فأكمل النحيف القول:

- لقد مسحت السياسة والحرب والسجن جزءا من ذاكرتك، وأبقى التفكير بالهروب ذاكرتنا سليمة كذاكرة بدو الصحراء، همنا التمتع بمفاتن الدنيا مثل امرأة جميلة بعيون دعجاء، حلاوة ريقها خمر أبقانا أحياء في هذا المطر الغزير، وبهذا الزمن الذي أفسده الأصحاب، وهمك الانتقام، فارق الهمين سيبقينا سعداء في أماكننا، وسيعرضك لمتاعب لم تكن في الحسبان. انزلنا هنا واذهب في طريق انتقامك. سوف لن نبلغ أحدا عن نواياك.

- وجوهكم وكأنها مألوفة، أعرفها منذ كنت طالبا في ثانوية الحلة.

- ها قد عادت ذاكرتك. اتركنا هنا فقد وصلنا المكان الذي نريد.

- والمطر؟. ألم تقولوا نخشى المطر.

- أرضنا عطشى، والمطر مزن صيف لا تنفع في اكبار الخشية.



السماوة كما ألفتها لم تتغير. نهر الفرات الذي يقسمها شطرين هو الذي تغير، عندما شحت مياهه من المصدر، ونبت القصب على حافاته القريبة. الوقت بساعته الثالثة صباحاً مناسب لما رسمته مخيلتي في بغداد. بصيص الضوء الداخلي للسيارة الساقط على ورقة أخرجتها من جيب سترتي يشير الى اقترابي من حي الضباط الذي يسكنه صاحبي

في بيت حصل عليه مكرمة من الرئيس، عرفانا بإماتته سجين بضربة واحدة من عمود حديد في سجن أبو غريب يوم أعماه غضب أهوج. عشر دقائق تلزمني لتنفيذ ما جئت من أجله، زادتها سيارة حمل تسد الشارع المؤدي الى البيت المقصود ثلاث دقائق، أصبح وقعها ثقيلاً لم يكن في الحسبان، بعد أن تيقنت استحالة إطلاق صوت التنبيه «الهورن» لاجتيازها والناس نيام، فلم يبقَ سوى الرجوع الى الخلف بأقصى سرعة، حلاً عساه اختصار للوقت المهدور، والتخفيف من الوقع الثقيل.

وقفت وعيني على الساعة، وأخرى على الفجر الذي أخشى حلوله، وارتفاع الأذان، ونهوض الناس من نومهم، قبل تحقيق المطلوب. قلت في نفسي، لا أريد لهذه الخطة أن تفشل، ولا أقبل الفشل مهما كان. سأتجه الى الشارع الترابي المؤدي الى البيت المقصود، لا يهمني التراب المتطاير من سرعة احتكاك الاطارات بالأرض، فالنيام لا يرون الغبار ولا يشمونه.

توقفت للمرة الثانية. كان هو البيت المقصود بسياجه الاسمنتي، وبابه الحديدية السوداء وقطعة الأرض المجاورة، حمدت الرب على انها مازالت مليئة بالزبالة، وبعض أنقاض تركها أصحاب البيوت التي أنجزوا بناءها حديثاً، جميعهم اعتادوا رمي الانقاض في الارض الخلاء، وان كان اصحابها من سادة القوم، لقد أصبح لأكوام الزبالة نفعاً في اخفاء السيارة والتسلل منها الى البيت المقصود، لتنفيذ ما هو مطلوب، فكان لي هذا وكانت المسافة منها الى البيت اللعين لا تزيد عن العشرين متراً، أحسستها عدة كيلومترات، واحسست قدراً عالياً من القلق، أشعرني كمن يطفو مشياً على غيوم عابرة، لكني وصلت، دفعت الباب

الخارجي بأنفاس مقطوعة، فانفتحت أمامي وكأنها ترحب بالدخول، أو أنها تضمر شراً لا أعلمه.

يخيم ظلام كقعر بحر ميت على هذا البيت المكبل بالغموض. شككت به أحد سراديب وادي السلام، اقتربت بحذر، وعندما شاهدت عمود الكهرباء حَسبتُ تياره قُطع عمداً لتسهيل مهمتي، أو أن صاحبي استعجل الانتقال اليه قبل اكتمال تأسيساته الكهربائية ليقرب حتفه.

جميع الغرف خالية الا من بعض أثاث من الدرجة الثانية وقط أسود عكست عيناه بعض خيوط النور الذي يتسلل من الشارع عبر الزجاج الرخيص، شهقتُ فزعاً عند اعتقادي أنه واحد من الجان الذين يحرسون صاحبي بعده منهم، تسمرت في مكاني، شعرت وكأن روحي تخرج من فتحات أنفي التي اتسعت كثيراً، وعندما أخذت نفساً كان متعسراً أحسست حاجة ملحة لدخول الحمام، وكأني أصبت بإسهال حاد. لم أهدأ ولم ينقطع الاسهال الا بعد مداهمتي من فكرة كانت عالقة في عقولنا، ابان فترة السجن في أبو غريب من أن الروح الموجودة في هذا البيت تعود الى رفيق من بيننا مات بعصا صاحبه في أحد غزوات التدجين، حَضرت لتعينني على تنفيذ مهمتي العسيرة.

تجرعتُ الفزع هلعاً، لأمشي على أطراف أصابعي، كي أفتش بقية الغرف، لم يكن أحد موجود سواي والقط الأسود. عندها جال في تفكيري أن أصحاب البيت مثل غيرهم من السكان يأخذون من السطح مكاناً للنوم، خلال هذه الفترة الزمنية من الصيف، فاتجهت نحو بابه التي يتحكم بها مزلاج من جهة السطح، نسي صاحبي وضعه في الحلقة التي

تتم الغلق.

وَضعتُ قدمي اليمنى خارج الباب، فأحسست صمتاً قلقاً يسود المكان، مثل ذاك الذي يأتي بعد الرقود الأبدي في القبر، كسرهَ صرير الباب العتيقة، ما دفعني لأن التصق خوفاً بحافتها الخارجية مثل تمثال مصنوع من البرنز.

انتظرت ردود الفعل. لم يحصل أي رد فعل من أي أحد، و(چاسب) صاحب الجلد السميك، راقد على سريره يتنفس بعمق، تذكرتُ كيف كان حضوره مدراً للبول بين نزلاء القاطع الخاص في أبو غريب، بتُّ أحس إيقاع انفاسه العدائية تنهش أنفاسي، تقدمت نحوه والخوف يبطئ خطواتي، وقفت بمواجهة سريره الخشبي، وعندما انقلب في نومه الى جهة اليمين تلاشت كل ظلال الجرأة في نفسي، كدت أسقط خوفاً.

تمعنت به جيداً، شارباه صارت طويلة عن أيام أبو غريب، صبغها بالأسود الفاحم، فبانت كما لو أنها خرجت من مدخنة بهباب أسود، حاجباه الغزيرتان تقربانه من صورة مهرج في سيرك روماني، وجفناه المتهدلتان يؤشران إدمانه على السكر، نصفه من الأعلى عار. الشعر الغزير على صدره وكتفيه يجعلانه شبيها بالغوريلا الأفريقية دون منازع، زاد وزنه عن تلك الأيام التي كان فيها سيد أهل السجن، لشراهته البائسة في الأكل، حتى اقترب من أن يكون برميلاً بلاستيكياً منفوخاً. عدت التمعن به ثانية فلم أجد في صورته ما هو مخلوق لرحمة انسان. كانت بجانبه من جهة اليسار زوجته ذات الشعر الأشعث، وفي يمينه طفلة لا تتعدى العشر سنين، جميلة المظهر والشكل.

شهرتُ مسدسي الذي أعتزُ به هدية من الرئيس، اقتربتُ بفوهته من رأسٍ تصورته فارغاً، الا من حقد جعل وجهه أصفر مزرق، فشعرت وكأني أحقق نصراً في حرب كونية، وفي لحظة انتظرتها ثلاث سنين في السجن، ومن بعدها سنتين خارجها، تذكرت كل سوط ساعني به، وتلك الهراوات وقضبان الحديد، وضغط حذاءه الوسخ على أذني المثقوبة. التفتُ جانباً دون ارادة مني، فوجدتُ جنب سريره الحذاء الأجرب لن يتبدل، وكأنه قد احتفظ به تذكارا للذل. حاولت وضعه بقدمي والدوس به على الرأس الفارغ، لكن رائحة العفن المنبعثة من داخله حالت دون تحقيق هذه الأمنية التي جاءت طارئة، لم أكن قد وضعتها في مخططي الذي يقتصر على المجيء للاقتصاص من هذا الكائن موتاً بهذا المسدس الموسوم هدية من الرئيس.

زَحفَت سبابة يدي اليمنى على الزناد، وقبل تحركها ضغطاً لإتمام فعل الانتقام، فتحت الطفلة الجميلة عينيها، حاوَلت كبح انفاسها كيلا يلاحظ عليها الانفعال الذي يستدرج الدموع، وكأنها لم تكن طفلة، سألت بثقة عالية:

- ما لذي أتى بكَ في هذا الليل الدامس؟. تعال واجلس الى جانبي. العفاريت في سريري تبعد عني النوم.

- إني لم أحضر الى هنا كي أتبادل الحديث، جئت أطالب بدَينٍ لي عند هذا النائم الى جانبك.

- وهل لي ان أسدد هذا الدين بدلاً عنه؟.

- لا يمكن تسديده الا من قبله شخصياً.

- أخـبرني طبيعة هـذا الـديـن، فـأنـا أدرك عـواقـب الأشـيـاء، لا تستصغرني.

- أريدُ أخذ روحه، لأنه....

- أكمل ما تريد قوله، وللمرة الثانية أقول لا تنظر اليّ باستصغار.

- لأنه قبض أرواح أصدقائي وعذبني عذاباً، كنت في كل مرة أفكر بقتله.

- هل أنت عزرائيل، أم جئت بديلاً عنه، وهو المخول الوحيد بقبض الأرواح؟. ألم تعرف هـذا؟. واذا ما كنت هو حقاً فاقبض روحي معه، لأنني ابنته الصغرى، ولا استطيع العيش دونه. هل لك أبنة مثلي؟.

- نعم لدي خمس بنات واحدة يقترب عمرها من عمرك.

لم يمهلها چاسب فرصة الاستمرار في حديث بت أستمع اليه بشغف، وقد أخرج من تحت مخدته مسدساً، هو كذلك هدية من الرئيس. أطلق رصاصة واحدة، هويت إثرها على أرض السطح الترابية مستلقياً في مكاني، كمن استسلم الى قدر لا يريد استفزازه.

دنت مني الصغيرة في محاولة منها اكمال الحديث، أزاحها جانباً، انقض على صدري النازف مثلما كان يفعلها من قبل مثل وحش متمرد. بات يخنقني، وقبل انقطاع نفسي، صرخت سأقتلك في المرة القادمة، ما زلتُ قادراً على قتلك، سيأتي اليوم الذي أتخلص منك الى الأبد.

كنت أصرخ، وأنا كذلك أصرخ شعرت وكأن يد أقوى منه امتدت الى جرحي النازف، ساعية انقاذي من هذا الوحش، وسمعت لحظتها سؤال يوقظني من الموت:

- ما بك؟. ثم «بسم الله الرحمن الرحيم» أعتدتُ سماعها في كل عثرة اصادفها في النوم أو في الصحوة من حبيبة تشاركني الحياة حلوة، قائلة:

- أظن أن الكابوس ذاته قد عاودك من جديد.

أفقت مذعوراً.

نظرت الى المرآة القريبة فلم أر نفسي هادئاً مثلما كنت أشعر من قبل، بل أكثر اضطراباً وأسوء حالاً مما ظننت، فتيقنت أنه الكابوس الذي يتكرر يومياً، يُحشر في نومي، يوقظني مرعوباً أكثر من مرة.



أصل الفكرة

سأترك وطني هذا، تاريخي، حاضري، مستقبلي.

سأهرب من نفسي، ومن كوابيس تقلق منامي.

من محنة أبقت في داخلي شرخاً، مثل شق أحدثه زلزال.

من قناعات بحاضر أمة تَبينَ زيفه ومستقبل لها، سطرهُ الحالمون في كتب لا تقرأ، وقالوا عنه بعض حكايات تبين أنها وهمٌ، ومحض خيال منفر.

من رفقة سياسية فيها السباق للوصول على كرسي قائم على قطع الرقاب.

من نفسي كي لا أعثر بها، فَيُحسب العثر خطأً متعمداً لتدنيس الأرض، يعيدني بسببه صديقي الرئيس الى السجن ثانية، حيث لا خروج منه بعفو يأتي بساعة رحمن، ولا بمكرمة تحل في ساعة يغيب فيها الشيطان.

عبارات قلتها حال جلوسي على السرير بعد الاستفاقة من الكابوس، وأكملتها بأخرى جاءت للتأكيد على عهد أقطعه على نفسي في هذه الليلة التي كاد چاسب يقتلني فيها، خلال حلم عابر في منام كان متقطعاً مثل التيار الكهربائي الذي بات يأتي متقطعاً في أيام الحرب هذه. لكنها لم

تتنبه، وكأن عقلها شردَ منها الى عالم آخر، فمسكتُ يدها وأكملت قولي، من أن هذا القرار لا مناص عنه، ولا أخفي سراً من أن فكرته راودتني منذ أول ضربة تلقيتها في باحة السجن، وقد تَركت على جبهتي جرحاً، أقنعني تحسس الدم النازف منه، أني ما زلت موجوداً على قيد الحياة. فكرة انطبعت في مخيلتي مثل نقش على حجر. كانت ضربة أعادني على اثرها رفاقي محمولاً على أكفهم إلى زنزانتي، أبقوني محصوراً بين جدرانها الصماء، وقد أمحت العصا الغليظة مخزون ذاكرتي، إلا ما يتعلق منها بالانتقام. من ذاك اليوم وانا قلق حد الهياج من فكرة الموت التي أضحت في نظر الرئيس والسجان، لا تعدو أن تكون قضية اعتيادية، وفي نظري أشباح شياطين بلا ملامح واضحة، يسمعوني حكايات الانتظار لموجة تعذيب تدفع آخرين لأن يكونوا من بين الموتى. لقد تحولت الفكرة هذا اليوم الى قرار أصرُ على تحقيقه، تفادياً لاحتمالات العود ثانية الى عالم الموتى والأشباح.

سأهرب. لا سنهرب معاً وإن كان دفعاً الى المجهول، ولما تنبهت الى شرود عقلها كان الصباح قد هل، وكان صقاع الديكة يتعالى، وتبين أنها منشغلة بقراءة سورة الفاتحة وبعض آيٍ من القرآن لتطرد عني الكوابيس.

وضعت رأسي على صدرها الحنون، أتخيل المجهول وطناً بلا حزب يقتل أبناءه، ولا رئيس يتفيأ بظل الاله.

رفعت رأسي قليلاً، نظرت من شباك الغرفة المطل على السماء بفضائها الواسع، كانت هناك أسراب طائرات للحلفاء تغطي سماء

بغداد، وهناك أسراب أخرى تغطي أماكن أخرى من هذا الوطن الجريح.

تابعت تلك التي قصدت بغداد بنظرات أحستني وكأنها أسراب نسور جارحة، جذبتها الى أجواء العراق رائحة الموت التي نشرتها الحرب في كل مكان، فاعتصرني وجع المقت، وزاد في داخلي شدة الدافع على تنفيذ فكرة الهروب.

قلتُ بلعاب متجمد:

ـ سأنفذها وإن كانت تقتلعني من جذوري، وأهلي ومن وطني العليل، مثل اقتلاع السدر المعمر من مكانه، لا يمكنني الآن استبدال فكرتها بكل متع الدنيا.

الرؤيا من الشباك كانت واضحة، السماء واسعة منفتحة لهذه الأسراب المحلقة بلا وجع، ملائمة لأولئك الطيارين الذين تسيدوا وحدهم أجواء بلاد خسرت الحرب قبل أن تدخلها، خسروها بشماتة ملأت نفوسهم بمن أراد الحرب مجداً له شخصياً، وأرادوها هم خسارة له كي يتخلصوا من أمجاد يريد بناءها وهماً على أكتافهم.

الطيارون أو لنقل النسور، يمعنون في الغل حتى العظم، فقللوا من ارتفاعات تحليقهم بالتدريج، لتصبح مرئية لأهل بغداد بوضوح، وكتبوا بعوادمها كلمة النصر (V) كناية لهزيمتنا، وزيادة في الاذلال، ثم انسحبوا بتشكيل النسق، نسور حومٍ شبعت لتعود أخرى من دون عناء في التعرف على المكان. آلاتهم الحديثة تدلهم على المكان وإن كان علَيِّقَة وسط صحراء أو بئر جف منه الماء. قالت:

– لِمَ لا تحاول النوم بعد طلوع الصباح حبيبي وقد أرهقك السهاد.

- لا أريد النوم ونصف أوصالي مقطعة من الداخل، ونصفها الآخر منشغل بهموم الطريق الى ذاك المجهول.

- أرجو أن تخفض صوتك خشية إيقاظ البنات من نومة الصبح التي يحبون.

- لقد تعودت الكلام بصوت عالٍ في اللحظة التي دق فيها چاسب قلم الرصاص في إذنيَّ عمداً لتمزيق الطبلة يوم كنت نزيلاً في الزنزانة الرقم (٥)، تلك الزنزانة الذي اعتاد الذباب يصفر في ربوعها حد القيئ، في أوقات الظهر القائظ على وجه الخصوص. ها هو ألم التمزيق يعاودني الآن. وكذلك رائحة الدم كأني أشمها، هي الرائحة ذاتها عندما لم يسمح چاسب آنذاك بمسح الدم النازف من بعض شرايينها، لكي يتفرج على حالي النزلاء الآخرون في ذهابهم الى حمامات الصباح ويتعضوا.



عدت الى البيت مبكراً، فالدوام في الدائرة التي أعمل بها ودوائر الدولة الأخرى مرتبك جداً، بسبب القصف الجوي الذي بدأه الحلفاء على بغداد وبقية أنحاء العراق في حرب خليجية يقولون عنها الثانية، ويقول عنها الرئيس أُم المعارك، سعياً منه لإعطائها قيمة معنوية تدفع العسكر الى الموت بلا ألم، ويكسب هو المجد دونما عناء، هو هكذا وقادته أيضاً، يعطون لمعاركهم سيماء ذات وقع على السامعين، وإن كان بعضها خاسراً. إنهم لا يعترفون بالخسارة، كل عمل يقومون به مضمون ربحه،

يقوي الأمة، يعيد بناءها موحدة من جديد، شعارات يعتقدون أن السامع قد صدقها، ويعتقد السامع أنهم صدقوا وهمَ صدقٍ لم يحصل أصلاً.

لقد بلع الطعم، قلتها ونظرت الى من حولي، فوجدت الحبيبة وأربع بنات في ريعان الشباب وطفلتين، كأنهن جميعاً يرغبن الاستفسار عن العبارة المبهمة ومجريات الحال، لكني أغلقت باب الاستفسار بالالتفات اليهن طالباً التهيؤ للخروج من بغداد التي تنعق في سمائها الغربان. ومع هذا الغلق المتعمد من جانبي أدرَكَتْ هي بذكائها الفطري حلول وقت الرحيل الى المجهول.

نظرت اليها في هذه اللحظة الحرجة من الحياة، كانت أشبه بالضائعة، تتحرك في المكان. تأخذ شيئاً ما، فتتركه الى غيره لتعود اليه. تفتح خزانة ملابسها لتأخذ منها ثوباً ثم تعيده الى مكانه، وكأنها لم تعد بحاجه اليه. تدخل المطبخ لإعداد وجبة غذاء سريعة، ثم تتركه لتعود الى خزانة الملابس، كأنها نسيت نوع الغذاء الذي ذهبت لإعداده. لم يكن الحال ارتباكاً، لا يمكن تسميته ارتباكاً، بل كان قلقاً يؤشر حصوله كثر التحرك في المكان وشدة النسيان.

مَسحت دمعةً نزلت غصباً قبل اكتشافها، لا تريد إظهار ضعفها أمام البنات، فالمشوار طويل، ومليء بالمفاجئات من العيار الثقيل. وهي منشغلة ومرتبكة، تتكلم مع نفسها كلاماً غير واضح، فَتحتُ الراديو قبل أن ينقرض، وخشية هذا الانقراض أبقيتهُ مفتوحا لأتابع أخبار العراق في صوت أمريكا، أتنقلَ منها الى الاذاعة البريطانية، ثم مونت كارلو، أرى أنها جميعاً قد اتفقت في الرأي على أن العراق دخل أتون الفوضى، ولن

يخرج منها سالماً. فعاودتُ تكرار عبارتي السابقة «لقد بلع الطعم».

وضعت في مخيلتي رسم الحدود مع إيران، ومعلومات جمعتها عن انتقال غالبية القطعات العسكرية المدافعة عنها قبل أشهر الى الكويت لتشارك في صنع المجد. أظن سهولة عبورها، وأظن المجازفة في مجالها ليست عالية، آخذاً في الاعتبار وضعاً يزداد ارتباكاً، بإصدار الرئيس أوامره للقطعات المدافعة بالانسحاب فوراً من داخل الكويت، الدولة التي حسبها قبل أشهر محافظته التاسعة عشرة، بما يناقض أوامر سابقة له بعدم الانسحاب وإن جاءت مذيلة باسمه شخصياً، الأمر الذي زاد من وتائر الفوضى وانكسار المدافعين، وأوقف العسكر على أطلال حدودهم، يذرفون الدمع من وجع الانكسار بعد أن صَيَّرهم الزمن أو صَيَّرَ عيونهم دامعة بسهولة. وها أنذا الآن وفي هذا البيت الذي أسعى الى تركه، والتوجه صوب المجهول بتّ أذرف الدمع معهم حسرةً على العراق، وخوفاً من الانكسار في الطريق الى المجهول، أنعصرُ ألماً من شدة الاحساس بالانفصال عن بلاد أحببتها، كأني أجتاز وإياهم خط الحدود وخزاً بحراب العدو، فصحتُ من وجع النفس «لعنة اللّه عليه»، صيحةً لم يفهمها الموجودون. ولكي أتجنب صيحة أخرى تضعفني أمامهم، سحبت نفسي أو سحبني عقليَّ الباطن الى ذكريات اتهامي بالمشاركة في مؤامرة قيل دبرها محمد عايش.

هززت رأسي من بطلان دوافع الاتهام، وقبل التمتع بفرصة هدوء، بادرتني أُم شيماء بالسؤال عن لفحة اصفرار غزت عموم جلدي المكشوف، وعن حبات عرق تناثرت بغزارة على وجهي الحزين.

لم أجب، وبدلا عن الاجابة سحبتُ نفسي الى قعر الذاكرة البعيد، بتّ أقلب أقنيتها وعيناي مفتوحتان، كأنهما اندفعتا الى خارج محاقهما، واصطبغتا بلون الدم الذي يكاد يعميني. قلبتُ وقَلبتْ، فَشَلَّ كثر التقليب خلايا عقلي حتى أصبحت لا تستجيب، وكأنها شاخت قبل الاوان، فعاودت الكرة ثانية، لكي أبعد اليأس عن خطوط دفاعي، فجاء المشهد الذي ظهرتُ فيه عصر أحد أيام الصيف في سجن أبو غريب، لا أدري أي صيف، أتذكر فقط أنه كان صيفاً، وكان المسؤول عن قاطع السجن هو چاسب، وكان أن ابتسم فيه لأول مرة، تعجبنا من هذه الابتسامة التي شبهها حليم مثل نور ساطع من السماء، لكنه وبعد لحظة ودون أي سبب انقلب الى حيوان بائس، غاضب من شيء ما، وقد اكتسى صوته بنبرة عداء عندما ناداني بكنيتي «أبو صماخ» طالباً مني بصيغة الأمر الفوري أن أتجه الى أنبوب حديدي ممدود من زاوية الشباك الخاص بغرفة الخفراء، الى حافة البناء المؤدي الى الحمامات. ثم قال:

تعلق بكلتا يديك، أيها الحقير الباقي على قيد الحياة وسط أكوام الموتى.

قالها وهو يغزني من مؤخرتي عندما قفزت سريعاً دون تفكير بماهية الأمر، اذ لا أستطيع أنا ولا غيري من الرفاق السجناء، التأخر عن التنفيذ حتى لو كان الأمر خطوة واضحة باتجاه الموت.

تعلقت وحميدي السجان الضخم بوزن يزيد عن المائة والعشرين كيلوغراماً، وطول يقترب من المترين، يقف «ببسطاله» المليء بالقاذورات على أصابع يديَّ التي أمسكت بالأنبوب المذكور، يضغط عليها بثقل

حسبته أطناناً من برادة الحديد، ليقدم جسدي مرتعشاً مثل سعف النخيل الى سالم السجان الواقف في الأسفل، ليضرب بأنبوب مطاط «الصوندة» على أصابع قدميّ. كان الضرب شديداً وقاسياً ومتواصلاً، لم أعرفه من قبل في عموم حفلات التعذيب التي سبقت.

ما بك سألت حبيبتي؟. كأنك لا تقوى على الوقوف.

فأجبت:

– لا. ليس هناك من أمر يستحق القلق، شعرتُ بقليل من الرعشة في جوفي، سأجلس على هذه الأريكة، أرتاح قليلاً. أكملوا أنتم جاهزية الرحيل.

جلست منهك القوى، كأن وقع الضرب يحدث هنا والآن، وفي أثناء جلوسي استمر شريط الذكريات، المصحوب بألم استحضار الانفعال المكبوت فاعلاً، حتى أحسست وجعاً وكأن دبوس قد غُرزَ تواً في أصابع قدميّ، بعد أن استحضر العقل الباطن، صور الضرب المتكرر على جذر الأظفر لإبهام قدمي اليمنى، حتى خرج من مكانه، وتلك الكلمات التي وجهها چاسب الى سالم ليزيد وقع الضرب على الابهام الاخر لقدمي اليسرى لاقتلاع اظفره أيضا.

كان سالم وحشاً في تكراره الضرب على جذور الأظافر، وكان چاسب حيواناً في اشتهاء فريسته مخضبة بالدماء، لقد دام المشهد وقتاً كان طويلاً، لا يمكنني تذكر مقاديره، لكنه طويل جداً، وكان الوجع يتحول فيه من القدمين عندما يرفع سالم خيزرانته استعدادا لإسقاط الضربة الاخرى الى رسغ اليدين التي تسحق أصابعها ضغطاً من حميدي ذاك

الحيوان الواقف فوقها من الأعلى، ليطال مفاصل الكتف التي تمزقت بعض أوتارها، وتمددت مثل رقبة مظلوم التهمته ماكنة الشنق. كان حفلاً خاصاً، هُم يسمونه الحفل، ونحن نسميه البرزخ، فيه حميدي فناناً في الضغط، وتحريك (البسطال) نحو اليمين والشمال، وچاسب الذي يتفاخر من أنه يسبق مراجعه الكبار بإماتة سجنائه، يطلب المزيد من الضغط، شرهاً لم يَشبع غريزته في الايذاء حتى سقوط آخر اظفر من أصابع القدمين وامتلاء المكان بدماء اسودت من فرط الغيظ.

عاوَدتْ هي السؤال عن حالي وشدة الاصفرار، وعاودتُ نكران تعرضي لأي شيء، وطمأنتها حبيبة، بات وجودها القوي ضروري لإنجاح الغوص في جنبات المجهول. أخذتها جانباً، لا أريد أحداً يسمع شيئاً مما أقول. همست بملاءمة الظرف السائد للمجازفة في معاقرة المجهول الذي انتظرته طويلاً.

سألتها عن رأيها في تحقيق الحلم الذي سبق أن أخبرتها عنه من قبل، أجابت بالثقة ذاتها:

- إني والبنات معك الى الموت.

- لا يا عزيزتي لا تطرقي على مسامعي سيرة الموت، لأريده لكم. ما أريده الانتقال وإياكم الى حياة بلا عذابات، حياة من نوع آخر لا توجد فيها تهم ولا افتراءات، ولا تصفيق آثم للرئيس. أذهب بكم بعيداً الى عالم بلا نفاق. سألتني:

- عن ماذا تتكلم؟. وكأنك تهذي، وهل الوقت مناسب لتحقيق الأحلام في ظروف لم يعد فيها أحد يعرف نفسه أو مصيره؟. فأجبت:

- انه ملائم، بل هو الوقت الملائم، إذ وعندما تختلط الأمور ويتوه القوم، ولم يعد أحد منهم يعرف نفسه، يقل التركيز علينا، وتختفي عيون الرقابة، وينتقل الجهد لحماية أنفسهم من عاديات الزمان. ألم تلاحظي كم يحب كبيرهم نفسه، وكم يخاف الموت؟. يمكنك معرفة هذا بسهولة من خلال أرتال الحمايات وإجراءات الأمن التي يعدها في تنقله والسير، ومن مقادير الشك في نفس له أضناها الشك.



الاخبار التي تتناقلها وكالات الانباء والإذاعات العالمية، تؤكد استمرار انتفاضة الجنوب، قادمةً من البصرة، يوم امتلأت شوارعها بالجنود المهزومين من معركة قرروا أن لا يقاتلوا فيها عدواً شخصياً للرئيس، وامتلأت بوحل أسود غطى (بساطيلهم) المتهرئة مشياً، وهم ينسحبون من الكويت، الدولة التي قرر الرئيس عدها محافظة من عنده، وأشعل فتيل الحرب. وبسخام دخان يتسارع مقدمه من آبار النفط المحترقة في تلك الدولة - المُحَافظة، بأمر منه شخصياً. وتؤكد أيضا امتدادها الى العمارة والناصرية، ورُسوِّ قدماتها في اليوم الخامس، عند مدينة الحلة القريبة من بغداد.

تركتُ البيت وسط الحيرة النافرة مستعجلاً، لا تفارقني صورة التعلق في الانبوب الحديدي، وأضافر أصابع قدميَّ التي اقتلعت جميعها، ووقوعي من بعدها على الأرض الاسمنتية غير قادر على النهوض حتى

حلول وقت النوم، ومنع چاسب تقديم المساعدة لنقلي من المكان الذي أراده إشارة بؤس لمن يمر عليه، وتمنيته أنا مكاناً لأنهي وسطه حياة أشبعت بهموم التعذيب.

غبتُ نصف ساعة، قاصداً الدائرة التي غادرها معظم المنتسبين.

لملمت جل أوراقي المهمة، ختمتُ هوية أعددتها بنفسي لنفسي، خبيراً في الكهرباء، لتسهيل المرور وسط أرتال المنكسرين. وعدت من بعدها متجهاً الى البيت مسرعاً أتسابق مع الزمن كأني مجذوب.

نظرتُ في عينيها السوداويتين، فوجدت فيهما تصميماً على المضي الى آخر المشوار، وتردداً أو خوفاً من السير الى المجهول، لكني لم أتوقف فالأمر قد حسم، وكل التفسيرات تأتي الى صالح الخوض بالتجربة الى آخر المشوار.

فَهمَتْ الإشارة التي أعطيتها تلميحاً لبداية الشروع، فاندفعت مستعجلةً بوضع كل الاحتياجات، من ملابس ولوازم ضرورية في شنطة واحدة، واقتسمت معي المبلغ المكنوز خمسة وثلاثون الف دينار. وضعت حصتها في حزام خاص بالحجاج الذين يقصدون بيت الله الحرام، كانت تحتفظ به ليوم تريد فيه اتمام فريضة الحج. أخفته تحت ملابسها الاعتيادية، وأومأت لشيماء بالتوجه سريعاً الى المطبخ لتهيئة طعام، أحسَتهُ وجبتنا الأخيرة في هذا البيت الحكومي القريب من الدائرة. أما أحلام الثانية في التسلسل، فتقدمت للمساعدة في نقل البنزين من السيارة الحكومية الى سيارتنا الخاصة، وعندما وجدَتْ صعوبة في مد الانبوب المطاطي «الصوندة»، الى حوض السيارة الحكومية طلبت من

شقيقتها الأصغر معاونتها في نقله، بواسطة قدر تفرغان فيه الوقود أولاً، ثم تعيدان إفراغه في حوض السيارة (الماليبو) لاحقاً، حتى أمتلأ تماماً، وامتلأت البطون بالطعام، وأرتدى الجميع الملابس الملائمة للسفر، وكأننا عائلة تتجه الى الأقارب خارج بغداد، مثل غيرنا من العائلات التي غادرتها خشية معاودة القصف الدولي على العاصمة من جديد والتجأت الى أقاربها في المحافظات.

تبعتني شيماء وبقية العائلة بالسيارة الماليبو، وأنا بالسيارة الحكومية أحث الخطى متجهاً الى المؤسسة.

وقف حارس المرآب أبو علي بمواجهتي متعجباً الرغبة في إعادة هذه السيارة الى مكانها في هذا اليوم العصيب، وسأل:

- لماذا تعيدها سيدي في يوم هو يوم خدمتها سيارة حكومية، وقودها بالمجان؟.

- إنها شرهة في صرف الوقود، الذي يفترض الاحتفاظ به لحاجة وطنية أهم.

هناك في هذا الخزان الذي أمامك آلاف اللترات، لك الحق في أن تأخذ منه ما تشاء ومتى تشاء.

- عليّ تسليمها، من الضروري الاقتصاد بالوقود دعماً للمجهود الحربي، أقل ما علينا فعله في هذا اليوم هو الاقتصاد بصرف الوقود، ثم أن العسكر في الحرب والمهام الحكومية هم الأحوج، وأنا سأستعمل سيارتي الخاصة اقتصاداً بالوقود. وداعاً أبا علي، أيها الحارس الملتزم.

أشرت اليه بحركة سدت عليه مساعي الاستمرار في توجيه الأسئلة لمجرد الكلام، تعويضاً عن وحشة المكان الذي يعيشه وحيداً وسط السيارات والوقود، آخذا في الاعتبار صيرورته وكيل أمن، مثله مثل غيره بعد أن أصبح جل الحراس وكلاء أمن رضوا أو لم يرضوا.

أخذت مكاني خلف مقود السيارة الماليبو. أدرت رأسي صوب البيت والمؤسسة، لأبدأ خطوتي الاولى من المشوار، وما زالت صورتي معلقاً بعارضة عمود حديد، وعجزي عن الخروج من زنزانتي لليوم الثاني، ومصاعب الذهاب الى الحمام صباحاً، وألم الجروح من أصابع تورمت لم تفارقني، وكأنها أصبحت هي الدافع الذي يحثني على الاستمرار في السير نحو غياهب المجهول.



وصلنا العامرية بعد الظهر، كانت هي محطتنا الثانية، لتبدأ الثالثة مع سامي، الخال الأكبر للبنات الذي أخذ مكانه خلف المقود، متجهاً بهم الى مدينة بابل، وحال وصولهم اليها عصراً، استبدل الماليبو بسيارة الفولفو العائدة الى عواد شقيقي الأصغر لتفادي المتابعة الأمنية لسيارة الماليبو، واستمر في طريقه الى مدينة الديوانية التي وصلها مساءً، وقد ضيّفَ عند صديقي وكاتم أسراري المهندس جابر، حيث وضعته في الحسبان عند أول مرة ترسخت فيها فكرة الهروب، كمحطة محتملة على الطريق.

لم يتفاجأ جابر بالموضوع، بل كان متوقعاً حصوله بين ساعة وأخرى، فهو يتفق معي أن الوقت مناسب، وقد بين رأيه هذا في الاتصال الهاتفي الذي تم بيني وبينه مشفراً أول أمس.

قضيت ليلتي هذه التي بدأت بها الزحف صوب المجهول مع المحامي مزهر في العامرية. مرت ساعاتها نقاش وتخطيط وتمنيات، وصباح لاحق اتجهنا فيه معاً الى الدبوني بعد المرور في العزيزية لاصطحاب الحاج عاشور، والحلول ضيفاً على الشيخ شعلان، الصديق القديم، ذو التأثير الواسع على الباقين من السكان الذين ينتمون أغلبهم الى عشيرته، معنا السيد مزعل المعروف بحنقه على الرئيس. وبعد أن حل علينا المساء، توافد كبار القوم عند مضيف الشيخ لتناول العشاء. وعندما خرجوا بعد انقضائه بساعتين، أفصحت عن حلم انتظرته طويلاً، وعن إيران خياراً أولاً لتحقيقه في هذه الأيام الأكثر مناسبة للتنفيذ الآمن بنسب عالية.

سأل الحاج عاشور:

- لِمَ أخترت إيران جهةً للهروب؟.

- حدودها الأقرب إلينا، وحكومتها مازالت في عداء مع الرئيس، وعلى هذا فان الهاربين إليها سيكونون في مأمن من الأسئلة، والتحقيق الذي تثيره الشكوك في مثل هكذا حالات، ثم أني قررت أن لا أبقى فيها طويلاً، سأتخذها طريقاً للمرور فقط، ومنها أتجه وعائلتي الى سوريا التي تعد علاقتها مع إيران جيدة على كافة المستويات. سوريا التي احتفظ لها بصور واضحة في ذاكرتي البعيدة أيام هروبي اليها زمن الشباب، سيستقبلونني فيها حتماً، خاصة وإنهم يعرفون تهمتي المشاركة

في مؤامرة هم أيضا متهمون طرفاً فيها على حد سواء. أكاد أكون واثقاً من أنهم سيستقبلونني كادراً حزبياً يعرفونه جيداً.

أتفق مزعل مع هذا الرأي، وأشار الى البصرة التي سيطر عليها المنتفضون احتمالاً مقبولاً للنفاذ الى إيران، وإن كان الطريق اليها من الكوت العمارة تتبادل السيطرة على غالبية أجزائهِ القوات العسكرية والمنتفضون، وكذلك الحال بالنسبة الى الطريق المار بالناصرية، وأشار أيضاً الى حساسية الموضوع، وخطورته، وحاجته الى التأني قدر المستطاع. واقترح حميدي العودة الى بغداد، ومنها التوجه الى خانقين، وقال ثالث، من المناسب التوجه الى الشمال، وهكذا كثرت الآراء والمقترحات على عدد المتبقين في المضيف، واستمر النقاش المتعدد الأوجه الى ما بعد منتصف الليل على موقد نار مادته أغصان شجر من الطرفة التي تكثر في المنطقة، كان فيه شعلان مستمعاً جيداً، وكأنه غاص في هموم لا يريد الافاقة من وقعها، الى أن نادى على ولده مساري بصوت فيه صيغة أمر واضحة... مساري كبير الأبناء جالس مع أبناء عمومته وأخوته حول موقد آخر يتصاعد منه الدخان، يتسامرون بعيداً عن الآباء وضيفهم العزيز، منشغلون بهموم الشباب.

- أحضر سيارة الحمل الصغيرة «البيك آب» على الفور، واصطحب اثنين من أخوتك بينهم سلمان، تعرف أنه شجاع ومعروف بقوته بين الشباب، ومن ثم اذهب الى المزرعة، لملأها بنصف طن من محصول الخس.

- في هذا الليل؟. لم لا لم نؤجل التنفيذ الى الصباح حيث القدرة على

انتقاء الناضج من الخس في وضح النهار.

أعاد الشيخ شعلان تأكيد طلب يريد تنفيذه الآن.

- خذ فانوس للإضاءة، واملأ السيارة بالمحصول عن آخرها، ومن بعد توجه وحدك الى بدرة، لتكون فيها قبل شروق الشمس، ولا تنس أخذ وعاء فيه عشرون لتر «بنزين» احتياطي، تحسباً لاحتمالات غلق محطات الوقود في هذه الظروف غير الطبيعية.

- نعم، ثم سأل:

- هل هناك طلبات أخرى؟. ماذا سأفعل بالمحصول في قضاء بدرة الذي لم يسبق أن سوقنا له أي من محاصيل مزرعتنا؟.

سحبهُ جانباً. كلمه بصوت إعتقده غير مسموع من بقية الشباب، كلام نابع من سلطة قوية، وكأنه عاد إلى أيام الخدمة العسكرية التي وصل خلالها الى رتبة عريف في صنف المشاة، قائلاً:

- عليك بيع المحصول بأي ثمن، وإن لم تفلح فوزعه على الناس الاعتياديين في سبيل اللّه. لا تبقَ في المدينة أكثر من نصف ساعة. توجه الى الحدود، صوب مزرعة عمك الفريق حماد التي خصصها له الرئيس مكرمة حرب يوم خسر كل منتسبي فرقته في معركة شرق البصرة ابان الحرب العراقية الايرانية.

- هل تتذكرها؟. سبق ان زرناها معاً قبل شهرين. دقق في تفاصيل إمكانية عبور الحدود عن طريقها الى إيران بسلام. أنا أعتمد عليك أنت ابني الكبير، أستودعك اللّه.

- أبشر، أنا أخو ريما.

كان مساري واثقاً من تنفيذ الأمر الذي عده مهمة يهوى تنفيذها في ظروف يكتنفها الغموض، وتعلو فيها حدود المجازفة. من طبيعته الميل الى ركوب موج المجازفة، كأنه يشتهي المثير.

وصل وحمولة الخس مع عشرين لتر بنزين في وعاء بلاستيكي الى بدرة بالساعة السادسة صباحاً. باع المحصول بنصف السعر السائد للبيع في سوق تبدو راكدة، ومن بعده اتجه صوب المزرعة التي تمر الحدود من جانبها الشرقي، انعطف الى اليسار، سأل شدهان، فلاحها الوحيد بعد إلقاء السلام عن عمه السيد الفريق، فلم يحصل على إجابة واضحة عن مكانه الصحيح. وبدل من الحصول على الاجابة الملائمة عن مكان الفريق، رد شدهان بسؤال عن الغاية والمطلوب من السيد الفريق في هذا الصباح الباكر؟.

عـرّفَ مساري عن نفسه ابن الشيخ شعلان. حاول تذكير الفلاح بالوالد ومنزلته، وعندما شعر بالفشل، قال أن الوالد بعثه ليسأل عن قريبه السيد الفريق، فيما إذا كان محتاجاً لشيء ما في هذه الأيام، خاتماً تعريفه هذا بالتأكيد على أن الفريق هو من أخوال الوالد وعزيز عليه. عند هذا استجاب شدهان لهذا التعريف، رحب به وبالوالد لطيبة أصله. طلب ايصال السلام له شيخاً كبيراً. تعهد اخبار الفريق بهذه الزيارة، والسؤال حال مجيئه من تكريت.

توقف مساري جانباً، سأل عن المياه التي تغطي أرضهم إذ لم يشاهدها في المرة السابقة التي حضر بها مع الوالد، وتجولا مع السيد الفريق في ربوعها. أجابه شدهان المخلص الى الفريق قائلاً:

- إنها مياه سيول من أمطار هطلت غزيرةً في الأيام الماضية، فتجمعت هنا في هذا الجزء المنخفض عدة كيلومترات الى اليمين، ومثلها الى الشمال، لكنها والحمد لله لم تغمر من أرضنا سوى أمتاراً، وبقية المياه الممتدة الى التل المقابل، هي في مجموعها تغطي الجانب الإيراني من الحدود.

لم تكن المعلومات التي أرادها مساري قد اكتملت، فخطرت في باله مسألة الألغام، لقد سمعها في النقاش الذي دار بين الوالد، والسيد الفريق في الزيارة السابقة، سأل فيما إذا تسببت السيول في جرفها أو أظهرت ما كان متروكاً منها من أيام الحرب، مما يعني تسببها في بعض المخاطر عليهم، وعلى زرعهم بعد اليباس. طمأنه شدهان بالقول:

- لا توجد الغام، وان السيد الفريق يوم استلامه الأرض من المحافظة هدية من السيد الرئيس، جلب جماعة من الهندسة العسكرية، عملوا مسحاً لأرجائها جميعاً، تأكدوا من عدم وجود ألغام. كما إن الإيراني صاحب الأرض المقابلة، يزرع أرضه سنوياً بمحصول الحنطة، تتجول فيها ماكنة الحراثة والحاصدة، لم نسمع انفجار لغم قد حصل خلال هذه السنوات الثلاث التي قضيناها هنا.

وبقصد تلطيف الأجواء سأل مساري:

- عمي شدهان، هل الايراني صاحب الأرض المقابلة هو كذلك برتبة فريق؟.

ضحكا معاً، ومن بعد قهقهة كاد صداها يصل الفلاح الايراني. قال:

- ما قصة هذه المياه التي تبدو عميقة؟، وهل ستبقى في أماكنها

طويلاً؟. رد شدهان:

- بالنسبة الى المياه فان بقاءها مرهون بمدى تساقط أخرى في الأيام المقبلة، أما عمقها فهي ليست عميقة بحسب تجربة خوضي لها بالأمس لجلب طير اصطدته، أظن وصولها في أدنى مستوى لا يزيد العمق فيه عن مستوى الحزام، باستثناء بعض الحفر التي أجزم وجودها في عدة أماكن غير معروفة.

اكتفى مساري بما حصل عليه من معلومات اعتقدها وافية بالغرض الذي جاء من أجله. سلمَ على عمه الفلاح، وطلب ايصال السلام نيابة عنه وعن أبيه الى السيد الفريق، واعداً بزيارة لهما في القريب.

في المقابل طلب شدهان من مساري ابلاغ سلامه الى والده الشيخ شعلان.

❖ ❖ ❖

وصل مساري بيته عائداً من الحدود مع أولى ساعات المساء. أشركه الكبار في حوارهم بعد أن ثبتت أهليته لتنفيذ المهمة التي كُلفَ بها. استمروا وهو معهم في محاولة اتخاذ قرار بصدد استخدام هذا المسلك من عدمه. بدا الوالد شعلان مفتخراً بولده الذي أنجز ما طلب منه باقتدار، وبدأ هو شرحاً مفصلاً لجولته بالمزرعة، كأنه واحد من جنود الاستطلاع، أردفه بالإشارة الى نهج حواره مع الفلاح، وطبيعة الأرض، وتجمع السيول على خط الحدود، الذي يقتضي العبور من خلاله، تَركْ

السيارة والخوض مشياً لمسافة تصل الى ما يقارب نصف كيلو متر في أضيق نقطة تؤدي الى اليابسة في الجانب الإيراني، أو استخدام زورق. أكد لهم واثقاً أن العبور مشياً أو باستخدام زورق لابد ان يتم في الليل، وبمعرفة شدهان، الذي يبدو حذراً بعض الشيء.

مسألة الفلاح ليست مشكلة، المشكلة يا جماعة الخير بالزورق، من أين لنا بزورق في هذا الوقت الحرج، قال الشيخ شعلان.

هنا وفي هذه العقدة من الموضوع تدخلتُ قاطعاً الطريق على مزيد من التفكير في هذا المسلك، فقلت:

– لابد من التغاضي عن الزورق، لأن اصطحابه من هنا الى بدرة والتوجه به الى الحدود، سيثير علامات استفهام في عقول رجال الأمن والاستخبارات، الغارقين في الشك بكل شيء. كذلك فالخوض بمياه غير معروفة في ليل شتاء مظلم لعائلتي من البنات، مجازفة لا يمكن اتخاذها باي حال من الأحوال.

سأل المحامي مزهر:

– وما الحل إذن؟.، فأجبته بصوت لا يخلو من مسحة اكتئاب:

– لابد من دراسة الخيارات الأخرى.

صحيح قال الشيخ شعلان وأضاف مخاطباً:

– الخيار الآخر هو البصرة، لكن مشكلة تبرز بالمواجهة، تتعلق بكيفية النفاذ اليها ... مدينة يتوزع من حولها العسكر ... سيطرات متعددة على الطريق؟.

لقد أخذت المناقشة وإبداء الآراء ردحاً من الليل، قَلبتُ خلالها أوراق

ذاكرتي، قصصت تفاصيل الاتهام بالمؤامرة جزافاً، وسير التحقيق والمحاكمة التي كانت صورية. بدأت بالأيام الأخيرة، ومن تبقى معي على قيد الحياة حتى آخر لحظة في ذاك السجن الرهيب، وشعورنا طواله أننا فئران تجارب، يتلذذ على بعض نتائجها خلسة الرئيس بإطلالته عبر الغرفة المخصصة للموتى قريباً من ساحة التعذيب عدة مرات، عرفته من وقفته والسيجار الذي ينفث دخانه بمتعة كبيرة، على الرغم من تخفيه بلباس عربي تقليدي. إنها ذكريات كان وقع مجملها كئيباً وذا وزن ثقيل على السامعين، حاولت أن أغير من سيرها فأخبرتهم أن فكرة الهروب تكونت عندي في أول ضربة تلقيتها في السجن، تَضخمت في عقلي المهووس بالهروب، نسجتُ خيوطها في اللحظة التي دخلت بها البيت مطلق السراح وبقية الرفاق بعفو من الرئيس. فكرة أضحت تمسي معي، وتصبح كذلك معي منذ الكابوس الذي أقض مضجعي. تخيلتها مشياً بين جبال الاكراد، ووديانهم توصلني الى ايران. تصورتها ركوباً لسيارات المهربين عبر الصحراء تضعني عند الحدود السورية، وثالثة صوب الاتراك عبر الجبال. فكرة طالما أعطتني أملاً في البقاء حياً، وأبعدتني عن الجنون، كما أعانتني على تحمل البقاء في وضع القرفصاء بالزاوية اليمنى من الزنزانة منذ الصباح حتى حلول وقت النوم كجزء من العقاب يُطبَق بين الحين والحين... فكرة لم تقلل من شدة الميل الى تنفيذها إجراءات النصف الثاني من السنة الثالثة في السجن، عندما استبدلت فجأة شتائم الجلادين وخدش الاعراض وهراوات منتصف الليل، بأوراق جلبها العميد لامع ضابط أمن الجهاز، المشرف على مشروع

التدجين، قدمها لمن بقي منا على قيد الحياة لنكتب فيها شجباً موجعاً للمؤامرة، واسترحاماً لعفو عن ذنوبها المخجلة حسب قوله. آه كم رسخت في عقلي هذه الفكرة، حتى لم يخفف من غلواء رغبتها غياب چاسب المؤقت لشهر قضاه في دورة خاصة داخل الجهاز لتعلم فنون الاذلال على يدِ خبراء يوغوسلاف، استقدموا خصيصا لهذه الغاية، كما لم تقلل من وَقْعها الأشهر الثلاثة التي قضيتها ضيفاً في المخابرات.

قال شعلان:

– ما هذا الكلام؟، كيف تكون ضيفاً، وأنت سجين مطلوب أماتتك أو تدجينك من قبل الرئيس؟. فأجبت:

– ان رئيس الخفر طلبني الى غرفته مساء أحد أيام الشتاء، كان هو الشتاء الثالث لنا في أبو غريب، تصورت أنهم سيذهبون بي الى غرفة الاعدام، وعندما خرجت بسيارة محكمة الغلق غيرت تصوري، معتقداً هذه المرة أنهم سيدفنونني حياً في مكان ما من أرض العراق، سبقني الى الدفن فيها آلاف المغدورين. لكن الأمر بدا مختلفاً تماماً حال الوصول الى المخابرات، إذ استقبلني ضابط بمنتهى الاحترام، ناداني باسمي الصريح، شعرت بالغرابة عندما ناداني باسمي الصريح، فقد تعودت على كنيتي الدارجة «أبو صماخ». بعدها بقليل أرسل طبيب لغرض إجراء الفحص السريري لكل أعضاء جسمي. وبعد أن عرف اصابتي بالذبحة، كتب لي دواءً وأمر في أن يكون غذائي مقتصراً على المشويات.

– أتذكر أول يوم جاء فيه صحن المشويات، كباب وتكة دجاج وصمونتين، التهمتها بشراهة كمن لم يذق الأكل دهراً بحاله، كذلك

طلب الطبيب إخراجي الى الشمس ساعة في اليوم. سألت نفسي لمَ هذا الدلال، لم يخطر في بالي احتمال الخروج بعفو خاص من الرئيس، لقد تحيرت حقاً في الأمر، وتبين بعد استعادة جزء مهم من عافيتي أن العميد قوات خاصة حمدي العزاوي قد نجح في الموت انتحاراً في المرة الثانية، وعُرضت أوراقه على الرئيس، فتذكره من بين الذين كلفهم شخصياً باغتيال الفريق حردان التكريتي نائب رئيس الجمهورية داخل الكويت في العام ١٩٧١، وتذكر محاولته الأولى للانتحار، وتكليفي عندما كنت مسؤولاً للتنظيم في كركوك بالتحقيق في الموضوع، ورعاية العزاوي بكونه أحد أهم المنفذين، وأراد أي الرئيس بعد موت العزاوي انتحاراً هذه المرة توثيق هذه القضية بصيغة أن يكون فيها بطلاً، هو من خطط للموضوع واشرف على تنفيذه. وبما أني أصبحتُ عارفاً ببعض تفاصيلها من العزاوي عند محاولته الأولى الفاشلة، فقد اشار الى استدعائي من أبو غريب، وتسجيل شهادتي بالصوت والصورة، ومن بعدها إعادتي الى ذاك السجن المشؤوم. وهكذا سجلت شهادتي، فيها اكبار لشخصه، وتضخيم لدوره، أضفت من عندي مزيداً من الاشادة والمديح. أعترف أني زيدّتُ في الاشادة خائفاً من أن يعتقد عند مشاهدتها أني قصرت في بعض منها، يريده هو بارزاً، فيصب جام غضبه عليّ، وبالوقت نفسه استثمرت هذه الفسحة التي تعد جنة بالمقارنة مع ما يجري في أبو غريب لإطالتها جهد الامكان فكانت ثلاثة شهور، لا يمكن عدها من أيام السجن بأي حال من الأحوال.

أحسست فجأة بالتعب الشديد، فأشرت للموجودين وأنا ألملم شتات

أفكاري، أني أشعر بالتعب والحاجة الى النوم. التعب الذي أحسسته لا علاقة له بالإجهاد الحاصل من الطريق، ولا حتى من كثر الكلام، كان وبالتحديد من تداعي الانفعالات المصاحبة للكلام. حتى لم أجب مزهر عندما طلب مني المزيد من الايضاح عن مكوثي ضيفاً في المخابرات، وكيفية اغتيال حردان التكريتي في الكويت، وقلت ها قد بلغت الساعة الرابعة صباحاً، علينا النوم والاستعداد لغد قد يكون طويلاً.



كان حلول الصباح بهيجاً بعد سهرة امتدت قريباً من حلوله. غاب في ربوعه طائر الحجل، وصوته الجميل في مناداة ذكوره للإناث، وقد اعتاد التقرب من أطراف البيوت الممتدة على طول مزارعها بداية الصباح، كأنها تخاف أزيز الطائرات التي تحلق الآن بكثافة فوق هذه المنطقة، قاصدة ضرب أهداف لها في بغداد.

نهض مزهر قبل غيره، تناول رغيف خبز من على التنور الذي تعلو ناره لتهيئة الفطور، وأخذ سيارته التويوتا قاصداً الديوانية، ساعياً جلب العائلة من هناك الى بيت الشيخ شعلان في هذه النقطة التي عُدّت أساساً للانطلاق في تنفيذ خطة الهروب.

سألت شيماء والدتها حال سماعها خبر التهيؤ للذهاب الى الدبوني:

- لم هذه المغادرة المفاجئة، ولم يعد لنا في بيت العم جابر سوى ليلة واحدة؟. وما معنى الذهاب الى بيت العم عاشور، ونحن لا نعرفه ومن

معه في البيت أصلاً؟. وكيف لنا قضاء الوقت في ريف لم نفهم عادات أهله؟. حتى لم يسبق أن التقينا بأي من بنات جيلنا في هذه المنطقة التي تكاد تكون وكأنها معزولة عن حضارة بغداد.

هذا ما أراده الوالد، انا لا أعرف أيضاً، قالت الوالدة بالتياع حزين، فردت عليها بعصبية:

– بلى تعرفين، لقد سمعتك تتكلمين بطريقة تشبه تبادل الأسرار مع الوالد عندما عاد من الدائرة مستعجلاً في إرسالنا الى الديوانية، وبقيَ هو في بيت خالي ببغداد لأمر ما، لم أفهمه. فأجابتها بهدوء كعادتها:

– أكثر العائلات قد تركت بغداد خوفاً من القصف، ونحن مثلهم تركناها، ومن حقنا التفتيش عن مكان نأمل فيه راحتكم لفترة من الوقت، عساه أن لا يطول.

– لكني لم أقتنع.

– ليس المطلوب أن تقتنعي، المهم ابقي قريبة من أخواتك، لا أريد المزيد من الأسئلة، ستعرفين كل شيء، وسوف لن نكتمك سراً إذا ما كانت هناك أسرار كما تخمنين، أنت أبنتنا الكبيرة.

ومضت في ذاكرتي فجأة وأنا في الطريق الى ديوان الشيخ شعلان لتناول الفطور معه وأولاده الكبار، هيئة العريف عودة محمد شنيار ساكناً في قرية الكرمشية ضمن قضاء سوق الشيوخ، وخدمته سائقاً لسيارتي العسكرية عشر سنوات، قررت الذهاب الى هذه المدينة التي تحاذي الهور والصحراء في آن معا، لاستطلاع الطريق، واستمزاج رأيه بما يستطيع تقديمه لتنفيذ الحلم الموعود. أيدني الجالسون على الفطور،

وطلب الشيخ اتمام تحضير السيارة، وانتظار عودة مزهر من الديوانية.

تم تحضير السيارة، وصل مزهر قريباً من صلاة الظهر، فشرعنا الثلاثة في سفرة الاستطلاع وجس النبض، شقينا الطريق المرسوم وسط أرتال عسكرية كانت مكسورة، تنسحب مبعثرة بين نقاط للسيطرة أقامها الجيش، وقنص من بعيد للثوار المنتفضين. تلك السيطرات لم تهدأ ومن يقف فيها من جنود الانضباط العسكري كانوا متوترين يطلبون هويات العابرين بعصبية، جميع العابرين، فالشك بالإنسان المار من هنا لم يدع مجالاً للاستثناء. والشيخ شعلان جاهز لمبادرتهم بسؤال بات يتكرر بعد أن ثبت فاعليته في تبديد الشك:

- ألا يكفي هذا العقال هوية للنشامى؟. فيبادرونه بالترحيب:

- تفضلوا، أهلاً بالعمام.

حل المساء في ناحية النصر لتكون المحطة الأخيرة لهذا اليوم الشاق، فالوقت قد اقترب من العاشرة ليلاً، لا يساعد على الاستمرار في السير على طرق موحشة باتجاه سوق الشيوخ.

طرق مزهر باب السيد موسى الذي يناديه بالخال، أعاد الطرق بإلحاح، تأخر الرد فالظلام قد أمسى والثوار يجوبون المنطقة، ورجال أمن الحكومة المندسون يجوبونها أيضا. بعدها انفتحت الباب عند تكرار المحاولات دون كلل، فجاءت كلمات الترحاب متوالية لتخفف من ذنب التأخير، فلمزهر مكانته الخاصة، وللضيوف حقوق، أقلها أوامر صدرت بإيقاد النيران، ونحر الذبيحة طعاماً للعشاء إكراما لهم، عادة قِيَميّةَ لأهل المنطقة المعروفين بتمسكهم الشديد ببعض العادات.

جَهزَت الوجبة فخمة في الساعة الرابعة صباحاً، قال عنها مزهر:

– شيء جيد أن يكون العشاء فطوراً للمتعبين، علينا التوجه الى النوم ساعتين بغية التهيؤ لمشوار الغد، والغد مشوار مجهول.

حل الغد وبات مشواره رفقة زاد فيها موسى، لنكون أربعة، ويكون هو السائق والدليل الى سوق الشيوخ.

هنا نهاية الدولة العراقية الحالية التي بدأت تتآكل يومياً، هذا مدخل المدينة الذي تنتصب فيه سيطرة عسكرية تمثل السلطة الرسمية لهذه الدولة المتآكلة، ما بعدها يتمركز الثوار المنتفضون الساعون الى اسقاطها بعد اتمام تآكلها، وفي الجهة الغربية أقام الأمريكان معسكراً لهم يشتمل على مستوصف صحي، يقدم الخدمات العلاجية لمن يريد. ايجاز قدمه موسى، وهو باق في مكانه خلف مقود السيارة.

هذا يكفي لنعود الى الدبوني، العبور مع العائلة لهذه السيطرة أمر ليس بالمستحيل، قلت هذا وعينيَّ على جندي من السيطرة اتجه الى السيارة الواقفة على أمتار، سأل وقد هيأ نفسه لتوجيه الاتهام بالتجسس على الدولة لصالح الثوار الذي وصفهم بالغوغاء:

لمَ أنتم واقفون في المكان الممنوع؟. فتكفل بالإجابة على اسئلته الشيخ شعلان بعد أن ترجل من مكانه في الحوض الخلفي للسيارة، لتنتهي المقابلة بسلام، وتمنيات من قبل الجندي بوصولنا الى الدبوني بسلام.

سألت الشيخ في طريق عودتنا دون توقف عن الحوار الذي دار بينه وبين الجندي، فأوجز قائلاً:

– ان هذا الجندي هو ساجد بن مريوش المحمد من عشيرة البو محل،

التي نرتبط وإياها بنسب قريب.

بعدها غط في نومه طوال الطريق، وفعلت مثله نصف هذا الطريق الذي تبادلتُ السياقة على طوله مع مزهر.

❖ ❖ ❖

قلت بعد وصولنا البيت موجهاً كلامي الى زوجتي والبنات:

– تعالوا إلى الغرفة التي أقيم بها.

– اسمعوني جيداً، سنخرج في الصباح الى سوق الشيوخ، نذهب هناك لنقيم عند عمكم عودة في قريته حتى انتهاء الحرب التي ستنتهي حتما بعد أيام، قالت شيماء:

– إذا ما كانت الحرب ستنتهي حتماً وبعد أيام كما تقول، لماذا نترك مكاناً نأمنه كل يوم؟، وكأننا في ترحالنا هذا نشبه قبائل الغجر.

تكلمت بعصبية، معطية الحق الى نفسها في أن تقول، كما ان علاقتها بيّ تسمح لها بتوجيه الأسئلة، وقول ما تريد قوله دونما حرج، فأجبت:

– أنا منذ البداية أردت الذهاب الى هناك، لمعرفتي أنه المكان الأكثر أمانا لنا، لا تكثري في الكلام، أنا أدرى بمصلحتكم.

– هكذا تقولون جميعاً أنتم الرجال، وكأن لا رأي لنا نحن البنات، ولا من يمثلنا في الوجود.

– ماذا تقولين؟.

– لا أقول شيئاً مهماً والدي العزيز، كنت أكلم نفسي عن نفسي، وعن

أخواتي اللواتي يتطلبن جهداً لجهوزيتهن الى الطريق ومن ثم المكان الجديد، عله يكون الأخير في رحلة السندباد.

❖ ❖ ❖

الوقوع في الأسر

تدافعت النسوة في محيط الدار، طوال عمل لإعداد الطعام مطبوخاً على الحطب، مثل خلية نحل في ربيع مزهر، خوينة، الزوجة الثالثة للشيخ شعلان عادت الى التنور بعد أن تقاعدت منذ أشهر، تقديراً لمناسبة توديع فريدة من نوعها، فهي مشهورة ببراعتها في الخبازة بالتنور، لقد بات هو العشاء الأخير في هذا المكان الذي شكل قاعدة مهمة لتحقيق الحلم الموعود.

الرجال من جانبهم منهمكون بتفاصيل الكلام عن الأمس الذي أوجد كل هذا الدمار.

عن الحروب التي شنها الرئيس وأخطائه في ادارة الدولة التي كونت كل هذا الفجور.

عن الغد غير المضمون وما بين السطور.

عن الهروب وشكل الخوف طوال الطريق ومخاطره، وبقية الأمور.

كلٌ يفتي من عنده.

يقدم اقتراحاً كذلك من عنده.

تكلم الشيخ شعلان أولاً فسكت الآخرون احتراماً فهو الكبير بين

القوم، وشيخهم الجليل أكد أولا عن أهمية اللبس العربي ووضع العقال فوق الرأس كجواز عبور مضمون، عزز رأيه بالقول:

- أنـه هيبة، وإن الجنود القائمين بمهام التفتيش، والحراسة في السيطرات ينحدرون غالباً من أصول ريفية تحترم بل تقدس العقال، تَحسبُ لمن يضعه فوق رأسه ألف حساب.

ذكرّهم كيف كان له وقع السحر على أولئك الموجودين في نقاط السيطرة يوم أمس، وأضاف اقتراحاً بارتداء الحجاب للبنات، عامل حشمة ووقار.

خالف رأيه كاظم، الذي يعتقد أن الواقع مختلفٌ تماماً، فاللبس المدني التقليدي من البدلة وربطة العنق، وقميص أبيض يعطي انطباعاً بأهمية الشخص وصلته بالحكومة، وهذا مهم باتجاه فتح المجال للمرور من دون عناء. أما مزهر الذي تعمدَ أن يكون الأخير في الكلام، رجحَ سهولة المرور دون هذا أو ذاك، معتقداً أن الموقف برمته لا يحتاج كل هذا التعقيد، والعائلة بوضعها الحالي، وتكوينها من البنات خير جواز للمرور.

تذكر شعلان أمراً، أراد الكلام ثانية فهو في المعتاد يتصدر المتكلمين في الدواوين والجلسات، يهتم دائماً في التفاصيل، فإنه يرى قراءة سورة الواقعة لضمان المرور الأكيد، مقترحاً قراءتها قبل الوصول الى نقطة السيطرة بعدة أمتار، وإذا ما تم الانتهاء من القراءة عند الوصول الى الجندي المعني في النقطة سيكون العبور أكيداً دون عقبات.

أكمل مقترحه بثقة عالية قائلاً:

– جربتها عندما هربت من وحدتي العسكرية التي كانت تعسكر قرب الفاو في العام ١٩٨٦، بعد احتلالها من قبل الايرانيين في أقسى معركة ابان الحرب التي دارت معهم لثماني سنوات، إذ وصلت الى الدبوني من تلك المنطقة الملتهبة بنيران القصف المتبادل ومحاولات هجوم مقابل بلغت من جانبنا عشرات المرات. وصلت من دون اعتراض أحد ولا أية اعاقة طوال الطريق، رغم كثرة السيطرات والتشديد والتدقيق والاعدام الميداني للهاربين، لقد نفذت من بينهم مثل شبح في ليل.

أبو مساري، قلت مقاطعاً:

– أنا لا أحفظ من القرآن سوى سورتي الفاتحة، وقل هو الله أحد، حتى أني عندما وجدت نفسي في مقدمة الصف الواقف أمام المحكمة التي حاكمتني ومجموعة من الزملاء بتهمة المشاركة في مؤامرة محمد عايش كما كانوا يسمونها، معتقداً مثل الآخرين، أننا سنُعدم، حاولت أن أتذكر سورة من القرآن لأرددها، فلم أجد سوى الفاتحة. يبدو أن أي شخص لحظتها لا يتحمل ضغط الوقت الذي فيه توقعاً للموت، فيحاول لا ارادياً إشغال نفسه بشيء ما، وأنا شغلتها آنذاك بقراءة سورة الفاتحة، وعند الانتهاء من قراءتها، كررتها مرة ثانية، وثالثة من دون سيطرة من نفسي على نفسي الى أن نطق رئيس المحكمة بالحكم سبع سنوات. كان الى جانبي سرمد الذي شغل نفسه بترديد نشيد الجيش سور للوطن، ذلك النشيد الذي كان يردده طلبة الكلية العسكرية في مسيرات الاستعراض. لقد فعل هكذا، للأسباب الخاصة نفسها بالتعامل مع ضغط التوقع العالي للموت. أما في الجانب الآخر مني فكان فيه ستار يرتجف، لأنه لم

يشغل نفسه بشيء يجتاز بواسطته وقتاً ينبئ بالموت، يمر بطيئاً مؤلماً على النفس الخائفة من حياة مجهولة ما بعد الموت. يا لها من لحظات صعبة لو قارنتها بتلك التي مرت عليّ وأصحابي داخل زنزانات السجن، أجد أننا فيها لم نعد نخاف الموت، بل جميعنا تمناه في بعض الأوقات، لأن ألم التعذيب كان أكبر من خوف يتعلق بحياة أخرى، واثقين أن اللّه سيغفر لنا فيها كل أعمال لنا ارتكبت دون قصد.

التفتُ الى وجوه الموجودين، وجدتهم جميعاً ينصتون اليّ بشغف الاستماع الى حكواتي أيام زمان، فأكملت مستغرباً موقفي في تلك الثواني الحرجة من وقت المحكمة، التي انتصب وسطها عضو القيادة القومية نعيم حداد رئيساً، ومجموعة من أعضاء القيادة القطرية أعضاء. الغريب فيها وأنا واقف قلق من أحكامها التي لا تُطَمئِن، تصوري ولو للحظات أن الموجودين على المنصة هم الانقلابيون، وإن البكر وصدام قد قتلوا ضحايا هؤلاء الانقلابين، على الرغم من وجود برزان شقيق صدام واقف على جنب، وكأنه المسؤول الأول والأخير عن ما يدور.

عدلت جلوسي في المكان نفسه، واسترسلت في الشرح، مثل معلم مجبول بالإطالة في الإيضاح، وأكملت:

- أعتقد ان تصوري هذا يرجع الى شدة الذهول، وربما الى علاقة الصداقة التي تربطني بالرئيس آنذاك.

لكني وعندما أدركت أن المستمعين لهذا الشرح تفاوتوا في الاستجابة لملاحظتي هذه، رفعت من وتيرة صوتي عندما قلت عبارة:

- كم كنت يومها مغفلاً، وكم أعمتني المبادئ. أنا الآن أفقد ثقتي

بالمبادئ، وبالوحدة العربية التي وضعها الحزب أولى أهدافه، وعدم امكانية تحقيقها ودعاتها أفاقون، وبالحرية التي لا معنى لها وسط أساطير الطغاة، وبالاشتراكية وَهمٌ لا تأخذ تطبيقاته بالاعتبار حاجة الانسان الى التملك والتميز والاستحواذ. جميعنا على هذه البقعة من الأرض مغفلون.

قلت هذا وكأن في قولي رغبة لتجاوز محتويات الموقف غير المرغوبة منهما، مما دفعني الى تغيير الموضوع الى آخر صادفته يوم كنت عضواً في المسؤولية السياسية عام ١٩٦٩، يتعلق برئيس أركان الجيش السابق اللواء الركن ابراهيم فيصل الانصاري الذي كان معتقلاً في مكتب العلاقات العامة[١] بتهمة التآمر يوم جاءني ابن أخيه الرائد نزار الخزرجي شاكياً من قساوة تعذيب عمه في المكتب المذكور دونما مبرر فقلت:

– لقد أخذته بنفسي الى رئيس المكتب آنذاك سعدون شاكر، الذي تربطني به صداقة قديمة، وقام من جانبه بعد الترحاب منقطع النظير بإحضار الانصاري، بملابس نظيفة وهيئة محترمة. جلس معنا لدقائق، وشرب وإيانا الشاي، وعندما سأله سعدون فيما اذا عذبه أحد أو ضغط

١– تأسس مكتب العلاقات أولا كامتداد لجهاز حنين السري ليقوم بمهام تتعلق بأمن حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، وتحت اشراف صدام حسين، وتوسع بالتدريج وتغير الاسم فيما بعد الى جهاز المخابرات، وعلى الرغم من تنصيب رئيس للجهاز بقيَ الإشراف عليه حصراً إلى صدام حسين.

عليه في سياق التحقيق أي من الضباط؟. أجاب:

- لا لم يمد أحد يده عليَّ، بل وعلى العكس من هذا كانت المعاملة من الجميع ممتازة، وانا ممتن لك ابا رعد كرئيس للمكتب، وأدعو لك في الصلاة التي هداني اللّه الى أدائها في أوقاتها الخمسة منذ وصولي اليكم.

لقد خرجت من مكتب سعدون وبجانبي نزار غاضباً، أنبته بشدة على تصديقه الاشاعات المغرضة ضد الحزب والثورة. وبعد، قال الشيخ شعلان. فقلت:

- البعد يا سادتي، زيارة قمت بها الى الانصاري حال خروجي من أبو غريب، كانت الأولى لشخص أعرفه، إذ وبعد أن رحب بيّ سألته، يا سيدي، لماذا قلت يومها لم يعذبني أحد في مكتب العلاقات ونحن قادمون لزيارتك خصيصاً، ولهذا الموضوع بالذات؟. فأجاب بالحرف الواحد:

- لقد هـددوني، وعلى الرغم من قولي ما اتفقوا معي على قوله مسبقاً، إذ وحال خروجكم زاد عليَّ التضييق، وارتفع معدل التعذيب. لقد أغرقوا أرض الزنزانة بالماء، وسحبوا البطانية التي كانت موجودة كفراش وغطاء في الشتاء، لم يفتحوا الباب إلا مرة واحدة لخمس دقائق لأغراض الخروج الى الحمام، علقوني ساعة يومياً الى السقف مقلوباً من الساقين، استمروا بضربي بشكل يكاد يكون يومياً. جماعتكم الذين يدعون العفة والعدالة وبناء دولة الوحدة، هم أشد الناس عداوة للمبادئ وتمزيقاً لأواصرها، وهم أكثر الساسة خروجاً عليها، وخرقاً لها، إنهم يطبقون على نـزلاء السجن كل نظريات التعذيب والحرمان من الماء

والطعام لعدة أيام، وأكمل:

- ثم يا أخي حتى لو قلت لكم نعم إنهم يعذبونني، فلا أعتقد انكم ستصدقون، كيف تصدقون وقد أعمت الثورة بصيرتكم؟.

لقد كان الانصاري خير من تكلم عن عمى المبادئ في الأحزاب الحاكمة، وبشكل دقيق.

لم يترك الشيخ شعلان الموقف ليمر عابراً، زفر بحرارة، وهو يعلق بألم مريب:

- ربك سبحانه يمهل ولا يهمل، الآن هم يعيشون أقسى الأيام، ومن يدري قد يحاكمون في الغد، وربما أنتم من يحاكمهم.

اتفقت معه وقلت:

- أن هذا صحيح، وتأييداً لكلامك أبو مساري، فإن طاهر الذي اشترك بحكم عبد الخالق السامرائي شنقاً حتى الموت قبل سنوات، وقف معه وإيانا في هذه المحكمة وحكم عليه بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم بكليهما متجاورين في الزمان والمكان ذاتيهما.

مفارقة قال عنها مزهر، وأضاف أنه من غير الممكن تفسيرها إلا بضوء حكم الله سبحانه، وإمهال البشر عسى أن يتوبوا.



لقد استمتع الجميع بنباهة عالية، وكأنهم في صف مدرسي طلابه ملتزمون، نطقوا جميعهم بعبارة واحدة (ونعم بالله)، وأنا بمواجهتهم

مكلوم في حزن يحز بداخلي كجؤار الموت، دافعاً الخزين المكبوت في خلايا عقلي الموجوع، الى إخراج المزيد من آهات أحملها بين ثناياها ذاكرة مبعثرة فقلت:

– الجعبة مملوءة، فيها الكثير من المفارقات التي يندى لها الجبين في هذا الزمن اللعين، فطاهر الذي كلمتكم عنه قبل قليل كان صديق الصبا والشباب لسعدون شاكر رئيس جهاز المخابرات السابق وعضو المحكمة. صداقتهم تُضرب بها الأمثال داخل الحزب وخارجه وفي محلة الفضل ببغداد، كما إنهما عملا معاً في مكتب العلاقات العامة، وَعُرفا معاً بجديتهما في مجال عملهما. إذ وبعد أن حُكمنا وبدأنا الخروج من قاعة المحكمة بالرتل المفرد، وصل طاهر بمواجهة سعدون أقرب صديق له كما قلت، فخاطبه بالقول:

– لماذا أبا رعد، حكمتم عليّ بالموت بتهمة حيازة أسلحة وجدتموها في بيتي؟. قلتم أنها جلبت لأغراض المؤامرة، وأنت تعلم جيداً أن المسدس من بينها كان عندك مثله، وقد استلمناهما معاً من القيادة القطرية، هدية الرفيق القائد آنذاك، والبندقية هي الأخرى سلاح تابع الى المكتب، ومسجل ذمة على اسمي، فهل هذا جزاء الصداقة والملح؟.

وماذا كانت الاجابة في تلك اللحظة الحرجة؟ سأل مزهر.

– سعدون لم يكن قد تحسب لهذا الحرج، كان العتب بالنسبة له مفاجأة، وكان الرد من قبله، يداً هوت بصفعة قوية مثل مطرقة حديد نزلت من أعلى، بعثرت ما تبقى من شعر أشعث كان لطاهر، وأدمت أنفه، صاحبها سيل من السباب انتهى بعبارة (أسكت ابن الكلب، كيف

تتطاول هكذا على المحكمة والحزب والقائد؟).

النقاش هنا وفي هذه الليلة الأخيرة لا يقتصر على الرجال، فالبنات أيضا منشغلات بحديث ذي شجون داخل غرفة تقترب من أن تكون معزولة عن بقية غرف البيت، يتحاورن كذلك بشأن هذا الوضع الغريب، وعن فك اللغز الذي يزداد تعقيداً مع مرور الوقت، ومع هذا فإن اثنتين من بنات الشيخ شعلان يتفرجن على هذا النوع من النقاش غير المألوف في بيئة أهل البيت، وفي الغرفة نفسها تتنطط نجلاء آخر العنقود كما كانت تفضل تسميتها الوالدة، تخرج منها وتدخل أخرى، فهي الوحيدة التي تتمتع بالحرية المطلقة، ومعها أخريات من عمرها لا علاقة لهن بما يجري بعد أن اجتمعن عند نوع من اللعب البدائي، عدَّ القاسم المشترك بينهن أطفال من بيئتين مختلفتين.



الفرق المتحاورة بجلالة قدرها لم تصل الى نتيجة في جميع المواضيع التي أثارتها، ولم يحض أي منها بقدر من القبول الجماعي، ولو بالحدود الدنيا، شأنهم شأن السياسة في عراق يقال عنه حديث، لا يتفق أهلها على شيء وان كان موضوعه مطر من السماء لا اختلاف على طريقة نزوله، على هذا بقيَّ الجدال بينهم ماضياً بالوتيرة ذاتها بعد أن تعددت الآراء، وكثرت الاجتهادات.

هنا وفي ذروة الاختلاف، وكثر الاجتهاد والاعتداد بالرأي، توقف

النقاش فجأة عند دخول النقيب محمد حسين القرغولي بلباس الميدان ماراً بالمكان، وهو في طريق الانسحاب مع عشرين جندياً هم المتبقون من فوج مشاة بعثره الانسحاب، يعمل فيه مساعداً لآمرٍ تركهم وذهب الى جهة مجهولة، قال أحد الجنود لقد ذهب الى أهله في ضواحي مدينة كركوك، وقال آخر، إنه قد التحق بصفوف المنتفضين، لأنه كان ناقداً للنظام، وقال الثالث، هناك معلومات ترجح انتحاره، لأنه كان ممتعضاً من الهزيمة. عارضه الرابع بالقول، لا أحد ينتحر في هذا الزمان.

عندها فُتِحَ موضوع جديد للنقاش والاختلاف، بان خلاله النقيب منهك القوى، جائعاً وكذلك جنوده المنكسرين.

تذكر مزعل وسط هذا النقاش العقيم أنه لم يُعَرِف الجالسين بالنقيب فبادر بالقول:

- إنه النقيب محمد ابن عمنا، شخص موثوق به، جاء سالكاً الطريق الذي نتناقش بشأن كيفية اجتيازه الى سوق الشيوخ، دعونا نشركه معنا.

لكن النقيب وبسبب الجوع أو التعب، لا أحد يستطيع الجزم فقد حدد النتيجة التي فتشوا بحواراتهم عنها لساعات بدقيقة واحدة، ودون الحاجة الى التوسع بالنقاش، سأل أولا:

- هل لديك صورة شخصية؟.

تعجبت من السؤال، ومع هذا أكدت وجودها في المحفظة التي أخرجتها من جيب بنطالي، سلمتها له غير مصدق بما يجري، كأنني أحلم، أو صحوت تواً من حلم، أو انتقلت من حلم الى حلم آخر. ومن جانبه لم يعر اهتماما لعجبي، وكأنه كان واثقاً من كونه وكيلاً للآمر الذي غاب

مفقوداً.

بعث جندياً من جنوده المنكسرين الى السيارة العسكرية التي تحمل محتويات المكتب، طالباً جلب أنموذج هوية مع ختم الوحدة، قال الصورة مناسبة، وضعها في المربع الخاص، سأل عن الاسم، قال:

– لابد أن يكون قابل للتذكر، سأضع اسمك الأول وعليك اختيار الأب واللقب.

وأخيراً كتب بخط يده في الانموذج (النائب الضابط شامل)، فأكملت من عندي مجيد علي الربيعي. ختمه بالختم الخاص بالوحدة، ثم عزز هذا التعريف بأنموذج اجازة مطابق للاسم ذاته، نافذ من قبل حصول الانتفاضة، وحال تسليمهما قال ستنفعك في الطريق الذي تود سلوكه، بعد أن وزعت عليه السيطرات العسكرية في أكثر من مكان.

عند هذا الحد نهض منتشياً، ومعه بقية جنوده، بعد أن حصلوا على الطاقة اللازمة، وجبة عشاء كافية، توصلهم نشطين كما هو مطلوب الى معسكر التاجي، محطتهم التي يفترض بلوغها قبل ظهر الغد حتماً.

❖ ❖ ❖

حل الصباح ندياً فيه نسمة هواء عذب، ساعدت على الخروج من قاع النوم دون ملل، ودفعت بالشيخ شعلان لأن يئم الرجال في صلاة فجر جماعية مع ركعتين دُعاء بوصولنا سالمين. نجح في إتمامها وإن كان البعض لا علاقة له بالصلاة. أمر بعد ركعتها الأخيرة تقديم الفطور، من

انتاج مزرعته التي تكاد تكون مكتفية ذاتياً لما يتعلق بالفطور. ومن بعده وقف وجميع أفراد عائلته، لتوديعنا جالسين في سيارة الفولفو قاصدين السير في طريق المجهول.

الواقفون ومعهم مزهر ومزعل، كانوا يلوحون في منظر توديع مهيب لصديق عزيز وعائلة أحبوها خلال تواجدها معهم ليلتين. نظرت الى ايديهم وهي تلوح، شاهدتها رخوة، وشاهدت عيوناً تدمع خوفاً من المجهول. اعتقد بعضهم أنها النظرة الاخيرة سواء تم النجاح بعبور الحدود، أو صار الوقوع بيد السلطة وأجهزتها اللعينة واحداً من الاحتمالات.

الطريق الموصوف فيه قدر من المجهول، يثير القلق، حاولت إخفاء القلق ما استطعت الى ذلك سبيلا، فمن معي لا يتحملون آثاره، مسكت بدايته، وبعد أقل من ألف متر داهمني شعور بالثقة في قدرتي على إكماله حتى النهاية، متكلاً على اللّه في سيري باتجاه حلم مازال موعوداً. سرت عليه وقد أكثرت سرف الدبابات المنسحبة على سطحه المزفت قديماً من الحفر، لم أعد أهتم بالحفر، ولا بالسيارة التي أركبها، كأني وضعت استخدامها لمرة واحدة مثل قفاز طبيب متمرس، وهي كذلك لا تبالي تلك الحفر والمطبات، كانت متينة، وكانت الشمس على يساري تتابع حركتي متكئة على حافة السماء، تسللت بعض خيوط أشعتها الى داخل السيارة، فانتفضت عند دخولها الذاكرة كطير بليل، قلّبتُ صفحاتها، كمن يقلب صفحات فيها طلاسم تقي من شر الأفاعي، والوحوش التي تخيلتها ماكثة على هذا الطريق.

توقفت عند آخر يوم لي في سجن أبو غريب، وصباح لاحت فيه

زمجرة الصافرة الخاصة بالتجمع، كانت مختلفة هذه المرة، لم تكن خشنة ممتدة طويلاً مثل كل مرة، حضرنا جميعاً بالسرعة ذاتها وفي مخيلة الواحد منا خوف من الجَلد اذا ما تأخر قليلاً، مثل ذاك الذي يطبق تماماً على مرتكبي الزنا أيام زمان.

الصافرة هذه المرة ناعمة ومتقطعة، وكأنها تنبئ بشي غير الأشياء التي كانت تعبر عنها من قبل. تجمعنا نحن الباقين على قيد الحياة في هذا القاطع المشؤوم من سجن خاص يعج بالقسوة والأسرار، كيف لا وقد أصبحنا مطيعين، نتصرف آليا بعدما تعلمنا الامتثال نتيجة التعرض المستمر الى عقاب التدجين؟. بتنا نستجيب كما قال سمير فيما بعد لما يطلب منا، مثل كلاب (بافلوف) عالم النفس الروسي الذي علمها الاستجابة الشرطية لفعل يريد حصوله لمجرد تعريضها لمثير يحدده هو. قال الضابط بلغة ملؤها اللطف غير المعهود:

- توجهوا الآن الى الحمامات، أحلقوا ذقونكم.

قال سرمد الواقف الى جانبي بصوت خافت، أشم رائحة شؤم غير معهود.

أكمل الضابط توجيهاته طالباً من فالح السجين الملقب (بالزعرتي)[١]، بحلاقة الجميع، حلاقة نظامية هذه المرة في صالون

١- الزعرتي، كلمة دارجة في اللهجة العراقية تعني الشخص الذي يمتهن ختان الاطفال، وهي وبعد التوجه الى المضمد الصحي والطبيب لاجراء عملية الختان، تكاد أن تختفي من قاموس اللهجة الشعبية.

أعد في الفراغ البقية من الحمامات، يحوي على صفيحة معدنية(تنكة) جلبها سامر من المطبخ حُسبت كرسياً. كان الجلوس عليها مريحاً، بل تفوق الراحة الناتجة عن الجلوس على أي كرسي وفير، ويحوي أيضاً ماكنة حلاقة يدوية، انقرضت منذ ستينيات القرن الماضي، ومقص لجز الشعر أكل الصدأ جزءاً من نصله، ونصف مرآة، عندما جاء دوري ونظرت فيها لأول مرة تعجبت من شيخوخة داهمتني مبكراً، لكني لم أعر لها اهتماماً، فالشيخوخة في هذا القاطع لا تعني شيئاً.

سألت حليم بعد خروجنا من هذا المكان الذي اسموه بالصالون، عمّا يجري، وهل يعقل ما يجري؟، وقبل أن أكمل أسئلة مازالت تملأ مخيلتي أجاب:

- كل شيء في عالمنا يعقل وقد لا يعقل، وما الذي نملكه في دنيانا هذه سوى أن نعقل.

هي لحظات وإن مُلِئت بالشك والتوجس، لكنها مسكت بصيصاً من الأمل لما احتوته من تغيير في صب جام الغضب، والتعذيب، والاهانة، والشتم التي كانت سائدة. عدت في مخيلتي الى نصف المرآة فتذكرت أني قد فقدت من وزني الكثير، وان الابتسامة غابت عن وجهي، وظهرت التجاعيد قبل أوانها وكذلك الشيب، يا لها من مهزلة يحدث كل هذا في سجن طالما تمنيناه لأعدائنا.

فقلت لنفسي أين هم الأعداء، لقد وضعت العداوة في قوارير الصداقة، وانقلبت من على طاولة الدولة التي أقمناها دولة عداوة بقوالبنا الثورية، فأختلط العجين ولم نعد نعرف أصولها.

السرعة التي جاوزت المائة كيلومتر في الساعة، أقفلت بوابات الذاكرة مؤقتاً وأعادتني الى الواقع لأقلل منها، لكنها سرعان ما انفتحت من جديد، لتقذف على سطحها صور النصف الغائب من الزملاء الأربعة عشر الذين أزهقت أرواحهم في السجن بأمر من رئيس الدولة، وربما اجتهاد من رئيس الجهاز، فالحكم بالموت إبان فترة السجن من صلاحيتهم حصرياً. صور الموت لا تمحى، والحسرة وكيف كان الواحد منهم يرخي عضلاته في أثناء الاحتضار، استعدادا للموت، وإن كان بطرق مختلفة، كذلك لا تنسى، ومعها لقطات لعبد الرزاق الذي أعادوه في إحدى المرات محمولاً، وقد غطت بقعة كبيرة من الرطوبة «بجامته» من الأمام والخلف، مؤشرة أنه ومن شدة الضرب، وجسامة الخوف فقد السيطرة على عضلات مثانته، وكذلك على تلك التي تتحكم بالتغوط بعد أن خربها چاسب بعصاه التي دسها في المؤخرة، وأدارها دورة كاملة عدة مرات، ليخرجها أخيرا منقوعة بالدم، قال سرمد الذي يشاركه الزنزانة:

– لقد رميَ على أرض الزنزانة، فكان كوم من لحم، محموم يهذي من شدة الاحتضار، حتى أني تصنعت النوم خوفاً من خطورة المشهد، وعندما لم يمت في ساعتها فتحوا فمه بمشبك حديد، ووضعوا في جوفه حبة (ثاليوم) أماتته قبل نهاية اليوم، فأكتمل العدد المطلوب لهذا الشهر.

كنا جميعا نعلم عن اكتمال العدد المطلوب اماتته حتى أنهم، وقبل اماتة عبد الرزاق أوهموني قبل يوم من هذا اليوم الذي مات فيه، أنهم سيعدمونني لإكمال العدد، وطلبوا مني أن أتمنى أمنية واحدة. صدقتهم،

فتمنيت أن تثبت براءتي من الاشتراك في المؤامرة، فأعادوني الى الزنزانة فاقداً الوعي.

تنبهت الى نفسي ضاغطاً على دواسة الوقود من دون وعي مني، كمن يريد استعجال الوصول الى الهدف الذي عد من المجهول، أو التخلص من موقف لا يمكن تخيله ضرباً بالعصي أو وخزاً بأعمدة الحديد، وتسميماً بمشبهات الادوية، وايلاجاً بالخوازيق المحلزنة في الأدبار أو حرقاً بألسنة اللهب الآتي من سعف النخيل، وخنقا بالتهام الفضلات. لكن السرعة محذورة من أهل بيتي الموجودين في السيارة، وكأنهم يحتجون على لسان أُم شيماء التي قالت:

– ألم تر أنك تزيد السرعة أكثر من اللازم، لقد بدأتُ أرتجف رعباً.

ثم عاودت الكلام مع البنات عن الريف، وبيت الشيخ شعلان بهدف تقليل التوتر الناجم عن السرعة.

لقد خففتها وتأسفت على السرحان دون قصد. حاولت ملاطفة نجلاء التي تسعى طوال الوقت الى مغادرة مكان جلوسها بين أخواتها في الحوض الخلفي، والانتقال الى الأمام حيث تجلس الحبيبة الى جواري.

❖ ❖ ❖

الطريق مكتظ، كل خطوة نخطوها عليه، نحس بتدافع العسكر وتسارعهم في السير الى جميع الجهات، ونقاط السيطرة المنصوبة لتنظيم ذاك التدافع، تخيلت السائرين مشياً من الجنود والمدنيين

الفارين حجيج في وادي منى، لكن الحج هنا مختلف، لا يرفع أصحابه الأيادي عالياً بقصد الدعاء، ولا يبتسمون لملاقاة الرب، كانوا غاضبين، تعلو وجوههم مشاهد الانكسار من حرب أخرى:

سيارة تقطر عربة طويلة، فوق العربة كوم جنود، وفوقهم في السماء تحلق نسور.

دبابة احترقت فوق مقطورتها الطويلة، واحترق في داخلها طاقم جنود، تحوم حولها كلاب.

جنود يسيرون دون انتظام على حافات الطريق، يترقبهم ثوار، وهم كذلك يراقبون الثوار.

قادة يتسابقون ابتعاداً عن عيون الثوار وعن مسامع الرئيس، لا يعيرون اهتماماً لما يجري، كأنهم لا يعرفون ما يجري، وما يجب أن يكون، محنتهم كبيرة.

معسكرات قريبة ما زالت تشتعل في منشآتها النيران من قصف الحلفاء، وأخرى أغار عليها الثوار، وأشعلوا فيها النيران.

مشاهد لا تسر الناظر اليها ماشٍ في الرواح أو في المجيئ، وسطها بقيت سيارة الفولفو تسير مسرعة صوب الحلم الموعود، لا تأبه لمشاعر الانكسار، لأنها في الأصل حزينة ولا مجال في وعائها العقلي لمزيد منه في هذا النهار.

كانت العائلة داخلها كما قال مزهر جواز مرور جيد، وهوية النائب ضابط جاهزة لاستخدامها في السيطرات التي تعترضها فجأة من قبل الثوار، وخبير الكهرباء هي الأخرى فاعلة في تلك التي يسيطر عليها

رجال الجيش والأمن العام، أسهمت في مرورها من دون عقبات حتى المفرق الذي يؤدي فرع منه الى جسر الناصرية، والآخر الى الجسر الهولندي، القريب منها.

اقتربت من أماكن يصعب التعرف على من يتحكم بها، فطلبتُ أن نكون جميعاً حذرين، وأن لا يتكلم أحد غيري، خشية الخطأ غير المقصود. رَدت نجلاء بشقاوة واضحة، وما معنى أن نكون حذرين أني لم أفهم ما تقصد؟.

- ألم أقل اسكتوا، وأنتِ أول من عليه السكوت.

- سأسكت، لكني سأطالب بحقي في أن أفهم، بعد ان ترفع عنا المنع، وتأذن لنا بالكلام.

- حاضر سيدتي، المهم ان تسكتي، وسأجيب عن اسئلتك جميعها لاحقا.

كاد الطريق ينشطر نصفين، نصفه الأول فرع الى مدينة الناصرية والآخر اتجاه الى سوق الشيوخ، يقف على ناصيته قبل الانشطار ضابط برتبة رائد، رتبته صحيحة، ووقفته كذلك صحيحة، رغم أن حرب الثمان سنوات مع إيران، وهذه التي أتت من بعدها بلا فواصل زمنية كانتا كافيتين لتجاوز غير الصحيح. واثق من نفسه ومن أوامره بعدم المرور من هذه النقطة التي ينتصب عليها قائداً بلا منازع، لا يسمح لاحد بالتوجه صوب الجنوب، ماشياً كان أو راكباً سيارة من أي نوع تكون.

أشّر بعصاً كان يتأبطها كمن يقف في ساحة تدريب لجنود مستجدين، طلب التوقف على الحد الفاصل بين الجيش والعصاة «هكذا وسم

المنتفضون بالعصاة». وأدار سهم عصاه قليلاً الى اليسار مسترسلا في كلامه:

- إنهم هناك، مواقعهم لا تبتعد عنا سوى مئات الأمتار، إطلاقات قناصتهم تصلنا بين الحين والآخر، المكان جداً خطير، وغير مسموح الوقوف فيه ولا المرور من عنده بأي من الاتجاهين، ثم عدّل وقفته وأدار عصاه قليلاً الى اليمين، ذاك هو السبيل الوحيد من أمامكم عودة من حيث أتيتم وفي الحال، ومن ثم أكد التأشير بيده اليسرى إشارة تعني الاستدارة والتحرك من هنا على الفور، وعندما أدرك عدم استجابتي لأوامر أصدرها لازمة التنفيذ، حاول تكرارها بلغة مختلفة هذه المرة، فيها قدر من الخشونة، طالباً العودة بالعائلة حالاً وعدم تعريضها الى التهلكة.

عاد الى عصاه، أومأ بها الى مجموعة بيوت مهدمة سائلاً الم تر تلك الخرائب؟، وأجاب إنها المكان الذي يتواجد فيه العصاة المخربون، يطلقون النار باتجاهنا، وكذلك على من يسلك الطريق راجلاً أو في سيارة، وأكمل كلامه طالباً تركيز النظر على سيارة نيسان صالون على بعد خمسمائة متر، مازال الدخان باق يتصاعد من بدنها المحترق، قائلاً:

- لقد أصر صاحبها الخائب على المرور باتجاه الناصرية، لإنقاذ زوجة له داهمها المخاض، لكنهم قُتلوا جميعاً بقذيفة (RBG7) أُطلقت على سيارتهم من تلك الخرائب، لا نريد تكرار المأساة، ولا يمكن السماح بتكرارها.

لم يبق من بد سوى الترجل من السيارة، والتوجه صوبه قائداً وحيداً

في المنطقة. فعلتها بهدوء، أخذته جانباً بطريقة حاولت الايحاء بسرية المهمة التي جئت من أجلها. وانا في الطريق اليه أخرجت هوية الخبير في الكهرباء. كلمته بصيغة تقترب من الرسمية. عرفته بنفسي خبيراً في الكهرباء، أرسلتُ من قبل السيد الوزير، وبأمر من السيد الرئيس القائد. قلت، حفظه اللّه ورعاه، قولاً يعزز صفتي موظفاً في الدولة، هكذا جميعهم كانوا يقولون عندما يَرِد اسم الرئيس، وأكملت:

- جئت من أجل تشغيل محطة كهرباء الناصرية التي توقفت بفعل القصف المعادي للأوغاد، سبقني اليها في الأمس خمسة فنيون معهم أدوات احتياطية.

من هيئته تأكد حدسي من أن ذكر الرئيس كان كافياً لإثارة مشاعر الريبة من الوقوف بالضد، ويكفي للغوص في أعماق الخشية من العقاب. سألته:

- ألم تر الفنيين التابعين لدائرتنا وقد مروا من هنا؟. فأجاب:

- إني لم أكن موجوداً هنا في الأمس، كل دقيقة تتبدل فيها المواقف والأحوال وكذلك المسؤوليات.

لمست من كلامه استجابة ايجابية، ومن هيأته قدر من الاطمئنان في موقف، عادة ما يكون موسوم بالشد والتوتر العصبي العالي، عندها أبديت قدراً من التأييد، واستغلال الفرصة بالقول:

- ألا تعلم سيدي الرائد إن الفنيين المرسلين لم ينجحوا في تشغيلها حتى الآن، ما استوجب حتمية تدخلي لأني الخبير المختص. لقد جلبتُ العائلة معي لأغراض التغطية فيما إذا مررنا في مكان يتواجد قربه

العصاة، وكان هذا بأمر من السيد الرئيس. بإمكانك الاتصال لاسلكياً، «حفظه اللّه» يُدخِل في حساباته أدق التفاصيل.

قلتها وأنا واثق من توقف جميع الاتصالات في حرب طرفها الجيش العراقي الذي توقف نموه التقني، وحربه الالكترونية بشكل كبير منذ الحرب مع إيران، حتى أعتاد القتال تقليدياً، وطرفها الثاني أميركا الدولة الأولى في العالم تقنياً، وعلى هذا أوقفت حتماً كافة الاتصالات، وإن لم تفعلها فقد شوشت عليها، وكان حدسي في محله، حيث أجاب الرائد منفعلاً:

- أي أتصال تتكلم عنه، والحلفاء أوقفوا كل اتصالاتنا، وبات كل واحد منا في هذا الجيش تحت نجمة تطوف سابحة في الفضاء دون اتصال مع الارض.

لقد تحولت لهجته من الجد في موقف عسكري حازم، الى التسفيه مما يجري، وكأن في كلامه غضب يريد إخراجه، لما آل اليه حال جيشه الذي تمنى بقاء صورته كما هي عظيماً في كل الأزمنة والأوقات. وتحول الحوار من بعد هذا الى تبادل انفعالات فيها تواصل بالمشاعر قريب، وفيها احتجاج مبطن على ما يجري، لأننا وكما أعتدنا منذ سنين لا يمكن أن نتبادل الاحتجاج الفاضح في مواقف الحياة، بسبب خوفنا الشديد من الرئيس وأجهزته الأمنية. هكذا بدا لي الموقف ملائما لمزيد من الاستثمار، الى صالح عبوري الذي أضحى قريباً من المنال، فقلت اللّه في العون، ومع هذا لا مجال للتراجع عن مهمة يحددها السيد الرئيس «حفظه اللّه»، حتى لو ضحيت بنفسي والعائلة فداء له وللوطن العزيز.

عند هذه الجملة بالذات بارك خطوتي، واصراري على الوصول الى المحطة والاسهام في تصليحها بصفتي الخبير المختص، وعلق على هذه الخطوة قائلاً:

- لو كان لدينا عشرة من أمثالك لكان العراق بخير.

- لدينا الكثير سيادة الرائد، وأنت أولهم بطل يقف بمواجهة العصاة، سأشرح هذا الموقف للسيد الوزير، وبالتأكيد سينقله الى السيد الرئيس.

قلت هذا عارفاً بمقدار الرغبة في نفوس الضباط، غالبية الضباط من أجل الوصول الى الرئيس وكسب رضاه، فالوصول اليه تحول قد يحصل في الحياة، غناً في المال، وترقية أعلى في كل الأحوال، قلتها مزهواً بنجاحي في ادارة الحوار واقناعه بحتمية المرور باتجاه المجهول. فأشار عليَّ ضرورة السير نحو الجسر الهولندي. نصح بالانحراف الى اليمن ومن هناك الى المحطة، مع اشادة ثانية بالإصرار على تنفيذ المهام الوطنية في هذه الظروف الصعبة.



اتخذ جنود بعد انشطار الطريق بمسافة لا تزيد عن الأربعمائة متر وضع الانبطاح، وآخرين أياديهم على الزناد، اصطفوا في أنساق قريباً من حافة الطريق اليسرى. طلبوا بإشارة من أسلحتهم المشرعة وأياديهم التي رفعت أصابعها من على الزناد، أن نتوقف على الفور، آمرهم الملازم كان هو الأجرأ، والأكثر حرصاً فقد نهض من وضع الانبطاح، وتقدم نحو

السيارة، سائلاً بعصبية بينة، وبلهجة بغدادية واضحة عمن سمح لنا بالمرور على هذا الطريق الذي وصفه بالخطير، وأسماه «طريق الهلاك الأكيد»، وقال عن سالكه مفقود والناجي منه مولود، ثم طلب بصيغة الأمر إبراز هوياتنا، والجهة التي نقصدها، ثم ختم حديثة بعبارة المرور من هنا ممنوع حتماً، ولأي سبب كان.

كنت هنا أكثر قوة وثقة بالنفس مما كنت عليه قبل قليل في حضرة الرائد، كان لدي أساس أستند اليه هو موافقة الرائد، فأجبت دون الحاجة الى التفكير بصياغة الإجابة المناسبة، من أني هنا بمهمة رسمية تستحق المجازفة بالمرور من على هذا الطريق، وان وصفته بطريق الهلاك. والرائد مجيد المتواجد في المفرق له علم بكافة التفاصيل، وكل شيء يهون أمام الواجب المقدس.

– ماذا تقول؟.

– الذي أقوله أمرٌ من السيد الرئيس، بحتمية تشغيل محطة الكهرباء المتوقفة عن العمل قبل الضياء الأخير ليوم غد.

عاود السؤال هذه المرة عن اللغة العسكرية التي اتقنها بشكل واضح؟، فأخبرته عن خدمة لي سابقة ابتكرت صفتها ضابط احتياط في اللواء الرابع والأربعين، تسرحت بعد الانتصارات التي حققها جيشنا العظيم في القادسية العظيمة. تعمدت التعظيم سبيلاً الى تقريب المسافة النفسية بيني وبينه، التي سهلت بالفعل الحصول على موافقته بالمرور... موافقته مشروطة على أن تكون نتائجها على مسؤوليتي الخاصة. فبادرته الرد من أن تحمل المسؤولية واجب وطني في هذا اليوم الحرج، وقلت:

- ان خدمة الوطن بتشغيل محطة الكهرباء أمر يستحق تحمل المسؤولية.

وقبل الشروع بمغادرتي المكان أكد الملازم على ضرورة الانتباه، لأن العصاة موجودون على الطريق بعد مائتي متر من هذا المكان الذي هو وجنود الفصيل قائمين عليه، وضرورة اجتيازه بأعلى سرعة ممكنة لكي لا تعطى فرصة التصويب بدقة. قلت وفي محاولة مني بلع اللعاب الذي تجمع في حلقي، وبصوت غير مسموع من أن كل شيء يريدون اتمامه بسرعة، وتذكرت على الفور كلمة السرعة التي أرادها مانع ضابط أمن المخابرات الذي أشرف على تدجيننا سبيلاً لتنفيذ إطلاق السراح بالعفو الخاص، مما تبقَ من سني الحكم بالنسبة لمن قاوم الموت منا في زنزانات القاطع الخاص، حتى إنه قرأ العفو بوقع سريع، وتعالى الهتاف بحياة القائد الأوحد بوقع سريع، وقدم الايجاز بالانتصارات الفريدة في الحرب الدائرة مع إيران كذلك بشكل سريع. لحظات لا يمكن نسيان تفاصيلها وان كان وقعها سريعاً، لأنها واضحة بل أوضح من مجريات هذا الطريق المليء بالمفاجئات، خاصة تلك اللحظة التي بدأت باستلام بدلة السفاري، ولبسها بسرعة دون التدقيق بالقياس، كان القياس متقارباً بحسب أوزان لا يتعدى الأوفر حظاً فيها خمسين كيلوغراماً في أحسن الأحوال.

تحيرت لحظتها من أمري ومن تداعي الأفكار في ذاكرتي، فأصابني الذهول. مسكت قلبي خوفاً من توقفه حيرةً. تحسست دموع قد انهمرت من اعتصار الأسى، وصور من مات بين يديّ أو في حضني، ومن المرات التي فضلت فيها الموت، داخل الزنزانة التي تقترب من ان تكون ثلاجة

في الشتاء، وفرناً لشواء الصمون في الصيف. قلت مع نفسي لم أكن وحدي من فضل الموت على البقاء تحت رحمة رفاق في أجواء ربيع، أجزم اننا سكنة هذا القاطع جميعنا تمنى الموت طوال ذاك الوقت الموحش. وقلت أن الموت قبل ذاك العفو الذي أصدره الرئيس في صحوة ضمير قبل النوم، كان حلماً طالما تمنيناه مكرمة خلاص من فعل التعذيب. لكن الحال قد اختلف اليوم واختلفت معه الاحلام والتمنيات، حتى أن السير مع العائلة على هذا الطريق الموسوم بالهلاك وبكثر المفاجآت غير السارة لا يقترب من تمنيات الموت، بل وعلى العكس، أحس الرغبة هنا قوية بالحياة من أجل إثراء الحياة، وتحقيق الحلم الموعود بالهروب، وتجنيب العائلة صدمات أُخرى في هذا المجتمع الذي خُلق لتكوين الصدمات.

أسير مسرعاً، أقف متوتراً ومع هذا أشعر وكأن الحال قد تبدل، أرى بعقلي ومضة أمل في الخلاص تتدحرج على بساط الاعتقاد، بان الأسوأ من الحال سينتهي في القريب عند حافات الحدود. خليط عجيب من المشاعر والاحاسيس، ومع هذا لا خيارات متاحة، سوى الاستمرار بالاتجاه المرسوم الى آخر المشوار، وإن تخللته إطلاقات تأتي من هذه الجهة أو تلك.



أسموه الجسر الهولندي، لا علاقة لشكله الحالي بهولندا من قريب أو من بعيد، وهو يلوح في الأفق كئيب، غير راضٍ عن حاله يجثم على ضفتي

نهر واطئتين يغطي البردي مساحة واسعة منهما، ولا علاقة له بما يحدث قريباً منه بعد ان بات حداً فاصلاً بين السلطة والثوار المنتفضين، ضفته المقابلة سقطت بأيديهم منتفضين، يصرون مد سيطرتهم الى الضفة القريبة بهجمات أصبحت متكررة عدة مرات في اليوم.

اقتربتُ من موقعه حذراً بعد توقفات متكررة، نجحت فيها إقناع العسكر السماح بالمرور. لا مجال الا السير توجساً، وقبل بلوغ مقدمته جسراً أصم بمائتي متر ظهر جنديان، وقد خلعا أحذيتهما العسكرية، يمشيان ببطء شديد، كأنهما اجتازا بشاكلتهم هذه مسافة طويلة، لم يتناولان خلالها طعاماً، ولم يتمتعان باستراحة تكفي لتجاوز حالة الاعياء. أشرا بكلتا يديهما إشارة توحي، وكأنهما يتوسلان من يجنبهما الموت، إذ لا يقويان على المسير. توسل الأكبر عمراً انقاذهم من هذا الحال الذي هم فيه، وذلك باصطحابهم في هذه السيارة المكبلة بحمولة تزيد عن القياس، لأنهم لا يقويان على السير، وقد تركا وحدتهما التي تبخرت في الصحراء، هم هكذا منذ يومين، يسيران راجلين باتجاه سوق الشيوخ.

- لكن سيارتنا ممتلئة كما ترون، ولا مجال في داخلها لطفل رضيع.

توسل الثاني لاصطحابهم، ولو بالجلوس فوق بعضهم البعض لأنهم سيموتون تعباً، وجوعاً إذا ما تركوا هكذا ساعة أخرى. ومن جانبها توسلت عطفاً أُم شيماء، مؤكدة رغبتها في اصطحابهم، وترجلت من مكانها في الأمام متجهة الى الحوض الخلفي من السيارة. حشرت نفسها مع البنات سابعة لهم في مكان صمم في الأصل لثلاثة أشخاص، وقبل أن

يأخذ الجنديان مكانهما حشراً في الأمام، ناولت كل واحد منهم صمونة مليئة بلحم الدجاج، كانت قد أعدتها للبنات متاع طريق، التهماها بلمح البصر من شدة الجوع.

الجسر الهولندي عند محاولة اعتلائه بان مقصوفاً من الحلفاء، بعض حديد التسليح يشاهد واضحاً بعد تفتت الحصى والاسمنت نتيجة العصف القوي للقصف. قالت شيماء لهذا السبب هو كئيب. سيارة صالون هوت الى الماء عندما حاول سائقها العبور، فقدم حياته ثمناً للمجازفة. منظر يدفع الى الحذر وكذلك الخوف الشديد، فتقدمتُ نحوه ببطء شديد. وقفت على بدايته. نظرت الى حجم الخراب نظرة صقر جارح، وكذلك فعل الجنديان، فاتفقنا على استحالة عبوره بسلام إذا لم نُعَدِل اعوجاج بعض أذرع الحديد الظاهر، ليبتعد عن جزء من الرصيف هو المتبقي صالحاً لاستخدامه في المرور من فوقه بقدر مقبول من المجازفة. عند هذا الاتفاق بالرأي، واتمام مهمة تعديل أذرع الحديد الظاهر تم الشروع بتنفيذ العبور بتأنٍ شديد بعد أن أصبح الجميع في مركب نجاة واحد.

كان أحمد الجندي الأصغر سناً يمشي قافلاً الى الخلف، وجهته السيارة، يؤشر بكلتا يديه، قليل الى اليمين، كفى مثله الى اليسار، استمر بالتقدم كما أنت الآن. في الوقت الذي يمشي فيه مسعود خلفها، يضرب على غطاء صندوقها، إذا ما أقترب الإطار من حافة الرصيف المهشمة أكثر من اللازم، أما البنات والأُم فقد ارتفعت أيديهن الى السماء، يرددن دعاء السلامة مع كل متر يتم اجتيازه بأمان. وتم الاجتياز بأمان،

وتصاعد عند إتمامه الحماس، وشكر الله، وتعززت الثقة بأنه هو من سخر هذين الجنديين للمساعدة في اتمـام العبور، وزاد الاطمئنان باجتياز الحاجز الاخير الى باب النجاة، سوق الشيوخ.

هنا في هذا الجانب يحكم الثوار المنتفضين قبضتهم على الطريق، يقيمون سيطرة عند كل خمسمائة متر. طلب آمر السيطرة الأولى الهويات، أعطيَّ الهوية الموجودة في الجيب الأيمن نائب ضابط، ففعلت فعلها، حتى نقطة السيطرة الأخيرة التي يديرها رجل بلحية سوداء كثة، يقف الى جنبه شاب متحمس، طلبا الهويات بصوت فيه قدر من الشك الواضح. أدخلت يدي في الجيب الأيسر بطريق الخطأ، فظهرت هوية الخبير. حاولت إعادتها الى مكانها سريعاً لإظهار الأخرى من الجيب الأيمن نائب ضابط، لكن الرجل الملتحي لم يسمح بإتمام الحركة التي لا تخلوا من الارتباك، وطلب على الفور الاطلاع على ما باليد، مصمماً على الاطلاع. قرء بصوت فيه نشوة فرح، فتعالى صوته دون تمحيص:

– ما شاء الله خبراء التصنيع، أعوان حسين كامل في ساحتنا، إنها من علامات الساعة.

عندها ضاقت في نفسي الدنيا وماتت كل الاعذار، ولم يبق الا كلمات قليلة لأغراض النكران، أي ورطة هذه التي وُضعت فيها. التفتُ الى من حولي، فلم أجد سوى وجوه قد اصفرّت وكأن إله الخوف قد طوقها بعباءته الصفراء، قلت:

– أي حسين كامل تقصد؟. أنا رجل أعمل في وزارة الكهرباء خبير، ما علاقتي بحسين كامل.

قلتها بصوت يشوبه الارتباك بشكل واضح، وباقي الثوار يتحركون رواحاً ومجيئاً حول السيارة المأسورة، كأنهم يطوفون في حضرة إمام معروف بالشفاعة، كانوا قد طلبوا منه في زيارة سابقة اماتة حسين كامل، وعادوا الى زيارته بعد ان حقق لهم ما ارادوه.

قال أحدهم وهو يطوف، نعم إنه مساعد حسين كامل.

وقال آخر، هذا من أعوان الرئيس.

وثالث أكد بحس أمني إعتقده لا يخيب، أنه مرسل للتجسس على الثوار.

وقبل ان ينتقلوا الى مرحلة الفعل الميداني كما اعتادوا ان يفعلوا قتلاً للمشكوك بهم، حسم قائدهم الملتحي الأمر، بعدم التسرع في اتخاذ أي اجراء، لوجود عائلة في الوسط، ولابد من عرض موضوع الأسير، مساعد اللعين حسين كامل على السيد قاسم في سوق الشيوخ.

لم يكن السير بهذه السيارة هيناً، بعد جلوس شخصين من الثوار على غطاء محركها الذي يزأر من شدة التزوير. ومن فرط الحمولة أضحى جسدها الهالك، وكأنه يلامس الأرض. المنظر من خارجها وباقي الثوار من حولها وخلفها، يتحاورون ويكبرون بما حققوه في جهادهم لهذا اليوم، بدا وكأنه زفة عرس لأحد جنود الحرب عاد سليماً منها بأعجوبة.

في خضم هذه التطورات المتسارعة بؤساً سكت الجنديان، ربما بسبب شدة الصدمة التي لم تكن في الحسبان، أو نتيجة الشعور بالحرج من تلقيهم المساعدة عطفاً من مساعد حسين كامل وهم في هذه الحال، ولربما قالا لبعضهما أن تقديم المساعدة لهم جاء لأغراض التغطية على

أصل الهوية، وهم على هذا في حل عن تبعاتها. الله أعلم فالقول مباح في ظروف الشدة، وتغييره وارد في مثل هكذا مواقف، بل وفي أسهل منها يجري التغيير.

تمتمت أُم شيماء بكلام يكاد لا يسمع، فهمت منه فقط «قومٌ كم يستسهلون فعل التغيير».

ظهرت المسافة الى الحسينية قريبة، وبان الوصول اليها دافعاً لإيقاف التشعب في القول، وبانت الزفة وسط ضجيج المشهد فرحاً، فرصة ملائمة استغلها الجنديان للتسلل هرباً من المكان، ذهبا بعيداً دون أن يسأل أحد عن وجودهما مثل فص ملح ذاب، كما قالت ام شيماء بعد فشل محاولتها الاستجارة بهما شهود عيان من أهل المنطقة على النوايا السليمة للمجيء، وأكدت أن الملح في الطعام الذي التهماه بسرعة لم يغزر بهما.

الحسينية هي الموقع القيادي للمنتفضين، دخلناها جمع من الآسرين والمأسورين، مسك أحدهم رسغي خشية هروبي وكأني صيد ثمين، ومشى آخر خلفي شاهراً سلاحه متهيء لأي طارئ. يُكبران معاً «الله أكبر»، يعلنان القاء القبض على مساعد حسين كامل، فالتف حولهما عشرات من الثوار والمتفرجين، وكذلك الذين ينتظرون في مواقع الوسط لم يحسموا أمرهم بعد، وهم الغالبية من بين الحضور. موقف لا نحسد عليه ولا يمكن أن يحسد عليه أحد، حصل قبل بلوغ الهدف الأول سوق الشيوخ بمئات الأمتار.

يا له من نحس، قلتها مع نفسي وجال فكري مع دقائق الانتظار

الأخيرة، أمام العميد مانع في عملية إطلاق السراح، وكيف عالجت قلقي آنذاك، بمعاودة الانشغال بفكرة الهروب، وكيف وضعت قدمي اليمنى على أرضية السيارة الكوستر، يوم أقلتني وباقي الزملاء من السجن الى ديارنا، مستعيناً بكتف سرمد لمصاعب في ثني الساق التي تضررت في أحد غزوات التعذيب.

وقفت أمام السيد قاسم، كبير من في الحسينية وقائد ثوارها كما تبدو هيئته، متسربلاً بثياب التيه بين أربعة جدران:

جدار خلاص بالهروب من محنة.

وجدار بؤس بالوقوع في ورطة.

جدارُ ماضٍ فيه بقايا أبو غريب وخيانة رفقة.

وجدار حاضر فيه وجود أمريكي يكتب على يديه تحقيق الحلم بالهروب، وفيه على اليمين ثوار انتفاضة في طريقهم الى الانقضاض على سلطة الحزب والرئيس، وعلى الشمال أشباح من بقايا الحزب والسلطة تلبست أجساد ثوار تدعي الحكمة.

سألت من كان ماسكاً رسغي ضاغطاً على مفصله، أهذا الذي أنا فيه حقيقة أم مجرد خيال؟. أيمكن أن يحدث فعلاً أم أنه ضرب من ضروب المحال؟. فضغط على المفصل بقوة، دفعني الألم الناتج، أن أتمترس بالصمت، وأعيد الذاكرة الى ماض قلبت بعض صفحاته المتهرئة، فظهرت ثانية سيارة الكوستر التي غادرت أسوار السجن المشؤوم، وظهر ركابها الذين جلسوا على كراسيها الجلدية، مبهورين في عالم بغداد الجديد خارج السجن، لقد تغيرت الكثير من ملامحه في هذه السنوات

القلائل، لا يجرأ الواحد منهم وأنا كذلك توجيه السؤال الى چاسب الجالس في المقدمة، ولا يجرأ الامعان في الشارع، وحركة الناس ومرور السيارات، تعودنا الصمت وتلقي التوجيهات حتى في النظر الى الأشياء، وتعودنا الخوف من توجيه الأسئلة والاستفسار.

لقد توقف التذكر وتقليب الصفحات فجأة، وتحول الجهد العقلي الى لوم قاسٍ للذات على خطأ ارتكبتهُ في إظهار هوية الخبير، وأدت الى الوقوع بأسر ثوار يرون بأفعالهم سبيلاً لنجاح ثورتهم والانتقام من النظام. لم يكن هذا في حساب خطط الهروب التي تمت مراجعتها مرارا.

مع هذا اللوم وعدم الرغبة في فقدان السيطرة على الذات، حضرت فكرة المقارنة في الموقف والتعامل وفي كل شيء، بين هؤلاء الثوار الآسرين في منطقة نفوذهم، وبين الحكومة التي أوقعت رجالها في غياهب السجن دون ذنب، فأيقنتُ أن لهؤلاء الثوار وفي ظروف القتال المعقدة الحق في ان يتشككوا، ولهم الحق في التمسك بالأسرى، لكن ليس للحكومة الحق في أن تقيم الحد على أعوانها لمجرد عدم رضا الرئيس، أو أحد من حاشيته. مقارنة خففت من شدة القلق، ومن درجة اللوم الى الذات المكسورة في اتخاذها قرار الهروب، وبهذه الطريقة التي فيها المجازفة على اعلى المستويات. وبعد التيقن من أن الثوار المنتفضين ومهما فعلوا لا تصل حدود قسوتهم البقاء ساعه تحت رحمة الجلاد في أبو غريب، خف القلق وتكونت حالة من الاستعداد للدفاع أي كانت النتيجة، وقدرة للخروج من التمترس بالصمت.

أنت، قال السيد.

لم أنتبه، ففزني الماسك برسغي بحذاء عتيق، شعرت لحضتها ارتطام قدمي بالأرض، أعاد لي وعيي.

قال تقدم خطوة الى الامام.

تقدمت واقفاً مثل صاحب ذنب ملفق في محكمة ميدان ثورية، متلهفاً في أن تبلعني الارض بكامل قواي.

رفعت يديَّ عالياً أدعو كي تبلعني.

سألني:

– لم ترفعهما؟.

قلت:

– لكي تبلعني، فظن هو والحضور أني جننت.



الاقتراب
من حافة الموت

استمرَ الهرج سائداً، واستمر الواقفون والجالسون والمتفرجون في أماكنهم ينتظرون النتيجة التي لا تعني البت بوجود الحقيقة من عدمها، بل بشكل القصاص المطلوب اتخاذه. واستمر السيد قاسم يسأل عن الحاج محمد، الشخصية النافذة في سوق الشيوخ، للتباحث في الشأن، واكمال نصاب هيئة التحقيق والمحاكمة، التي قرر اتمامها سريعاً لشخصي، متهماً بصفة المساعد الأيمن لحسين كامل صهر الرئيس ووزير تصنيعه المقرب.

قال أحد القريبين من المنبر أن الحاج ذهب الى البيت ليستريح، فطلب حضوره والسيد أبو رغيف على الفور، وأكد ضرورة تواجدهما قريبين منه، ليتخذون معاً قرار التعامل مع صيد اعتقدوا أنه ثمين. أما أنا فكان ظني في وقتها، أن السيد قاسم قد أقترب في سره من القرار على تصفية كل من يتبع الرئيس، أو صهره والحزب. أخيراً حضروا بوقت يحسب سريع لقرب بيوتهم من الحسينية.

أشر لهما أن يجلسا على جانب من المكان فجلسا، وجلس معهم فكانوا

ثلاثة هم أصحاب القرار وبيدهم المصير. تكلم هو أولاً عن ظلم الرئيس ودور حسين كامل في تعزيز هذا الظلم، فأيداه بإيماءات متكررة، كأنهم يريدون من الكلام والايماءات، تهيئة أنفسهم نداً لمن اعتقدوه مساعداً فعلياً لهذا الوزير المحسوب بحسابات التأثير الرجل الثاني في البلاد، والساعد الأيمن للرئيس أو أنهم يودون تكوين كومة أفكار لدى الحضور تؤيد قرارهم في الحكم بالإعدام المنوي اتخاذه.

بالنسبة لي أكاد لم أتحرك في وقفتي وقد غرقت بنزيز الخجل.

نظرت الى من حولي بعينين لا ترمشان، ولكي أستعد لمحاكمة بيني وبين الزمن، اتخذت من الماسك برسغي متكأً، وهاجس الموت قد مس قلبي الواهن، فحوله طبلاً أجوف لا يدمدم، فأوجست منه خيفة.

مددت نظري الى أرجاء المكان المزدحم بالرجال المنتفضين، والمتفرجين، والجواسيس، والصخب، فأدركت أنها توحي بسهولة اتخاذ قرار الإعدام ميدانياً، بل تشجع على هذا، خاصة وإن أجواء الانتفاضة برمتها محتاجة الى تقديم قرابين من أهل النظام، تُنحر في ساحة التعبئة، كما هو شأن الثورات، لتعطي دفعاً قوياً الى مشاعر التمرد في أن تظهر، فالعقول هنا وهناك على وجه الاجمال قَيدها الخوف من ظل الخَيَال لعدة عقود، تقاتل هي أيضاً كي تظهر. تذكرت ساعتها اولئك الرفاق الذين حُكموا بالإعدام، وكيف نفذ بهم رفاقهم الحكم في ساحة تدريب لعساكر يعدون أنفسهم لخوض حروب، فقلت مع نفسي إنها الفرصة الوحيدة التي قدمها الحزب بقصد المساواة بين جميع رفاقه، من خلال المشاركة معاً في اعدام بعضهم بعضاً كرفاق، لكي لم يبق بعد

فعل المشاركة بالإعدام فاصل بين مذنب وبريء، وقلت ايضاً أن فعل أهوج مثل هذا، كان بداية الالغاء المقنن للفواصل بين الرفيق الحزبي والجلاد، وبداية احلال الاذعان المبرمج محل الاحترام الرفاقي المؤدلج، عندها بكيت بصمت، خشية أن يقول الجمهور أني نادم ويثبتوا التهمة بحقي.

كانت رائحة التعرق من أجساد أضناها الظلم تنبئ بالاستعداد للمشاركة في تنفيذ الاعدام، وأنا وسطهم بلغ حالي حد الذهول، وان اعتدت تقبل الأسوأ وسط روتين الانتقام، وتجاوز عتبات الخوف مثل صغار الارانب المذعورة، تمكنت من الوقوف على قدميَّ مستشيطاً من الغيض، أعض على شفتيَّ كي لا أغضب، فأفقد السيطرة على عقل مطلوب ابقائه منبسطاً ليدافع بكفاءة. وكان السؤال التقليدي وسط هذه الجلبةَ وامام حشد ملأ المكان عن الاسم الحقيقي، وكان الجواب على شكل مقدمة لفتح حوار، حَولَ الخوف في داخلي الى حماسة في القول، فقلت:

– أني قَدِمتُ من بغداد الى هنا، ومهما تكن نوايا مقدمي فاني بحكم الضيف في دياركم الأصيلة حتى يثبت العكس.

سكت الجميع، وهدأ الصخب، وبانت على الوجوه إشارات تنبئ أن مقدمة كلامي قد أطفأت جانباً من نيران العداء المشتعلة في قلوب الهيأة التي شكلها السيد برئاسته للتحقيق، ودفعته الى الاسترسال بكلام كان آخره القول:

– أيها القادم من بعيد، أنا وكل أهل سوق الشيوخ نرحب بضيوفنا فيما إذا كانوا فعلاً ضيوف، لكننا وفي الوقت ذاته أشداء، قساة على

الخونة والجواسيس إذا ما كانوا حقاً كذلك.

عندها وبعد استعادة التوازن والثبات في الوقوف على الارض، سهل عليَّ التحكم بمجريات الحديث، وسهل الطلب بالسماح للجلوس بسبب التعب، وكذلك المرض الذي زاده سجن أبو غريب حداً بات فيه القلب ضعيفاً، لا يقوى على تحمل مثل هكذا صدمات آتية من أهل الدار. فقال أبو رغيف:

– هل لك أن تعلمنا بدايةً، كيف أنت مساعد حسين كامل، وكنت سجيناً في أبو غريب؟.

– لم أقل عن نفسي مساعداً الى حسين كامل، أو حتى عملت في التصنيع العسكري. ان احد الشباب هو من قالها عند مشاهدة هويتي، حتى لم يعطني الفرصة أن أقول الحقيقة من أني شامل حسين، عقيد ركن سابق، وكذلك بعثي وسفير سابق، دخلت أبو غريب في ١٠ آب ١٩٧٩، محكوماً عليّ بسبع سنوات أقضيها سجناً بتهمة الاشتراك في مؤامرة محمد عايش، وكان معي مجموعة تربو عن الستين حكم على بعضهم بالإعدام.

أكملتُ قولي، وتلفتُ الى من حولي وفي الأمـام، فرأيت عيون الموت في كل مكان، قلت مع نفسي ساعتها، لا يمكن إدراك الحقيقة، إلا عبر عيون الموت. عند هذه الرؤية بالتحديد، سأل الحاج محمد على الفور عن حقيقة وجود مؤامرة؟.

كانت الإجابة على هذا السؤال مناسبة لجلب الانتباه، وأخذ الوقت الكافي لتقليل مشاعر عداء تتجه الى الازدياد بين الجميع تدريجياً، مثل

برادة حديد وضعت جوار قطعة يملأها المغناطيس، وكانت البداية ذكر تفاصيل المحاكمة والسجن، وعند سماعها طلبوا المزيد، والمزيد وعلى الرغم من انتاجه شعور بالاسى، وسريان سموم شلت خلايا العقل، واقتربت من تعطيل الحواس المطلوب بقائها مستثارة على الاخر، كان فرصة سهلة لإقناع الموجودين بالحقيقة التي حجبها الانفعال الثوري القاتل. موت الحديثي مرتضى بحبة الثاليوم في مقدمة السرد، ومن بعده حامد الدليمي الذي تمت اماتته حرقاً بالكحول.

أصبحوا يسمعون بشغف، ويطلبون تفاصيل خاصة عن عملية الحرق بالكحول التي اثارت قدراً أكبر من الاسئلة، وردود الفعل الساعية الى الانتقام، وعنها قلت ومن بعد آخر حفل تعذيب (على فكرة كانت حفلات التعذيب تختلف أعدادها من أسبوع لآخر حسب المنهج الآتي من المخابرات). المخابرات التي بنى الرئيس قاعدة نفوذه من خلالها، إذ إنه ومن البداية كان هذا الجهاز المختص بالتعذيب والقتل والاغتيال يأتمر بأمره، وهو المهندس الوحيد لفعل التعذيب الخاص لهذه المجموعة المختارة من قبله. تعذيب على شكل نوبات تتكرر في اليوم الواحد عدة مرات حسب المنهج الموضوع في الجهاز، حتى بلغ أعلى حد له ست عشرة نوبة في اليوم الواحد، وكان في مساء أحد الجمع من شهر تموز الحار، يوم كان فيه النسيم اللاهب يتسبب في جفاف اللعاب في الحلق لمن يفتح فمه، وقبل صافرة النوم بقليل، بان في الممر الفاصل بين الزنازين چاسب ومعه حارس آخر، يدعى سبهان، يحمل بيده اليمنى غالوناً مملوء بالكحول، حيث الرائحه تؤشر الى هذا.

لقد أثار لفظ الكحول فضول أحد الحاضرين، فعلق بخبث وان أراد تغليف تعليقه بالسخرية، قائلاً، أنه (العرگ)[١]، إنهم كفرة يشربونه بالحذاء. وعلقت أنا بالنفي، وأكدت أنه «السبيرتو»[٢]. وقد صبوا بعضه على يديّ حامد وقدميه بعد إخراجهما من فتحة الباب المشبكة بالحديد، وقام چاسب بإيقاد النار فيهما من قداحة فضية، حتى احترق اللحم وتهرّأ في مكانه، وانتشرت رائحة الشواء، وكأن القاطع في حفل شواء بري، وحامد الرجل المعروف بشدة بأسه يصرخ في البداية، الى أن أتلفت النار الوصلات الحسية في قدميه ويديه، فسكت عن الصراخ، وتجمدت حركاته وردود فعله العضلية، وبدا أخيراً وكأنه في عالم آخر. كان فعلا في عالم آخر، عالم الاضطراب الفكري الناتج عن صدمة الألم، لقد تشوشت ذاكرته، ولم يعد يقوى على تذكر سوى القليل من أيام الطفولة، في مدينة الحلة التي عاش فيها وكبر في ريفها. لقد ذهبت بصيرته، هي الأخرى لنفس السبب، فلم يعد يعرف المكان الذي هو فيه، ولا السبب الذي وجد من أجله، يهذي بكلمات بعضها غير مفهوم في غالب الأحيان، يلتهم الأكل مثل حيوان جائع، وهو جاثم على بطنه لا يقوى على الجلوس

١- العرگ. كلمة باللهجة العامية العراقية تعني شراب كحولي يُقطر في البلاد من التمر (العرق)، وقد اشتهر بكثر تناوله، وشدته في احداث فعل السكر.
٢- السبيرتو، لفظ شعبي مشتق عن الكلمة الإنجليزية (sprit) التي تعني الكحول، وفي اللهجة العراقية الدارجة تعني المادة التي تستخدم للتعقيم أو للإيقاد.

بشكل طبيعي على أليتيه. يشرب الماء بلسان متحرك كما هو لسان الكلب في ولوغه الماء. لقد تركوه هكذا وعندما أقترب الشهر من نهايته، وحلت الحقيقة بإتمام اماتة ثلاثة من السجناء، منعوا عنه الأكل فمات في يومه السابع، وقد أكمل العدد المطلوب للإماتة ثلاثة.

لم يهدأ ذلك الشخص الذي علق على موضوع الكحول، وسأل هذه المرة عن الأعمام الذين ينتسب اليهم حامد، ولم يسكت إلا بعد ان عرف بالتحديد انه من قبيلة الدليم التي تسكن الحلة من مئات السنين، فرد هذه المرة بقدر من الاحترام مكتفياً بكلمة «والنعم». أما غيره من الموجودين، فلم يأخذوا كفايتهم الانفعالية، ولم يشبع عطشهم لمعرفة الماضي هذا السرد الموجز، فكانوا يتحركون في أماكنهم طلباً للمزيد، واستجابة لما يريدون عرجتُ في ختام المشهد الى زميلين لحامد كانا معه في الزنزانة حليم وسالم، حيث لم يستطيعا النوم حتى مماته، وقلتُ ان منظر الجِلد المسلوخ، والتقرح آلمهم وأبعد عنهم النوم، لكنهم كانوا مغلولي الأيدي، لا يستطيعون فعل شيء، ولا حتى اعطائه شربة ماء، بعد ان منعهم چاسب من هذا ومن التقرب اليه، قال لهم بصريح العبارة دعوه يموت، لابد وأن يموت فنهاية الشهر اكتملت هذا اليوم، لا يمكن ابقاؤه حياً بعد الساعة الثانية عشرة بأي حال من الأحوال.

ختم واحد من الواقفين كان في الصف الاخير، التعليقات التي أحدثت ضجة داخل الحسينية « ألا لعنة اللّه عليهم»، كيف يتركونه يموت عطشاناً؟. إنهم قوم كافرون.

لكن آخر قال هكذا هم قوم يزيد، ألم يتركوا الحسين يموت عطشاناً؟،

أحداث التاريخ تتكرر، ويزيد هذا الزمان هو الرئيس.

أيده الحاضرون بالتكبير بعد أن استحسنوا كلامه.

❖ ❖ ❖

القلب الموجوع في الأصل، أتعبه المرور الطويل لسرديات عذاب لا نهاية له، وفوق هذا استنزف المتبقي من الطاقة النفسية في الداخل الواهن، وقرب الحالة من حدود الاغماء. سكتُ قليلاً، أخذت جرعة هواء لأفتح عمداً ضيق التنفس الذي أحسه مفاجئاً، لمتُ نفسي للمرة الثالثة على فكرة الهروب التي أوقعتني والعائلة في خطر لم يكن في الحسبان، وكأن اللوم هو السلاح الباقي لحماية ذاتي من الانهيار. فوق هذا اللوم الذي اقترب من ان يكون سوط جلاد أطرش، بدأ التفكير بالعتب والشك بالحالة النفسية وسؤالها، لم كل هذا؟. وجوابي عن هذا السؤال وغيره، أن فقدان العدالة بين الناس، والانحياز الى بعضهم، وتعريض المجتمع الى التفريق، والحروب والسجن وخيانة الرفقة، والظلم الذي تعرض له الجميع بينهم المنتفضين هي أهم الأسباب، بل كل الأسباب.

سؤال نكش في العقل الباطن محتويات خلايا تقع جانباً، دفع الذاكرة لأن تنتفض كبوم بليل، استدعى بعض الأفكار التي باتت تتوالى، وما طفى منها على السطح في هذا الموقف، يتعلق بالتخطيط الى الهروب في اليوم الأول لاستلام وظيفتي الجديدة مسؤول عن التعبئة في المؤسسة العامة للكهرباء، والسعي من جانبي لإضافة مهام الى مهامها المثبتة في الملاك،

تتعلق بالحماية السلبية لمحطات الكهرباء، إزاء الطيران الإيراني الذي نشط بعد السنة الرابعة من الحرب. لقد أَخَذَتْ فكرة هذه المهمة وقتاً لشرحها الى المسؤولين في مؤسسة الكهرباء، اذ لم يفهم معظمهم معنى الحماية السلبية. إنها مهمة أردتها مناسبة لتغطية تحركات لي تقتضي القيام بالاستطلاع والتنقل بين المحطات المنتشرة في العراق، لفتح مجالات مناسبة لتنفيذ فكرة الهروب عملياً. في مجالها ذهبت الذاكرة القلقة الى عكاشات منجم الفوسفات، مجالاً كنت أتصوره الاكثر مناسبة لتنفيذ عملية الهروب لقرب موقعه الماثل بين القائم والرطبة من الحدود السورية، ومحطة كهربائه الخاصة، ومشروع حمايتها من الطيران المذكور الذي بات يشن غارات استراتيجية من الاراضي السورية. حجة ملائمة، اكتسب مقترح زيارتها ميدانياً الموافقة على الفور، مع تقدير عالٍ للجهود الوطنية في دعم المعركة والقائد الأوحد.

خمسة أيام هي الاقامة في عكاشات، جاءت بعد ستة أشهر من التحاقٍ بالوظيفة الجديدة في هذه المؤسسة العامة للكهرباء، تم التركيز خلالها لإتمام فعل الاستطلاع المُفَصَّل الى جميع طرقها والنياسم، وحساب المسافة والاتجاه، لكل العلامات الفارقة فيها كأني أعمل مساحاً لحدود وهمية، وأثنائها حددت نوع القطعات العسكرية المرابطة في محيطها، وشكل المراباة واسلوب الدوريات، كأني قائد عسكري يستطلع من أجل الاعداد لهجوم واسع. كانت حسابات المسافة، ونتائج الاستطلاع قد رجحت القناعة، بإمكانية النجاح في تحقيق فكرة الهروب من هذا المسلك. قناعة أبطلها في ذاك الوقت، تنويه عرضي لآمر لواء الحدود

العميد حميد حسون المسؤول في المنطقة، عن ارجاع السلطات السورية شخصين من أهالي بغداد تسللوا اليها من نفس المنطقة. على هذا كان القرار بعدم صلاحيتها لتحقيق حلم الهروب، والتوجه هذه المرة صوب الجنوب، وادراج محطة كهرباء الهارثة في خطط الحماية، مجالاً لتنفيذ خطة الهروب، والحاجة الى المكوث في المنطقة وهي في ظروف حرب لم تبق ثغرة صالحة للهروب، الا بالتنسيق مع أحد الآمرين الثقاة، ومع هذا برز في الحال سؤال لا يمكن تجاوزه، يتعلق بصعوبة الثقة، وقد سرى اللسع غدراً من أقرب الرفاق في السلوك العام، كالنار في الهشيم:

شك بمن يأتي ومن هو موجود.

كتابة تقرير عن القاصي والداني وعمن يمر قريباً أو بعيداً عن الحدود.

سلوك ساد وأنتشر، ليس بين الحزبيين فقط، بل وشمل الغالبية من الآباء والأبناء وكل العباد.



في داخل الحسينية تعالى الهتاف، والاشادة بالثوار الذين ألقوا القبض على الجاسوس. الانفعال المتصاعد سرعان ما حول التهمة في عقول الجمهور من مساعد الى جاسوس. ودفع الأفكار في عقلي لأن تتزاحم، فذهبت مخارجها هذه المرة الى الحرب العراقية الايرانية، التي توقفت بتعادل خسائرها، وتغير المواقف، وتبدل الاهتمامات، وبقاء

التخطيط للهروب قائماً، حيث الالتقاء بكاكة حمه، الصديق الكردي في أربيل، ذاك الذي توثقت العلاقة معه أيام المسؤولية الحزبية عن المنطقة، والتنويه له بالرغبة الجادة للهروب والعائلة الى ايران، عن طريق الشمال الكردي، وإتيان الرد سريعاً من أن المغامرة بوجود العائلة مجازفة غير مضمونة، كون الوثوق بالمهربين في المنطقة صعب، لأن بعضهم يعمل وكيلاً للمخابرات، وآخرين للأحزاب الكردية، وبعضهم الآخر وكلاء مزدوجين، مستعدين إفشاء الأسرار بقليل من الدنانير، وأحياناً تبرع لمجرد تأكيد الموالاة.

بعد تأكيد كاكة حمه هذا، أصبح الجنوب هو الحل المحتمل، وأصبح العمل على معاودة استطلاع محطة الهارثة، والأخريات الموجودة في الجنوب لازما بمصاحبة العائلة للتغطية، وعلى هذا بدأ المشوار من البصرة التي تتمتع بجو جميل في شتاء دافئ نسبياً.

البصرة التي سميت في عصر ازدهارها، ستينات القرن الماضي عروس الخليج، أضحت أثناء وبعد حرب الثماني سنوات مع إيران، مجرد حطام، هرستها الحرب، وأتلفها الإهمال، وأماتت القنابل نخيلها، وقضمت مخادع الجنود، وملاجئهم جذورها البريئة، وزحفت الى مائها ملوحة البحر، فهجرها الزوج في ليلة زفافه، وهجرتها أسماك البني والشبوط في الليلة التي تساقطت فوق مائها القنابل.

كان المقصد هذه البصرة بكل ما أصابها من علل، وكان الانتظار في فندق حمدان على أمل العودة من جولة استطلاع قد تُسَهِل التنفيذ الذي بات وشيكاً، بالتأسيس على التغير الحاصل في انفتاح القطعات على

طول خط الحدود مع ايران، نتيجته تأكيد على وجود العديد من الثغرات التي يمكن النفاذ منها بمستوى نجاح مقبول، باستثناء عقبة وحيدة هي حقول الالغام التي تنتشر في الجانب الايراني من دون تأشير، دفعتني الى تأجيل التنفيذ وحسم قرار العودة مع العائلة الى بغداد، بانتظار فرصة ستأتي حتماً مادامت الفكرة قائمة، وخزين الذاكرة من عذابات السياط الاتية من چاسب وياسين لم تنضب بعد.



جاء صوت عَلا باقي الاصوات يلعن الحكومة، وحسين كامل ومساعده الجاسوس، تقدم خطوة، راد افتعال موقف ليصفعني، عقاباً على فعل افترض أني ارتكبته لمساعدة الظلم، وتنكيلاً بحسين كامل، لكن أسئلة أخرى وجهها السيد قاسم عند عدم اقتناعه بالعرض الفائت عن أبو غريب، أوقفت ذاك المستمر في اللعن، المتحمس الى توجيه الصفعة من قريب، حيث الاتجاه السائد في الحسينية الاستماع الى مزيد من القصص عن أبو غريب، لا يريد السيد افساد نشوة الاستماع الى وقائع تعري النظام. فلم يعد هناك من فائدة سوى التأكيد على مساعي الهروب الى المجهول من نظام كنت منه، وأصبحت ضده، وسجنت بسببه، فقلت:

- نيتي أيها السادة، التوجه صوب الحدود عن طريق جيوش الحلفاء التي تمسك بتلابيب الحدود، عسى جنودها المتناثرين على رمال صحارينا الواسعة أن يساعدوني في تخطي عتبة المجهول، واذا

ما سمحتم لي الان، وانا في هذه الحالة من التعب، سأتجه اليهم تحت أنظاركم، لا أفرق بين أمريكي أو بريطاني أم غيرهم، فوجعي أقوى من الاختيار بين هذا وذاك، وظني أنهم الأرحم عليّ وعلى عائلتي من أبناء وطني وحزبي.

عم الصمت أرجاء الحسينية المكتظة بأصوات تهتف بالموت، قاومت الخوف بضراوة أكبر، ومع هذا شعرت أن الجدران من حولي تضيّق عليَّ الخناق. أشر البعض نحوي قائلين، الموت لهؤلاء المندسين، الذين يحاولون اختراق الجدران القائمة للثوار المنتفضين... موت يراد له أن يتم سريعاً، هنا والآن بعد أن تجمعت مشاعر العداء في نفوس الموجودين داخل الحسينية حزمة واحدة، قادرة على اختراق الحياة، حتى باتت الاسئلة الموجهة من كبيرهم، والجالسين جنبه دفعاً باتجاه الموت، وباتت الهتافات الواردة من الجهات الاربع، أمراً واقعاً ينبئ بحصوله المحتوم، حكماً لمن يشك بعلاقته الوثيقة برجالات النظام الذين أذاقوا الجميع ويلات التطبيق القسري للمبادئ. تهمة خرجت في الأصل من بين شفاه السيد مازن، الشاب الكاره للمبادئ والنظام، الذي اُختطفَ والده في وضح النهار، وأخفاه في أحد المقابر الجماعية بإشارة من الرئيس. هكذا كان الرئيس عندما يضع عينه على شخص تصبح الحياة وهماً. التهمة الموجهة لي كأنها ثابتة أو تبدو هكذا، ولدت وانتشرت ناراً أوقدها عود ثقاب بكومة قش يابس، وسط انفعال جاف وتراشق رصاص، وتضخمت في عقول القريبين وباقي المنتفضين الذي يفتشون عن انتصارات على بغداد، منبع الظلم المتجه منها الى عموم أنحاء العراق، وترسخت في

عقل الباقي من الجمهور الغاضب من الحكومة عندما كبّرَ مازن معلناً القاء القبض على هذا الخبير المساعد لحسين كامل.

تهمةٌ سارت معي ملاصقة لظلي، حتى هذه اللحظة التي أقف فيها مأسوراً، تعلو وجهي الشاحب صفرة مزرقة، كأن القلب يشكو عجزاً عن دفع ما يكفي من الدم الى عضلاته المتهدلة. زاده اصفراراً لاحظته على أكف يديّ تكرار اللوم الموجه الى ذاتي المضطربة، عن قراري الهروب في غير الزمان والمكان المناسبين.

في هذا الظرف الخاص انتشرت الاشاعات الخاصة، بأسر الجاسوس الاقرب للوزير، أضاف لها البعض تهم بالمسؤولية الجنائية عن أنتاج الأسلحة الكيمياوية، ووضع خطط التصنيع لامتلاك أسلحة تقتل العراقيين وهم نيام. بسببها ولمزيد من الاستنفار بالضد من بغداد أصبح التوافد جماعات من المناطق القريبة الى الحسينية لمشاهدة الجاسوس الاسير، وربما الفوز بفرصة المشاركة في رجمه انتقاما من النظام.

مرت جماعات، ومر أفراد متفرقون قريباً من العائلة المركونة في سيارة الفولفو دون اعارتها أي اهتمام، مما أثار قلق أفرادها ونهش جهازهم العصبي، خاصة بعد تأخري محجوراً داخل الحسينية دون علمهم أن الحجر جلسة محاكمة ميدانية، ودون معرفة لنجلاء وغادة، المستمرتان في الالحاح على الخروج من السيارة بغية اللعب خارجها غير مكترثات لما يحصل بعد أعياء أصابهما من الحبس داخلها، والرغبة في استكشاف هذه الطبيعة الجديدة قريباً من المكان.

مازالت أصوات الثوار تصدع، والهتاف ضد الوزير ومساعده يرتفع، حتى وصلت بعض عباراته الى القابعين غصباً في السيارة فزادت من خوفهم حد التجمد في المكان.

حاولت أُم شيماء مغادرة السيارة والتوجه الى الحسينية بغية تخفيف القلق الذي كاد يأكل عقلها الهالك من الانتظار، لكنها ألغت الفكرة عند تذكرها إصراري على بقائهم في السيارة، وعدم مغادرتها لأي سبب كان.

❖ ❖ ❖

ازدادت الجماعات الآتية الى الحسينية، المقر الأعلى للمنتفضين بالمنطقة.

تصاعد في أرجائها الهتاف مع دخول كردوس لعشيرة آل عويّد، وزادت في الوقت ذاته الخشية من إضافة أصوات جديدة تطالب بالقصاص.

وفي لجة اللوم وقلق اللحظات العابرة، ظهرت على الذاكرة صورة الزنزانة ورطوبة المكان وعفنه، والرضوخ خوفاً من نوبات التدجين القهري، ومن كل شيء، وظهرت معها آلام الحفر بالأظافر على جدرانها الصماء وعبارات التمني للتخلص من تلك الآلام، وإزاحة ارهاصاتها داخل خطوط النسيان، وكأن أصحابها يريدون القول خلسةً، لقد كنا هنا، ورحلنا من هنا الى عالم النسيان.

هذه وغيرها جَسّدها خيال الماضي واقع في الحاضر بوضوح، فقفزت الى الوعي عبارة «أن هؤلاء الثوار الغاضبين ومهما فعلوا أرحم من أولئك

السجانين التعساء، وان الوضع الحالي ومهما بلغت مخاطره لا يصل الى ذاك الوضع الذي يموت فيه الانسان في كل لحظة ميتة حيوان». فأسهمت بالتهدئة بعض الشيء، والانغماس بالتفكير عن كيفية الخروج من هذا المأزق، وعندما ارتفعت اليد اليمنى دون سيطرة من العقل لحك أعلى الرأس بغية التفتيش عن الحل، لامست آثار جرح تركته ضربة قضيب حديد من ذاك المكنى أبو حديدة، فتحت في وقتها جرحاً لم يلتئم في أسبوع.

لم يهدأ الجمهور الهاتف، ولم يهدأ العقل الفاعل، ولا أولئك الواقفون في الزاوية، يريدون اكتشاف المزيد من بؤس السجون ليقنعون أنفسهم بجدوى الانحياز الى الثورة، التي أخذت تتسع في ربوع المدينة والريف، فجاء صوت من بينهم كان جهورياً وخشناً، لرجل خشن طويل القامة يصلح أن يكون قائداً لكتيبة فرسان:

- دعوا الأسير يخبرنا ما كان يجري في السجن، علنا نعرف حقيقته.

وعلى الفور قال آخر وما الفائدة من كلمات يؤلفها جاسوس.

وقال ثالث دعونا نخلص من هذا الشيطان، لنتفرغ الى قتال أصحابه، واستمر القول هكذا شاملاً، ولو أتيحت الفرصة لي وأنا في هذا المأزق من عد الاقاويل لجاء العدد مساوياً للواقفين، لكن صاحب الصوت الجهوري عاود الطلب، لأن يسمع ما كان يجري في السجن، فسكت الجميع.

السجن عذاب، والقاطع الخاص في سجن أبو غريب فرع من جهنم، بل هو جهنم، هكذا بدأت قولي، استجابة لطلب صاحب الصوت الجهوري مع المزيد من الإضافات، الأهم ما فيها تركيز على أن القائمين

عليه شياطين، يتفننون في التعذيب، يجعلون النزيل مسخ حيوان، يقتات أحيانا على فتات نفاياتهم، وأحيانا أخرى على بقايا هراواتهم التي تتشظى على جسده الهزيل.

ارتفع صوت الرجل الطويل عاليا، وقال:

- كيف؟. وَضِحْ لنا الصورة أكثر لكي نفهم. بعض الكلمات التي تنطق بها أيها الجاسوس تجعلنا ندور في ساحة الوهم، كأننا بعيدون عن وطننا، وعن اللغة التي نتكلم بها.

توقفت قليلاً لأجلب الانتباه، وقلت:

- لي مع هذا الشأن حكاية. قال:

- وما هي الحكاية؟. قلت:

- لقد انفصل رأس الهراوة «التوثية»[١] كما نسميها نحن أهل الريف، من ضربة جاءت على كتفي الأيسر «جاء قولي هذا رغبة مني في تعبير رسالة للجمع من أن المتكلم هو واحد من أهل الريف أي واحد منهم عساه ينفع في استجلاب التعاطف في هذا الموقف الصعب» فتلقفتها يديَّ غنيمة كمن وجد كنزاً، أخفيتها تحت ملابسي الداخلية، وعدت بها الى الزنزانة، لأسد بها بعض من الجوع عندما كان البرنامج

١- التوثية تسمية شعبية عراقية لعصا غليظة، غالبا ما يكون رأسها أغلظ من الساق، يستخدمها أهل الريف كسلاح للدفاع عن النفس أو لحراسة الحيوانات، وفي فترات سابقة، استخدمها الحراس الليليون. يقابلها في اللهجة المصرية «النبوت».

يقتضي ان تكون وجبة الطعام عشر فردات تمر من الزهدي، وجرعة ماء لمرة واحدة في اليوم، كان اخفاؤها كرة خشبية ممتعة، وطعم أجزائها أثناء المضغ يفوق التلذذ به لحمة الفخذ التي كانت تعد مائدة للغداء أيام الشباب، بل أطعم من رز العنبر لسوق الشيوخ، ممتعة حقاً عندما يقضم منها جزء بسيط لسد خواء معدة لا يوصف. كذلك أشعرتني في حينه بمتعة الاختلاف عن الأصحاب الجياع ليومين متتاليين، من فرطها باتت الخشية ملموسة في ان يشاركني أحد من الزملاء التهام جزء منها جوعاً، لكني وبعد تلقي العقاب من چاسب، وقوفاً خارج الزنزانة ليلة كاملة وعشر جلدات، كرهت فعلتها، وشككت بعقلي من أنه قد جن، اذ وبعد أن عدت الى الزنزانة تصورت الضوء في الأعلى شيطاناً برقبة طويلة، يريد الانقضاض علي ليلتهمني، لمنافستي اياه على وجبة طعام من خشب.

رفعت من وتيرة صوتي درجة، فقلت بغضب مسموع:

– آه من ذاك الجوع الذي فاقت آلامه سهام الانانية. ثم أرجعت نفسي الى حالها الهادئ، خاطبتها قائلاً، وآه لهذا الانتقال من موقف مؤلم الى آخر أكثر ايلاماً، يريد فيه الجمهور الراغب بالانتقام من ضحيته المزيد. عندها أيقنت بعدم جدوى السكوت وضرورة الاستجابة السريعة لما يريد الجمهور، فتراصفت الصور على حافات الخلايا الخاصة بالاسترجاع في العقل المشتت، فكانت صور الزملاء الذين قضوا في السجن، مثل شريط سينمائي أتلفه التخزين السيء، وَعرض قصص موتهم هنا سبيلاً لتخفيف الوجع على الذات المتورمة في هذه

اللحظات التي لا تخلو من الخوف، وتمهيداً لتقبل الحكم الذي سيصدره الثوار موتاً في القريب.

سكتّ قليلاً كطرفة عين، وقلت لنفسي لم الخوف؟، ومازالت في مخيلتي تلك الفكرة التي طالما رددتها مع حبيبتي من أن الزمن الذي يأتي بعد أبو غريب، زمنٌ مضاف إلى العمر الذي انتهى نفسياً في أقبية الموت داخل أسواره المنيعة.

لقد أنتهي العرض الخاص بقصص الموت بسؤال وجهه السيد الكبير في هذه الحسينية العامرة عن الغاية من المجيء الى سوق الشيوخ، وطبيعة المهمة التي كلفتُ بها من حسين كامل؟. وقبل أن يحصل على الاجابة، تبعها بسيل أسئلة أخرى غايتها التمهيد لقرار الاماتة من دون اكتراث لحكايات السجن وملابساته.



ملأتني الحيرة، وضاق من حولي المكان كأني محشور في جب. لم يبق لي من بد لتبديدها أو التخفيف منها سوى الإجابة بما ينسجم وحاجة الموقف الحائر، فكانت بعض كلمات اخترتها بدقة كما هي دقة النجم الطارق، لتكون مقدمة عن معارضتي الحكم بدليل السجن الذي ذكرت تفاصيله قبل قليل. رتبتها هذه المرة على مهل. استنفرت كل الخبرات التي أخذت لها مكانا في ذاكرة الماضي، وشغلت كل الحواس التي تعين في إدراك الحاضر والماضي، باعتقاد مقبول من أنها تفي بغرض الاعفاء

من عقوبة الموت التي أصبحت في عداد المحتوم، وقد بدأت قائلاً، أني مثلكم معارض لهذا النظام، سعيت من وسطه لأن.... ثم سكتُ، عندما نهض السيد من مكانه واقفاً لذاك القادم الخمسيني بملابسه العربية الجنوبية النظيفة. بندقيته روسية يضعها على الكتف كأنه مقاتل من الأهـوار، ويتمنطق بمسدس في جعبته كأنه قائد لفصيلة ثوار. عباءته والكوفية والعقال أعطت انطباعاً أنه شيخ من شيوخ المنطقة وثائر، بل قائد لمجموعة ثوار. المشية السريعة والالتفاتة الفاحصة مع السلام على صفوف المصطفين زادته مهابة ورفعة، والشخصان اللذان يسيران خلفه يؤشران دون شك أنه من كبار القوم جاهاً ومنزلةً، وذا تأثير على عموم الموجودين في الحسينية في اعتيادهم الترحيب به من علية القوم.

نهض الجميع لقدومه، اقترب من السيد قاسم، هم بالجلوس الى جانبه، التفتَ صوبي كأسير، سأل عن المكان والزمان الذي أسرتُ فيه. ركز بنظره الى الوجه وأعاد التركيز، كأنه مألوف. ألغى فكرة الجلوس، وبدلاً منها توجه صوبي، منادياً بصوت ملأت ترdrداته العالية كل المكان:

- من أبو شيماء؟.

- نعم، وقد أكسب السكون مخارج الكلام دفعة من التعاطف.

أقترب الرجل، رحب بيَّ ضيفاً أخذه بالأحضان، فأمتلأ المكان همساً فيه قدر من الاستغراب والتعجب. صاح بأعلى صوته:

- انك الآن بين أهلك وفي ديرتك.

سأل عن الذي حصل، وكيفية الوصول الى هذا المكان الذي يحيط به الموت من كل جانب؟. فأجبت بعد أن تجاوزت تلك المقدمة التي أعددتها

على مهل، فالموقف قد تبدل، وهي الآن لا تنفع، فقلت بحشرجة في صوتي:

- أردت الهروب من هذه البلاد التي آلمتني حد الموت في ذاك السجن المشؤوم، وتؤلمني الآن في هذا المكان الذي أحسسته سجناً في هذه الحال.

وقف السيد قاسم جانباً بوضع فيه كثير من الارتباك، لا يفهم ما يحصل، ولا يدري كيف يمكنه مداراة الموقف الغريب، بعد أن تبين له أن الشخص الذي أتهمه تواً بما يفضي الى الموت يؤخذ بالأحضان. لعن الشيطان، ذم الاستعجال، عتب على مازن والشباب، حاول التخفيف من وقع الحادثة من خلال المغالاة بالترحيب، والسعي لإعطاء النفس متسعاً من الوقت يكفي خروجها من دائرة الاحراج.

أعاد الرجل القادم ترحابه ثانية، تأكد بفراسته الريفية أني لم أميز شخصه، فبادر التعريف بنفسه، الشيخ منعم القطان، العقيد منعم، ثم التفت الى الحضور الذي ملأ المكان، ليُعرف قائلاً:

- إنه اللواء أبو شيماء معارض للرئيس الذي سجنه ظلماً وبهتاناً، هو من أشراف القوم ومن كبار الضباط الوطنيين المعادين للنظام.

ومع هذا ولحد هذه اللحظة، لم يسعفني العقل المرتبك أن أعرفه، فتأسفت له كوني لم أعرفه.

لكني أعرفك، أنت أشهر من نار على علم قال القطان، ثم التفت الى الموجودين ثانية أكد هذه المرة إن الواقف أمامهم هو اللواء الركن شامل حسين، فازداد الهمس وضوحاً، وعلت الابتسامات تلك الشفاه الذابلة تخلصاً من ذنب أقترب من الارتكاب حكماً بالموت.

وقف القائد مرحباً معترفاً بأهمية الضيف، اتجه لإعادة حساباته،

أعتذر خجلاً، وأنا حمدت الله على حضور القطان قبل فوات الأوان، وبهذا الحضور المفاجئ وَثقتُ من أني محظوظ، ومن أن الفرصة لتحقيق الحلم مازالت قائمة.

❖ ❖ ❖

لقد هدأتُ وانطفأت في داخلي نيران الغيض، كمن دلق على راسه ماءً بارداً في فصل صيف قائض، لكن عائلتي مازالت داخل السيارة يقلقها الانتظار، ويرهقها الجلوس المقيد، جميع من فيها بحاجة الى الحمام، وقليل من الماء ومثله الى الطمأنة، فقلت عائلتي، رد السيد قاسم:

- هل لديك عائلة؟. لماذا لم تقل لديّ عائلة؟. ولماذا لم يخبرني أحد بوجود عائلة؟.

قالها وأنا واثق من أن قوله لها جاء تخلصاً من حرج إضافي، لقد صاغها بطريقة ذكية، توحي وكأنه لم يعرف بوجودها مركونة في صومعة السيارة. ثم لعن من بعد قوله هذا من تسبب في هذا اللبس غير المقبول لضيف كريم. واثناء معاودة الاعتذار بقدر أكبر من التواضع، طلب من مازن الذي جاء باللواء أسيراً اصطحاب العائلة الى بيت أهله الواسع واعداد العشاء على الفور.

هنا وبهذا الامر الصادر من القائد الميداني أو الحكم الآتي منه، الجهة الأعلى للثوار في المنطقة، تبدل الموقف في صفوف الجمهور المنفعل، وتبدد الانفعال العدائي على الفور، ثم تعالى الهتاف هذه المرة

باسمي ثائراً متمرداً على النظام، وازدادت الاصوات التي تلعن الرئيس. ومن جانبها ذهبت العائلة مسرورة الى بيت السيد مازن أول من أضفى على والدهم صفة المساعد الأمين لوزير الصناعة حسين كامل، وكاد أن يتسبب بمقتله قبل تدخل الحظ في غفلة من الزمن غير محسوبة.

❖ ❖ ❖

للضيف منزلة خاصة، عند أهل المنطقة التي تسيطر على سكنتها قيم اندثرت في المدينة أو اقتربت من الاندثار، وعندما تم تعريفي ضيفاً بعد تدخل القطان، وجبت الحماية والضيافة حتى أقرر بنفسي ماهية الخطوة فيما بعد، ومع هذا انتظرت ما يأتي، وكانت الخطوة الأولى أن مد القطان يده الى يدي، مسكها بإشارة تدل على أنه راغب في الخروج معاً من هذا المكان، فخرجنا، وفي الممر الكائن بين باب الحسينية والشارع، قال احذر المندسين التابعين الى الدوائر الأمنية، فهناك الكثير منهم بعثوا الى هنا لأغراض التجسس على المنتفضين، نيتهم إفشال الانتفاضة، لقد أمسكنا بالأمس ثلاثة منهم كانوا يقيمون في القرية التي أسكنها، وقد اعترفوا أنهم ضباط من الأمن العامة، انزلتهم طائرات هيلوكوبتر في منطقة نائية من الهور، منها تسللوا الى القرية بهدف نقل المعلومات عن الانتفاضة، والسعي لدفعها باتجاه رفع شعارات دينية شيعية، وقد اعترفوا بالتقارير التي أرسلوها من أجهزة اتصال خاصة، وبالشعارات التي سربوها للجماعات المنتفضة، قبل أن يميتهم المنتفضون

قتلاً بالسكاكين. قلت بتعجب مفضوح:

- لماذا؟. فقال:

- أنا أسألك لماذا، وأنت الأعرف بخطط الحزب ونهج تفكير الرئيس؟.

فقلت:

- إنه يفكر أبعد مما نتصور، إنه وبعدما وقع في حرج التمرد الذي اتسع بالضد من حكمه، يفكر بإثارة المحيط العربي بالضد من الانتفاضة التي يريد وسمها في عقولهم أنها شيعية طائفية، وإذا ما نجح سيحصل منهم على دعم سياسي لإعادة تسويق نفسه حاكماً قادراً على قمعها، وقد يحصل أيضاً على ضغط منها على الامريكان لكي يوقفوا خططهم في اسقاطه، إنه يفكر بطريقة مختلفة، وسيستخدم كل السبل للقضاء على الانتفاضة، وبعد أن أكملت عبارتي الأخيرة أعاد عليَّ السؤال:

- ألم تتذكرني؟.

ولما أدرك استحالة التذكر، عرض بعض الوقائع السابقة، علها تفيد في إنعاش هذه الذاكرة المعطوبة فقال:

- لقد أرسلت أخي عدنان الى مؤسستكم قبل شهرين، لمتابعة معاملة نصب أعمدة لنقل الطاقة الكهربائية الى قريتنا، وقد التقاك في مكتبك، وأشاد كثيراً بالترحيب والمساعدة التي حصل عليها في انجاز المعاملة، مع استغراب ابداه من وضع مكتبك الذي قال عنه لا يتناسب مع شامل ذلك الاسم المعروف.

لكن الذاكرة لم تسعفني للتذكر كما يريد، وكأنها أصيبت بعطل،

ولإعطائها فرصة إضافية لنبش ما في داخلها عمدتُ من جانبي على مد الحوار عسى أن يكون عاملاً مساعداً لإصلاح العطل، وإخراج الصورة المعرّفةَ للعقيد، فقلت:

– المكتب اخي العقيد قد خلا فعلاً من التزويق، ومن الطموح الوظيفي وإثبات الذات. لقد مات كل شيء من هذا في داخلي منذ اتهامي بالمؤامرة، وحل محله التجنب الحاصل لكل شيء وأي شيء له مساس بالدولة، همي المحافظة على عائلتي، وخير وسيلة لتحقيق هذه الغاية، البقاء في الظل حتى يتحقق الحلم بترك العراق. توقفت قليلاً ثم أكملت:

– لو آن لك الحضور الى ذلك المكتب الذي لم أتآلف معه لوجدت أوراق مكدسة هنا وأخرى هناك، وأهم ما موجود هي الرسومات والمخططات الخاصة بالمحطات الكهربائية وسياقات أمنها. تعمدّتُ إبقائها لإثبات اهتمامي بالعمل وأخذها ذريعة أتعكز عليها في استطلاع الطرق الملائمة للهروب. لقد انشغلت طويلاً بدراسة مواقع المحطات، ومدى قربها من الحدود، وسبل زيارتها وهي قصص طويلة، آملُ أن تتاح الفرصة لروايتها لاحقاً. قال:

– تيقنت أنك لم تتذكرني، وعلى هذا سأقرب لك الصورة أكثر، كنت أنا صديقاً مقرباً من صالح الساعدي، المرحوم صالح، وكنت ألتقي عنده في بغداد مرة كل أسبوع على أقل تقدير، نتعشى سوية في بيته، أتذكر أنك كنت تَحضرُ بعضها. وهنا سأل:

– هل تذكرتني الآن؟.

– نعم تذكرتك، رحم الله صالح كان انساناً وطنياً وشخصا كريماً،

أماتوه غدراً. لقد شكلوا فريقاً منا لإماتته، بنوبة تعذيب مقننة، اذ أمرونا برفع جسده الى أعلى ثم تركه يهوى الى الأسفل عدة مرات، حتى تهشم مثل زجاج البلور.

- لقد أماتونا جميعاً، ولم يسلم من نوايا اماتتهم النفسية من بقيَّ منا على قيد الحياة. الخوف والحيرة التي يضعون الواحد فيها تميته خشيتها، والأفكار التي ترد قسراً في اليوم الواحد عدة مرات تعطي التمني الخاص بالموت طعماً خاصاً. لقد عفا عنا كما قال، لكنه لم يتركنا، وزعنا على دوائر الدولة موظفين مبتدئين، ونحن ضباط لا نحسن غير القتال، وسياسيين لا نفقه الا بالسياسة، أحترت عندما أمر بتعييني في المؤسسة العامة للكهرباء، وأحترت أكثر عند استدعائي لإلقاء محاضرة في مدرسة الاعداد الحزبي.

معقول !. كيف؟ ما هذه الغرابة من هذا الرجل الغريب؟. سأل القطان. فأجبته من أنها الحقيقة بعينها، مستمتعاً بقولي من أني وفي شتاء العام الماضي، وعندما كنت جالساً في مكتبي أتصل بيّ رئيس المؤسسة الذي قدّر وضعي، وعرف حقيقتي. كلمني بشكل مُغلف فهمت منه، وصول شخصين من رئاسة الجمهورية يسألان عني، لأمر هام. شعرت وكأن مصيبة قد حلّت عليَّ، بل رعب مفاجئ أصابني بنوبة هلع، أظهرت أمامي بلمحة بصر كل انفعالات الألم المكبوت طوال مدة السجن، ذلك الألم الذي بات يتنقل في أعضاء جسمي دون حرج، لتستقر سهامه في آخر مطافها داخل أذني التي يملأها القيح. استنزفت قواي التي خارت بسرعة، تصورت أني سوف لن أستطيع الصمود وقوفاً أو مشياً

وإياهم أمام الموظفين، ومع هذا أرسلت على الموظف كاظم سليم الموجود قريباً من غرفتي، كنت أثق به جداً، سلمته ثمانون ديناراً كل ما أملكه من بقايا راتبي الشهري. رجوته ايصالها الى عائلتي فور مغادرتي الدائرة، معتقداً أن الفصل الأخير من المسرحية قد حل تمثيله في الوقت الحاضر، ولا مفر من نهايته موتاً، كما كُتبت تمثيلاً على الجبين، ومن بعدها جمعت كافة الرسومات وباقي المنجزات التي أضعها في اضبارة خاصة، وسيلة دفاع وحيدة قد تنفع لإثبات الولاء. راجعت مع نفسي السنوات السبع التي كنت فيها مطلق السراح، كمن يدقق في اوراق امتحان، لم أجد فيها لقطة واحدة يمكن أن تعيدني الى ذاك السجن الرهيب. جلستُ على الكرسي الوحيد متوتراً، أفكر في الانتحار، لم أرَ في الانتحار أكثر من بقعة سواد لا أريد بقائها لوثة في سجلي المكتوب، ومن بعدي العائلة التي أحببت. بعد قليل من الاتصال، وصل الشخصان يتبختران. طرقا الباب. نهضت وكأني أتهيء للسير معهم الى المكان الذي يريدان. دخلا تباعاً، عرّفا عن نفسيهما موظفان من الرئاسة، حضرا للإبلاغ عن التهيؤ الى إلقاء محاضرة في مدرسة الاعداد الحزبي عن دور السيد الرئيس القائد في اعادة تنظيم الحزب بعد نكسة ١٨ تشرين عام ١٩٦٣.

❖ ❖ ❖

نزل جسمي المرتعش من الداخل على الكرسي الذي أقف الى جواره، تخاذلت ساقاي على حين غرة، شعرت كأنهما قد انفصلتا بغتة عن

جسدي المتهالك، نطقت ودون سيطرة مني على جهاز النطق مستغرباً بكلمة نعم!. أكاد لا أصدق طبيعة الطلب الغريب، إذ لم يرد في بالي القاء محاضرة حزبية يوماً من الأيام.

كررَ الشخص الذي عرّفَ عن نفسه الرفيق حاتم الطلب ذاته، أجبت بعد استجماع قوى التركيز الهاربة في داخلي، هناك رفيق أقدر مني على التعبير عن تلك الفترة الزمنية هو الجنابي، الذي لا يزال يشغل عضوية المكتب العسكري، ثم أني مطرود من الحزب، أخشى الانعكاس السلبي لكلامي على مسيرة الحزب.

انبهر حاتم من الرد، وانفتحت كلتا عيناه وسعاً كدليل على الغضب، وأعاد تأكيده عن طبيعة المهمة التي جاء بها تبليغاً وليس أخذاً للرأي، وحدد بشكل قاطع لا مجال فيه للنقاش، يوم السبت القادم موعداً لاستلام المحاضرة مكتوبة بخط اليد.

يا لغرابتهم، لا يتركون أحداً في حاله، ولا ينسون أحداً يعيش في دنياهم، قال القطان الذي جاء تعليقهُ عامل تشجيع لتقديم المزيد في هذا الشأن المحير، فقلت إن اللهجة الحازمة للمدعو حاتم، أثارت في داخلي القلق، فحاولت التملص ولو جزئياً، وذلك بإبعاد الوقت لأسبوع، قلت سأكتب خلاله تفاصيل تلائم منزلة الرئيس، لكن العرض لم يتغير، السبت موعداً أخيراً قال حاتم، وأكد انهما سيحضران بنفسيهما لاستلام المكتوب يوم السبت، وسيكون الحضور الى مدرسة الاعداد الحزبي يوم الاحد، الساعة الثامنة.

عند هذا ولكي يشعرني بجديته قال:

- أنت تعرف المدرسة في شارع الزيتون من الحارثية. ما قلته أمر، والأمر ينفذ ولا يناقش، ألم يكن هذا ما علمنا به الحزب.

وعند قولي نعم، تركا المكتب دون أن يودعا بالكلام المألوف سلاماً يلقيانه على من يودعون. تأوهت مع نفسي، وكنت وعلى الرغم من أني سعيد بعدم حلول الفصل الأخير من المسرحية ذات الصلة بأبو غريب، بقيت في الوقت ذاته تعيساً في عودتي الى دائرة الحزب والالتقاء برفاق قدامى، لا أريد مشاهدة أحد منهم. ومع هذا فأول عمل قمت به بعد خروجهما، وأخذ نفس عميق خال من الخوف، هو مناداة كاظم، وملاطفته بكلام لم يفهمه عن عدم اكتمال الفصل الاخير من المسرحية. طالبته بإعادة الثمانين ديناراً مع ابتسامة توحي، وكأني أمتلك الحياة من جديد. أظنه فهم القصد، فكاظم شخص ذكي.

من تعتقد له ضلع بجرك الى ساحة الحزب ثانية؟. سأل القطان.

- أجزم أن الطلب جاء من صدام شخصياً، وإنه عارف تماماً ظروفنا، وكم المعاناة النفسية في داخلنا، وميلنا الى مدحه تجنباً لأذاه. أراد المغالاة في مدحه أمام الحزبيين، متأكداً أنه سيجدها عندنا نحن المدجنين خريجو أبي غريب، وأجزم أيضا أنه لن ينسانا ولم يترك سبيلنا، سيعيدنا يوماً الى السجن أو الى القبر مهما تجنبنا او مدحنا، فالنهاية على يده موت، وعلى وفق ما يأتي متماشياً مع فصل للمسرحية سيكون الاخير. وأكملت القول:

- تلك كانت حادثة ضاعفت من عزمي على الهروب.

هنا قاطع القطان ليسأل عن أجواء المحاضرة؟. فأجبت:

- كان الدخول الى غرفة مدير المدرسة قبل ربع ساعة من الوقت، دخلتها أمسكُ بيدي نسخة من المحاضرة التي كتبتها، وسلمتها يوم السبت كما هو محدد. كان هناك آخرون يجلسون قبلي في الغرفة ذاتها، بينهم طارق عزيز وشبلي العيسمي وآخرون. ألقيت السلام، وردوا من جانبهم السلام كما يجب. سألاني كلاهما عن أحوالي في الوظيفة فحمدت الله على ملاءمتها لي، وعندما حان الوقت قدمني المدير الى الموجودين، وغالبيتهم من أعضاء الفرق المطلوب ترحيلهم الى مستوى أعضاء شُعَبْ، بصفتي عضو قديم في الحزب، رافق الرئيس لفترة حرجة من تاريخ الحزب، سُجن معه في السجن رقم واحد بعد عام ١٩٦٤.

توقفت عن الكلام قليلاً لسبب أجهله ثم عاودته قائلاً:

- بعد اكمال التقديم، ألقيت المحاضرة بترو، وإعلاء مغالى فيه لشأن الرئيس. لقد جعلته الباني الوحيد للحزب في تلك الفترة التي مهدت للتغيير عام ١٩٦٨، وضعته في خانة التعظيم عارفاً بأنه سيَطّلعُ على المكتوب في المحاضرة، وسيقرر مصيري بضوئها.

لقد شعرت بالراحة في عرضي هذا، واسترسلت بالكلام قائلاً:

- أتعلم؟، أني وبعد إلقاء المحاضرة بهذه الطريقة الرخيصة، أحسست أني مشطور نصفين، كليهما في داخلي، يدعيان الحق في القول والفعل... احساس منفر، والأكثر نفرة خروجي من القاعة مرتاب، لم أعد قادراً على تحمل ذاتي، كأني لم أر الاطمئنان في عيون الحاضرين. جيلٌ أظنه جاء متحمساً لشغل كراسي الصف الأول. انشغلت طوال الطريق عائداً الى الدائرة، بكيفية المحافظة على نفسي بعيداً عن الحشر المحتمل، في

مسرحية لا يريد الرئيس إنهاء فصولها، فاتجهت فور وصولي الى ضابط أمن المؤسسة أبو شعيب، في نية حماية نفسي، طلبت منه مراقبتي أمنياً. تسجيل كل تحركي داخل المؤسسة وخارجها، لتفادي أخطاء الانسان في تفسير الحوادث والنوايا العابرة. الانسان المسؤول في الدولة عن تفسير الكلام، وزلات اللسان. أعطيت مثالاً بقصد الايضاح، يتعلق بافتراض إجراء اتصال هاتفي مع صديق فيه موعد لقاء عادي، قد يفسر على وفق سوء الظن وافتراض النوايا لقاء سياسي، وغيره الكثير. ختمت كلامي بالقول:

– أخي أبو شعيب، لتلافي مثل هكذا تفسير، واحتمالات التأويل، أرجو تسجيل كل اتصالاتي الهاتفية.

كيف تفعل هذا، فضباط الأمن أشخاص غير مؤتمنين؟. سأل القطان، فجاءت إجابتي، حدث هذا من فرط الخوف، ثم تبين فيما بعد أن أبو شعيب شخص يختلف تماماً عن باقي ضباط الأمن المنتشرين في كل مؤسسات الدولة ودوائرها، لأنه وبعد اتمام كلامي، ضحك دون أن يسخر من طلبي. نهض من مكانه متجهاً الى باب غرفته المملوءة بصور له مع الرئيس، يكرمه فيها رفيقاً متميزاً، أغلقها وطلب إجراء مكالمة مع الموظفة نجوى في قسم الادارة، التي تُجيب عادة على الهاتف الموجود في المكتب، وقال اطلب منها الاتصال بزوجتك، وابلاغها بأي شيء تريد.

قلت:

– لم أفهم.

رد وما زالت الابتسامة تغطي وجهه الأسمر، أقول اتصل بنجوى

وستفهم كل شيء، وان كان سراً من غير المسموح معرفته.

اتصلت كما اراد، وطلبتُ من نجوى ابلاغ أُم شيماء بقائي في الدائرة الى ما بعد انتهاء الدوام، وضرورة عدم انتظاري على الغداء.

عندها عاد وأخذ مكانه خلف مكتبه الذي تكثر الادراج على جانبيه، تنفس بعمق، نفث دخان سيجارته الكنت حتى امتلأت الغرفة بسخام العتمة.

فتح الدرج الأول، أدار جهاز تسجيل مخفي في ثناياه، وإذا بالمكالمة التي اجريتها مع نجوى ومكالمتها مع البيت تظهر بنقاوة صوت، وكأنها سجلت اسطوانة ممغنطة على يد خبير تسجيل متمرس.

دهشتُ في وقتها، وعلق هو على دهشتي قائلاً، إن تقارير المراقبة والتسجيلات قد بدأت منذ اليوم الاول لوجودك في المؤسسة، وأردف في القول:

- أبو شيماء أنا شخصياً أكن لك كل الاحترام، وأعرف الكثير من تفاصيل اتهامك، بيني وبينك أنا لست مقتنعاً بما حصل، لكن وكما تعلم ليس في اليد حيلة، وأود اعلامك أني سُئِلت شخصياً لتفسير بعض العبارات التي ترد في مكالماتك ولأكثر من مرة، وقد فسرتها من عندي بعيداً عن التأويل، نصيحتي لك أخ ورفيق أن توقف القلق وتستمر بالحذر، ولا تأمن أحداً، هناك الكثير لا أستطيع البوح به.

قمت من مكاني وقتها، قبلته مودعاً، شددت على يده بقوة، همستُ في أذنه بالقول أن العراق ما زال بخير. ومع هذا فقد خرجت من مكتبه أكثر حيرة من تلك التي تملكتني عندما طلب مني الاتصال بالموظفة، إذ

أني أعرف بخبرتي البسيطة حتمية المراقبة، واحتمالات التسجيل لكن المفاجئة المذهلة في موقفه الودي على العكس من طبيعة عمله ضابطاً للأمن، ومسؤولاً لفرقة المؤسسة الحزبية.

عدت الى مكتبي كمن انفتح قلبه لمتع المصادفات، وتبدد من نفسه القلق، لكن فكرة الهروب زادت أسهمها كثيراً.

– هذه يا سيدي واحدة من آلاف المعاناة، أوصلتني الى هذا المكان.

أنت أبو شيماء رجل كريم، والرجال يتعرضون الى كثير من المصائب، وهذا يومك، وأنا هنا قريب منك أخا لك، قالها القطان، وسأل عن أي حاجة أطلب، ثم رجى الذهاب معه الى البيت. فقلت له أن الالتزام بالضيافة التي قررها السيد قاسم في بيت مازن واجبة، والعائلة قد اتجهت الى هناك، والتعب قد حلَّ، ولابد والحالة هذه الالتحاق بهم، لأخذ قسط من النوم بعد يوم كان طويل ومليء بالضغوط، فودعنا بعضنا على أمل اللقاء في الغد، لتدارس الخطة القادمة باتجاه تحقيق حلم الهروب، لكني وعند دخولي الفراش عاودني الاكتئاب، وتوقفت عن النوم حتى آذان الفجر.

اغتصاب
وسط ركام التيه

انفتح المدخل على باحة واسعة مكشوفة الى فضاء مفتوح بانت منه السماء صافية مسالمة، في زاويتها اليمنى نخلة خستاوي، فاق سعفها أغصان وليفتها التينة العجوز، وهي خجلة من انحناءة جذعها قبل الأوان، وفي زاويته اليسرى تنور يجثم فاتحاً فاه، استعداداً لوجبة خبز لازمة للعشاء، فالضيف القادم من بغداد له شأن كبير، والتوصية الآتية من السيد قاسم تثبت هذا، وان كان تفسيرها توصيةً، ظاهرها احتفاءً بوجود بطل تحدى الرئيس، وحقيقتها تعويض نفسي عن الشك المتبوع بتهم اقتربت من تقديمه كبش فداء على ناصية الموت. اختفت مع فتح الباب الواسعة مشاعر التوجس في عقول الموجودين، حلت محلها في واجهة الذاكرة انطباعات بطل تحدى الرئيس، سجنته أجهزة النظام، تسلل عبر موانعها المنصوبة نقاطاً في العقول، ومئات السيطرات العسكرية القائمة على ذاك الطريق القادم من بغداد، وصل منها سالماً الى آخر محطة له في سوق الشيوخ. ضيافته حصراً في هذا البيت الذي يعود تاريخه الى عشرات السنين تكريماً له، ولأهله.

البيت واسع المساحة مبني على الطراز العثماني القديم، كان قد ضم في أيام عزه ثلاثة أخوة بوالدهم الكبير الحاج حمزة السهلاني. ورثه وأعاد ترميمه السيد حسن أبو مازن قبل عشر سنوات. قيل ان هذا البيت ضيّفَ نوري السعيد، رئيس وزراء العراق في أربعينات القرن الماضي أثناء زيارته سوق الشيوخ. تديره الوالدة المعروفة بقوتها، وسيطرتها على كل شيء في داخله وخارجه، حاولت إحياء تراث العائلة بتزويج ولديها، واسكانهم معها في ربوعه الرحبة، حيث حلت به أولاً زوجة في عامها الرابع عشر، عاشت فيه أيام عز مع زوجها العاشق قبل الزواج. تزينه ثلاث بنات بعمر الشباب، ينتظرّن مرور القطار في أحد محطات لهن لا يتوقف فيها سوى القليل. تُقدم العمة وجيهة، مساعدة لأهل البيت منذ استقرارها في أحد غرفه عندما كان حسن، الأخ الأكبر لها ظلاً وارفاً على أركانه العامرة، رافضة الزواج من شباب تقدموا لخطبتها، إثر استشهاد حبيبها الملازم صابر في معركة المحمرة عام ١٩٨٢ بعد زواج لم يدم اسبوعاً، حتى فاتها قطاره السريع، فأصبحت بعدم توقفه في محطتها العتيقة جزءاً من هذا البيت. شربت عاداته جيداً، آلت على نفسها عدم التدخل في تفاصيله، لتسهيل سير الحياة، لما تبقى من العمر الممهور بكثرة المعاناة.

حاول مازن كبير العائلة الآن، وبعد دخولنا بيته العامر ضيوفاً، أخذ الدور الذي كان عليه الأب مسيطراً قبل اعدامه بتهمة ايواء أحد الثوار العاملين في الاهوار، يتبعه عدنان التسلسل الثالث في سلم العائلة، يقلده في كل شيء، عدا المشاكسة واللهو مع طلاب صفه الخامس الثانوي. ترك

المشاكسة فعلاً مع بدء الانتفاضة مصاحباً شقيقه في أعمال القتال ضد قوات الرئيس، رغبة منه مثل رغبة أخيه، أخذ الثأر المتبقي تحت وهج الذكريات لمقتل والدهما غلاً دون مقدمات.

وقف أهل البيت على أقدامهم، خلية نحل مَلكَتِها ناصحة، احتراماً لضيفهم وتقديراً له، بطلاً ترك الرئيس، التحق بالثوار مناصراً لتوجهاتهم في اسقاطه. هكذا هي الاشاعة التي سرت بين أهل المنطقة، وعموم سوق الشيوخ بعد أخرى سبقتها، عدته جاسوساً مساعداً لوزير التصنيع، كادت تحشره ميتاً مع أعوان الرئيس. يسعون بوقفتهم اتمام مستلزمات الضيافة، كما هي عندهم ريفيون اعتادوا اكرام ضيوفهم من أي مكان يقدمون.

في خضم إجراءات الضيافة انفردت رسمية الأبنة الثانية في التسلسل العائلي بعد مازن بالآنسة شيماء في الغرفة العائدة لها، ضمن غرف أخرى في الطابق العلوي من البيت، احتفت بها دون غيرها من البنات. حاولت اقتناص فرصة السؤال عن بغداد والحياة والشباب وقضاء الوقت وأخبار السينمات. وقفت منزعجة عندما علمت بانتهاء عهد السينمات التي لم تشبع من الفرجة على أفلامها العربية، وحلول عصر الفيديو، وافلام خاصة تُجلب الى البيوت. ركزت في حديثها على الزواج والحب غير المسموح به في سوق الشيوخ. نزلت مسرعة على صوت الأم تناديها بقصد المشاركة في نصب مائدة العشاء.

مُد العشاء على بساط ملون من النايلون قريباً من انتصاف الليل، الضيف المحتفى به ورجال أهل البيت، وسطهم السيد قاسم، يبارك

ويشيد بمازن وعائلته المعروفة بالضيافة، يستذكر شهامة والدهم ومناصرته الثوار، واستشهاده من أجل قضيتهم، حاول الايحاء بوجود الوالد ضمن تنظيماتهم السرية لحزب الثوار الاحرار، تعهد بتكثيف الدعاء على روحه الطاهرة، تمنى دخوله الجنة من أوسع أبوابها، واعداً بتسجيل أحد شوارع سوق الشيوخ باسمه اللامع، تخليداً لذكراه.

بساط آخر للعشاء في مكان آخر من البيت نُصب للنساء، وقفت على حافته أُم مازن ومساعدتها العمة وجيهة يصدران الأوامر، ضرورة تناول كل الطعام المطروح على البساط جزءاً من الخروف المذبوح إكراماً لضيوف أعزاء. هكذا انتهى اليوم بأحداثه المتناثرة متأخراً عن المعتاد. المعتاد هنا في هذا البيت وباقي بيوت سوق الشيوخ التوجه الى النوم مبكراً. الظروف لا تساعد على التأخير، فالتيار الكهربائي مقطوع، وأصوات الرصاص رشقات تسمع بوضوح. خلدوا جميعاً الى النوم، الا رسمية، بقيت محاولاتها سارية لامتصاص المعرفة كاملة عن أهل بغداد، وبنات بغداد، وسبل العيش والعلاقات، وكذلك مازن المشغول بالاعتذار عن الشك الذي وجههُ جزافاً، وما آل اليه تهماً كادت تقدم ضيفه الى الموت المحتوم.

غيّر نبرة الحديث ووقعه من الاعتذار المتكرر الى الرغبة في استيعاب تفاصيل القصة الكاملة لسجن أبو غريب، بعد ان وجد رغبة في داخلي لسرد وقائعها كمن يريد تفريغ وعاء مملوء بالسم الانفعالي المكبوت لست سنوات.



بدأت بإفراغ المكبوت أو جزء من المكبوت مع انتصاف الليل، لكن المكبوت في العقل الموجوع كثير لا يمكن افراغه بجلسة واحدة، ولا حتى بعشر جلسات، لذا سار المنحى باتجاه ترك التفاصيل، وعذابات الجوع، وموت الزملاء، والتمسك بحال البقاء في وضع التعري لستة أشهر متواصلة، عندما أمر چاسب وعلى وفق أمر تسلمه من لامع، ضابط أمن الجهاز خلال زيارته القاطع صباح اليوم أن نبدأ يومنا بالتعري، كانت الصدمة التي تسببها أول يوم تعرٍ لا توصف، حتى أني كتبت على الحائط بأظافري، أخشى الموت عارياً.

كان يوم شتاء، برده قارص، وقف فيه چاسب والحراس على جنب، يتفرجون علينا عراة ونحن نرتجف برداً وحياءً، لا نعرف ماذا نعمل، كأننا فقدنا السيطرة العقلية على حركة أجسادنا العارية لفترة وجيزة في مشهد درامي محبوك الإخراج. وكان الأسبوع الأول هو الأقسى على النفس الغائصة في عتمة الحياء، الى أن بدأ الجسم يقبل شكل التكيف قليلاً الى برد الشتاء، والتحرك كثيراً لاكتساب الطاقة، والابتعاد عن احتمالات الموت انجماداً بعد ان ذاب الشحم في الأجساد، وبقيت الجلود ملتصقة بالعظام والعضلات. لقد استمر وضع الايادي على الاعضاء التناسلية لعموم ذاك الأسبوع، حتى أعتاد الجميع رفعها والتجول تكيفاً لنوع جديد من الحياء، وأستمر الخفراء والحراس من جانبهم يتمتعون بالمنظر غير المألوف لما يقارب الأسبوع، حتى اعتادوا هم أيضا على الأمر بشكل مألوف.

أسبوع التعود القسري المحزن انتهى بوقع سريع، ابتكر من بعده

چاسب بعد تعيينه رئيساً للحراس، طريقة تعذيب تنسجم وحالة التعري. جمعنا في الساحة المغلقة، هجم ومن معه بالهراوات وأنابيب المطاط على أجسادنا العارية، انهالوا ضرباً على كل بقعة جلد لم يحتبس فيها الدم الأزرق بعد، حتى تكورنا جميعاً في زاوية، بدأنا نتدافع الواحد مع الآخر، نتنافس فيما بيننا على تفادي الضربات، لم يكن أحد منا مهتم بنزول العصي والأنابيب على غيره وإن كان أعز صديق، الروح في تلك اللحظات أبدى حقاً من الصديق.... يا لها من لحظات تعيسة، تكونت نتيجتها كتلة أجساد منحنية اختفت وسطها الرؤوس، ظهرت في حافاتها الخارجية المؤخرات في وضع يثير الاشمئزاز، تلذذ بمنظره الحراس الى المستوى الذي زيّدوا فيه الضرب على تلك المؤخرات، حتى نزلَ منها الدم بغزارة، يشتهونه لإشباع ساديتهم المستثارة.

عند هذا الحد بت أتلوى في مكاني من بؤس الذكريات، وصوتي قد تغير كما لو انه ليس صوتي، وانما صوت شخص آخر حزين أحمله في داخلي، فتوقفت قليلاً عن الكلام، وعدت الى ما بدأته مسترسلا في رواياتي، بالقول، تخيل الألم الذي يحسه من يضعوا قطب التيار الكهربائي على أذنيه مرة، وعلى مقدمة عضوه التناسلي مرة أخرى، وتخيل الحيرة عندما يطلبوا منك اختراع قصة جنسية أنت طرف فيها، مدعومة بالتفاصيل والحركات، بعض منا أخذ النضال من أجل الحزب جل وقته فلم تكن له قصص جنسية، ولم يشفع له النضال، فبرع باختراع قصص ومواقف جنسية أكثر حبكة من تلك الروايات الجنسية الجريئة التي كتبت بأقلام نسائية. أمر يصعب تخيله. آه كم كان مؤلماً، إذ وقبل

أن يتمكن الواحد منا من تماسك نفسه، واكمال قصته الوهمية، يسارع الحارس بفتح التيار الكهربائي وغلقه، ليكون ألماً أستطيع القول أنه أكبر حقاً من عذابات القبر التي تخيلها المتدينون للكفار. أقولها بصراحة لقد فضلت في حينها عذابات القبر على ألم التيار الكهربائي، ونسيتُ آنذاك نعمة الدفء في زمهرير الزنزانة الذي لا يوصف، ونسيت التجمع حول المدفأة النفطية، علاء الدين، ومواقد النار عند أهلي في قرية الجمجمة. كان حلول الليل في تلك الشتاءات ايذانا بيوم الحساب، والسقوط من على الصراط المستقيم الى جهنم نارها نوع من الصقيع. إنها كانت مختلفة، جهنم التي عرفتها وهج من نار، كنت أتمنى هذا الوهج من النار لتفادي لسع الزمهرير، خاصة عندما أقف على قدم واحدة وسط الزنزانة المليئة بماء تقترب درجة حرارته من الانجماد، وأحس الهواء فيها وكأنه مصنوع من قضبان الحديد، عندها تراودني رؤى تتقافز فيها جثث من قوم عاد وثمود، وجرحى حروب مشوهين، وتمائم على شكل ثعابين ذات أجراس، فيتهدل رأسي مثل مريض مخدر لا يقوى على رفعه من على طاولة العمليات. أتذكر الدثار الذي كان يلفني والحبيبة فتزداد حاجة جسمي الى الدفء وأصاب بالغثيان، وأفقد السيطرة على ذاتي المتجمدة، وفي بعض المرات تسوء الحالة حد الهذيان، والتباس التخيل. في إحداها تخيلت، جنياً بعمر الشباب يسكن معنا في الزنزانه، كلمته فقال عاقبني كبير الجان بالعيش في زنازين البشر، حاول مضاجعة صاحبي عندما غط في النوم، فخفت حقاً حتى فارقني النوم، وفي أخرى تخيلت كتابات على حائط الزنزانة الأمغر القاتم، تلعن الرئيس، وعندما سألت حليم

فيما اذا كان يراها هو الآخر، زيدت مخاوفي إجابته عندما قال، من يكتب هنا وفي هذه الزنزانة بالذات أحد الذين صُلبوا فيها من قبل.

لقد هرب مني الوعي مرارا في ذلك الشتاء العاري، وعاد لي عندما تخيلت كوب من الشاي يتصاعد من فوقه البخار، أشعرني وقتها بقليل من الدفء الكاذب اعاد لي وعيي، مع هذا ليس كل مرة يعاد الوعي بهذه الطريقة، ففي احداها كدت أتجمد، لولا أنتباه سمير على صوت ارتطام رأسي في أرضية الزنزانة المبللة بالماء الثالج، وقيامه وحليم بإفاقتي وتحريك ساقاي ويداي، واجباري على التحرك حتى ارتفعت حرارة جسمي، وعاود سريان الدم في أوردتي والشرايين. انها أيام لا تنسى ولا يمكن أن يطويها النسيان.



استمر مازن يسمع رواياتي بشغف كبير. سأل عن بعض التفاصيل كأن في أسئلته المتوالية محاولة جادة، لمعرفة أوليات السجن الخاصة بوالده، وفيما إذا مر بالخبرة المؤلمة نفسها، لان أقاويل تسربت عن سجن له تم في قاطع الاحكام الخاصة قبل اعدامه، واختفاء سره الى الابد. ولما أدرك كونه قد اكتفى ببعض التفاصيل، استفسر عن أي صبر هذا الذي أبقاني دون تنفيذ خطة الهروب الى هذا اليوم، وسأل:

- ألم يكن الهروب مفروضاً والعائلة منذ الأيام الأولى للخروج من السجن؟.

قلت:

- كان الرئيس شكاكاً، عمل على قتل الحمداني أقرب أصدقائه وغيره آخرين، وهو إن تراءى الى سمعه بأن حزبياً او انساناً عادياً أبتعد قليلاً عن الطريق الذي رسمه هو الى الجميع، سوف لن يكتفِ بقبول الاتهام دون أي دليل، بل سيجري لاهثاً الى قطع رقبته بسيف مخذم، يرجعه الى التراث العربي والأُمة التي يريد توحيدها ولو بالسيف. كان مرتاباً يعتقد أن الحزبيين نصفان، نصف له، والنصف الآخر عليه، فسخر جل جهده والأجهزة الأمنية لمتابعة النصف الآخر. مجموعتنا التي نجت من غياهب أبو غريب اعتقدها النصف الآخر، وضعها تحت المراقبة الدقيقة. كان جهاز المخابرات يحصي علينا أنفاسنا، يتابعنا حتى في غرف النوم، إذ وبعد أن صادروا بيوتنا التي كانت في معظمها متوزعة على مدينتي اليرموك وزيونة، وزعوا علينا شققاً حكومية في الطالبية. وفي أحد الأيام، وبينما كنت عائداً اليها بعد انتهاء الدوام الرسمي في المؤسسة، وجدت عمال من البريد يقفون في باب الشقة، يقومون بنصب هاتف لها أرضي، وأنا لم أطلب هاتفاً أرضياً، ولا حاجة لي باستخداماته، لأني فقدت السمع يوم خرب چاسب طبلة أذني، وتسبب في وجود التهاب مزمن الى هذا اليوم، حتى اذا ما دخلت قطرة ماء في احداها يكون ذاك اليوم أشد ألماً من هراواته المعروفة بشدة أذاها، على هذا لا ينفعني الهاتف الأرضي، كما لم أفكر به في الأصل خوفاً من استخدامه للتجسس عليّ. لكن العامل الذي يعمل في المخابرات، أشار الى أهمية الوظيفة التي أشغلها قائلاً:

- أنك شخص مهم، ومؤسسة الكهرباء كذلك مهمة، وبالتالي سيحتاجون اليك في أي وقت، واذا ما حكمت الحاجة في أي وقت من الليل أو النهار كيف لهم أن يجدوك؟.

وبعد أن أتم مقدمته شبه التحذيرية هذه، طلب مني إخباره فيما اذا كانت هناك وسيلة للاستدعاء عند الحاجة غير هذا الهاتف. وأضاف فوق هذا وذاك فان المؤسسة هي التي طلبت نصب الهاتف، رغبة منها في الاتصال بموظفيها المهمين متى أرادت. ثم سأل فيما اذا كنت راغباً الاطلاع على طلبهم؟. وأشار الى جيبه تأكيداً على وجود الطلب. أجبته يومها بالنفي، وانه صادق فيما يقول، فدخل الهاتف الى بيتي آلة تأكدتُ أن لاقطة للصوت وضعت داخلها، كانت تنقل كل تفاصيل عيشنا، وهنا سألت:

- هل تعتقد أن شخصاً يُراقب بهذه الطريقة، سيكون قادراً على تنفيذ خطط الهروب في الوقت الذي يشاء؟.

وسأل مازن:

- وهل كنت وحدك مقصوداً بالمراقبة؟.

فأجبت:

- لا لم أكن وحدي، اذ وعندما خرجت لزيارة شكري صديق عملي، وزميل سجني في سكنه بالعمارة المجاورة مساءً، طلبت منه المشي قليلاً لقضاء الوقت في الشارع القريب، وعلى وقع الخطوات تكلمنا عن الهاتف، فتبين أن عمال البريد قد نصبوا في شقته هاتفاً من دون أن يطلبه هو أيضاً، وقد نصبوا للزملاء الساكنين جميعاً في هذا الحي والأحياء

الأخرى، عندها تأكد الشك الذي دفعني للتفكير بالهروب بتأن وتخطيط محكم، وجاءت الفرصة الآن مع وقع الحرب والانتفاضة، عسى اللّٰه ان يتمها بخير.

❖ ❖ ❖

بدأ الصباح يشق نوره فاتحاً أبواب الأمل من جديد، في يوم جديد، كنا فيه ضيوف سوق الشيوخ. أُعدَ طعام الفطور لبناً خاثراً وزبداً محلياً، وبيض أوز طازج، وحليب هو كذلك طازج، وخبز من التنور حار، بعد انتهائه مباشرة أستأذن مازن الذهاب الى الناصرية في مهمة قتالية كلفه بها السيد قاسم، وأبقى عدنان مسؤولاً عن الضيافة، حثه بصيغة الأمر على تلبية الطلبات التي نريدها ضيوف أعزاء. استوقفته والدته قبل خروجه من الباب، راضية بل فرحة بالمهمة. تفحصته أعجاباً واعتزازاً به، ولدٌ يَسرُ والده شهيداً يرقد في قبر تنيره الملائكه، من ظلمة واقعٍ كوّنها الحكم القائم في بغداد. سألَتهُ عن السلاح الذي يحمله على كتفه العريض.

قبّلَ يديها وقال:

– قاذفة روسية (RBG7)، كما ترين.

أجابت بعتب:

– أعرف كونها قاذفة، وأعرف حتى اسمها وجهة صنعها، ثم سألت:

– ألا أتعلم يا ولدي أن السبب الذي أعدم على أساسه والدك

المرحوم؟.

- وما هو السبب يا أُمي العزيزة؟.

كان سؤاله فيه قدراً من الاستغراب، لأنها لم تتطرق الى الموضوع منذ اختفائه وحتى هذه اللحظة، كأنها تتجنب عمداً، لكنها أجابت أخيراً بعد أن تخلصت من قيود التكميم، قالت بآهة كئيبة:

- لإخفاء قاذفة من هذا النوع، في هذا البيت الذي نسكنه، وتحت تلك النخلة بالتحديد. لو كان في هذه النخلة روح ادمي يا ولدي، لشهدت أن القاذفة تخص أحد المقاتلين الآتين من الهور، لا نعرفه وليس لنا علاقة به، جار بنا مضطراً فأجرناه. مكث متخفياً ليلة واحدة، خرج في اليوم التالي قبل أذان الصباح، وتركها مخبئة في ذاك المكان، وعندما جاء شخص آخر لاستلامها بعد أيام، حسب كلمة متفق عليها ألقيَ عليه القبض وهو في الطريق، ومن شدة التعذيب أعترف بالقصة كاملة، وزاد عنها انتماء الوالد لنفس التنظيم.

أخذت نفساً يعبر عن حسرة وأكملت:

- أقول هذا يا بُنيّ وعلى الرغم من انقضاء سنين على هذه الحادثة، الا إن صورة القاذفة ما زالت في عقلي، مثل نقش على حجر، لا تزيله عوامل التعرية، ولا تخفيه تقلبات الزمن.

تَوقفتْ عن الكلام فجأة، وسألت مستغربة، لم تحمل صاروخين مع هذه القاذفة؟، سألت وهي تستحم بدموعها، كيف تأمن لنفسك حملها هكذا؟، وكيف تتصرف بعد نفاذ الصاروخين؟، وماذا تعمل في حالة الاشتباك القريب؟. وأجابت في الوقت نفسه، ستصبح القاذفة مجرد

عصا، لا تنفع.

نشفت دموعها وقالت قف مكانك، ثم ذهبت الى غرفتها، أخرجت بندقية كلاشينكوف بثلاثة (شواجير) محشوة بالعتاد الروسي الاصلي، وبعد ان عادت الى الامساك بخيط حديثها قالت بصوت أرادت سماعه من قبل الضيوف، وكأنها تريد اثبات شجاعتها عامل تقدير آخر لشخصها يضاهي الضيافة التي عرفت بها:

– خذها، احملها مع القاذفة، لقد أخذتها من مركز الشرطة عندما شن الثوار هجوماً عليه، كنت أحسب هذا اليوم وأيام أخر، لا نعلم ما يخبأ لنا القدر فيها. تنهدت بأسى، وضعت كف يدها اليمنى على كتفه، وأكملت القول:

– دم والدك عزيز عليَّ.

وضعت البندقية على كتفه الفتي، فتزين بها وكأنه كان محتاجاً لها ليتزين، ثم ربتت بحنو على الكتف الذي تعلقت به البندقية، وقالت:

– هذا هو يومها.

وقفتُ مبهوراً لمشهد حوار لامسته عن قرب، حيرتي كانت لجرأة أُمٍّ تدفع ابنها صوب قتال غير مضمون النتائج. قارنتها مع باقي الامهات اللواتي يخفين الابناء في مثل هكذا مواقف، وعندما تنبهت الى حيرتي، حاولت حسم الموقف بقولها:

– ان الشباب تربوا لهذا اليوم. واردفت قولها بسؤال، لمن نريد الشباب؟.

انقضى اليوم، عاد مازن الى البيت في نهايته، حكى قصة قتال دام

الى وقت العصر، فيه هجوم على وحدة عسكرية من المشاة، كانت تتنقل من الناصرية باتجاه الكوت، لم تقاوم سوى دقائق، أستسلم ضباطها والجنود، لكنه كقائد لمجموعة الهجوم أطلق سراح الجميع، حرق السجلات، طلب منهم ترك وحدتهم، والتوجه الى أهاليهم مشياً على الأقدام، تذكر خطأه بالأمس، وتصرف هذا اليوم بشكل مختلف، أثمر تصرفه عن التحاق ضابط، وخمسة جنود الى صفوف المنتفضين.



حل اليوم الثاني هادئاً بلا قتال، ولا واجبات خارج المنطقة، عرض مازن خدماته مرافقاً في التجوال، وعوناً في مسعى العثور على السائق السابق عودة محمد شنيار في قرية الكرمشية التي لا تبعد كثيراً عن سوق الشيوخ، فقصدناها سوية بعد اتمام الفطور، قيل عنها جميلة تلفها بساتين، وحقول حنطة تنتصب سنابلها خضراء، ينتظر أصحابها قرب اليباس لحصادها، وتهيئة الارض من جديد لزراعة رز من نوع العنبر تشتهر به المنطقة. قطعنا معاً طريقها الترابي بسيارة الفولفو، كانت على جانبيه وقريبة منه نخيل، كأنها متلفعة بعباءة الشفق، وكأن فسائلها تركض مسرعة للحاق بالسيارة. بضعة لقالق مهاجرة، ومثلها من الأوز العراقي تحلق منتشية فوق السيارة. أوقفتنا مراراً جماعات تحمل رايات عشائرها العريقة، تطلق نيران بنادقها في الهواء دون تحسب لنزف العتاد، فالعتاد وفير من مخازن الجيش التي استبيحت بسهولة في وضح

النهار. تجمهروا في بستان الحاج محمد، يلقون الشعر الشعبي، يطلقون الاهازيج، يدبكون بوقع الناي، يهيئون أنفسهم الى قتال قوات الرئيس في سوح، لا يعرفون مكانها.

أطل وجه من وسطهم له سمرة ليل، نادى بأعلى صوته:

- من القادم الينا؟. أراه أبو شيماء، عينيَّ لن تخطئه مهما طال الزمان.

ألتفتَ الى من حوله، أعاد المناداة بصوت علته رشقة رصاص من بندقية كان يحملها، تبدو وكأنها مأخوذة تواً من العسكر المنسحبين قائلاً:

- هذا هو اللواء أبو شيماء، سجين الرئيس، ها هو بيننا الآن.

دوى الرصاص رشقات في سماء بات العتاد المذنب يتقاطع في أعلى جهتها الشرقية، كأن الجموع في كرنفال احتفالي بمناسبة وطنية.

تعاظم التكبير، خفتت أصوات الحشد، توقفت الاهازيج، أنقطع الرمي. تبين وجه المنادي، رزاق شقيق السائق عودة. تقدم راكضاً باتجاه السيارة التي تم الترجل منها، أخذنا بالأحضان، ومن النظرة الأولى أدرك بالفطرة الريفية الحصيفة غاية المجيء الى هذه القرية النائية في هذا الوقت الصعب، استفساراً عن شقيقه عودة، فبادر بالإخبار عن فقدانه في حفر الباطن. لعن من كان السبب بطريقة فهمها السامعون قاصداً الرئيس. فقلت:

- كيف؟، ألم يأتي خبر منه عن طريق المعارف أو الأصدقاء؟.

فأجاب دون الحاجة الى التفتيش في خلايا العقل من أن الرواة قد

اختلفوا في موضوعه، بعضهم قال تم أسره، وأرساله مع عسكريين آخرين الى السعودية، والبعض الآخر أشار الى استشهاده في طريق الانسحاب مشياً على الاقدام، توقف ليسأل:

– ألا تعلم أن الجيش الذي كان في حفر الباطن وفي الكويت قد انسحب أفراده مشياً؟. كانوا يسيرون وقد أرهقت نفوسهم الخيبة، فهم لم يقاتلوا بالأصل، لقد أسموا طريق انسحابهم بطريق الموت، لكثرة من ماتوا عليه من قنابل الحلفاء ومن التعب ومن الخيبة. لهذا لم يعد لنا من خيار سوى الانتظار، الموقف سيدي لا يحتمل الحزن، قتال من كان السبب يمحي الأحزان.

الجميع هنا حضروا مشياً من تحت الرايات المرفوعة، متأهبين للقتال، وكأن الواحد منهم قد أخذ جرعة معنوية من راية عشيرته وباقي الرايات، وحشود لها بداية وليس لها نهاية، ووقع الاهازيج وأزيز الرصاص.

انتهى المشوار، والسائق عودة لم يكن موجوداً، والعود الى منزل الضيافة في سوق الشيوخ بات لازماً، لم يكن هناك غيره من أهل المنطقة قادراً على تقديم المساعدة التي أريد، ولم يكن هناك أمل في العثور عليه بين المفقودين. شعرت بنوبة احباط تملكتني من هذا الفقدان، وفشل التعويل على المساعدة في عبور الصحراء. لابد والحالة هذه الاعتماد على الذات الساعية الى تحقيق أهدافها في العبور، الى عالم ما بعد الحدود مهما كان الثمن.

طريق العودة كان مكتظاً بالخطى المتعثرة للماشين، قسم باتجاه

القتال، والقسم الآخر هارب من ويلاته. حاول مازن وسطهم استغلال الدقيقة التي تمر من أجل الاستزادة بما يروى عن آلام السجن، ومعاناة رجال حسبوا من أهل النظام.



قتلة الشيطان

أطل وجه له سمرة ليل الأهـوار، كان شيخاً وقوراً بوجه فيه مسحة شباب عالقة حتى الآن، تبدو على سحنته سيماء التقوى، ولحية كثة مدورة بيضاء بلون القماش الذي يرتديه قميصاً تحت زبون رصاصي. يتدلى من على جنبه مسدس ألمـاني، العقال ومـن تحته (اليشماغ) جنوبيان، يخفيان لون شعره الأبيض. قالوا أنه الشيخ الريسان، عرفه أهله شجاعاً، يقدرون وقفاته معهم أيام الشدة، وبعد ان سلم وهو ماشٍ في طريقه داخل الحسينية، جلس في مقدمة الجالسين شيخاً، فهو كذلك ابن شيخ. نَظرتُ اليه ملياً فوجدت أنه بلغ من الوقار عمراً، أصبحت فيه متعة الاستماع اليه تفوق متعة التكلم معه، وانتظار ما يقوله أكثر زهواً من زهو انتظار الأشياء. المترددون معه ومع غيره أعداد كثيرة، ثوار قادمون من القرى وأطراف الهور، يحملون سلاحاً ورثوه عن الآباء، وآخر أخذوه من مخازن للجيش تركها حراسها، فانفتحت أبواب مشاجبها مرحبة، يسعون جميعاً الى مقاتلة الرئيس، عدوهم الأول ومن بعده الحزب الذي يديره. اعتقدوا غالبيتهم أن الفرصة مواتية، إثر غياب السلطة عن الأنظار، بعد أن تبخرت بفعل الصدمة التي كونتها خسارة الحرب

في الكويت. أسئلتهم لثلاث أيام بلياليها، صباحاً وكذلك في المساء عن المستقبل والدولة، أما السيد قاسم، فبات يأخذ الرأي مني في كل المسائل القتالية، حسبني المستشار العسكري الأقرب الى الانتفاضة، أو له شخصياً باعتباره أحد قادتها المهمين، وباعتباري ضابط كبير، وسياسي معروف وسجين للنظام أصبح معروف، بعد زوال غبار الشك من على هيئته العامة.

في الدقيقة التي تمر تدخل جماعة دون أن تخرج أخرى، آخر جماعة حضرت لهذا اليوم كانت تلك القادمة من ناحية النصر، اقتربت بسلاحها لاهثةً، دخلت المكان وهي تهزج للانتفاضة. رحبَ بها السيد، شد على أزرها قوة إضافية سيكون لها فعل التأثير العظيم في مجريات الانتفاضة، وتحطيم عرش الرئيس. جلس أفرادها في اماكن نهض منها آخرون جاءوا من قبلهم فاسحين لهم المجال، وحال جلوسهم، بدأوا في تبادل الحديث مع من سبقهم. سألوا عن الموقف القتالي، فأوكلت لي صلاحية الاجابة، وهكذا أصبح الايضاح سياقاً اشبه بالمستمر لمن يأتون على شكل جماعات، حتى تسلل الملل الى داخلي من فرط التكرار. أول ما أبدأ به الايضاح اشارة الى المعنويات العالية للثوار، وأعداد المقاتلين التي تتزايد كل يوم، والى المخاطر المحتملة... هجوم قد يشنه الحرس الجمهوري من محورين، أولهما من اتجاه الكوت - الناصرية، سوق الشيوخ جنوباً الى البصرة، والأخطر منه الآتي من حافات الصحراء، باتجاه السماوة - الطريق السريع، إذا ما وصله، سيفرز قوة باتجاه سوق الشيوخ ويستمر باتجاه البصرة.

في كل مرة يتم التطرق بها الى هذا الهجوم المحتمل، ينكسر الصمت بسيل من الاسئلة التي تعبر عن كم القلق الموجود في النفوس، لكن انكساره هذه المرة جاء من صوت في آخر الصفوف، علا كل الاصوات، قدم نفسه العريف حميدي ترك لواءه العشرين أثناء انسحابه القسري من حفر الباطن، قال بصوتٍ عالٍ فيه حدة الواثق من القول:

- هذا كلام غير دقيق. الجيش منكسر يا سادة، والحرس الجمهوري مشغول بحماية الرئيس، ثم ان بغداد ستسقط بيد الثوار هذه الليلة أو التي تلي على أكثر تقدير، كما قال لي صديق جاء منها هذا الصباح ماراً بسوق الشيوخ في طريقه الى البصرة. استنتاجك سيادة اللواء بعيد الاحتمال. الحرس الجمهوري قابع في ثكناته يخشى الخروج منها. ما تقوله كلام نظري.

انكسر الصمت مرة أخرى. وانقسم الجمهور في جداله فئتين، بل أكثر من فئتين، مؤيد لقول العريف، ومعارض لجرأته في انتقاد ضابط كبير بهذه السذاجة، وثالثة هي الأكثر عدداً «أولئك الباقون» على الحياد بين الفئتين، ينتظرون غلبة احداها ليكونوا معها على الفور. وعلى إثرها تزايد وقع الضجيج، واقترب العقد من الانفراط، ونهض السيد من مكانه متجهاً لاعتلاء المنبر بالاستفادة من سلطته الروحية في التأثير على المتلقين. أشار بكلتا يديه الى الجمهور، إشارة السكوت، وأخرى رد على قول العريف حميدي بالقول كل شيء ممكن، وكأن الشك قد تسلل اليه ثانية، أو إنه هكذا في أوقات الانفلات يلجأ الى سلطته الروحية، والى لغة الاشارة التي خبر ضمان تأثيرها النفسي على المتلقين. ومع هذا عاد

وأعطاني فرصة الرد، كمن لا يريد التفريط بمستشاره العسكري.

بـدأت في ردي التأكيد على أن الاستنتاجات الـتـي قدمتها قبل قليل، بنيت على مشاهدات من قبلي لجماعات استطلاع من الحرس الجمهوري، كانت تعمل على محور الكوت - الناصرية. وأعدت التأكيد على أن هذا قد حصل قبل ثلاثة أيام، بالإشارة الى مبدأ عسكري قوامه عدم الاستخفاف بالعدو. عند هذه الاشارة زاد في مشاعري الحماس، فوجدت نفسي كمن يلقي خطبة عندما قلت:

- ان عدوكم وعدونا أيها الأخوة معروف بعناده، وقدرته على تعبئة الرجال، آلاف الرجال بقليل من الساعات. انه يمتلك أسلحة ومعدات مُخزنّةٌ في مواقع خاصة تكفيه قتالاً لستة أشهر، ثم ختمت قولي بأن الحرس الجمهوري لم يزجه الرئيس في قتال الحلفاء، أحتفظ به احتياطي استراتيجي ليستخدمه بالضد منكم منتفضين، كأنه يتوقع حصول الانتفاضة.

لا أتفق معك، قال العريف وكأنه يريد الاستمرار في السجال، ثم اردف:

- أعيدُ وأكرر أن هذا كلام نظري، اعتاده الضباط في المواقف الصعبة. بغداد ستسقط بيد الثوار هذه الليلة أو التي تلي على أكثر تقدير، هذا ما أكده الصديق الذي مر بيّ هذا الصباح كما قلت قبل قليل.... عن أي هجوم تتكلم سيادة اللواء؟.

تعمدتُ حرف السجال، ووضع العريف في حرج، فقلت:

- أرى من الضروري إرسال جماعة من الشباب الشجعان المجربين

بقيادة العريف حميدي، لاستطلاع طريق الكوت الناصرية، بغية التأكد من صحة الاحتمالات الخاصة بالهجوم.

لقى المقترح ترحاباً من السيد قاسم الذي نادى في طلب مازن، الشجاع الذي أثبتت الأيام الأولى للانتفاضة ذلك. ناقشه بأمر الشباب الممكن اصطحابهم معه في مهمة الاستطلاع بقيادة العريف حميدي. وهو كذلك يشرح، التفتَ صوب العريف، ساعياً إبلاغه استعداد الشباب تنفيذ المهمة بقيادته اعتباراً من هذا المساء، فتبين له أنه غير موجود.

قال عنه القريبون من مكان وقوفه، أنه قد تسلل من بينهم منسحباً لا يعرفون وجهته، يعتقدون أنه جبان، وقال آخرون، لقد شاهدوه مصمماً على إجراء الاستطلاع لوحده، وإنه سيعود، في الوقت الذي استنتج آخرون بالقول أنه مندس من قبل الاستخبارات العسكرية ليشيع الفوضى وسط المنتفضين. وبين أولئك القائلين وهؤلاء المستنتجين قال فريق آخر، أنه استعراضي مهرج، حاول ركوب الموجة من أبوابها الأمينة مثل غيره الكثيرين.



فرقٌ قسمها النقاش العقيم زادت عن الثلاثة، وكاد الأسلوب المتبع لتأكيد الذات الشعبي بادعاء المعرفة أن يحدث بينها ضغينة، لكنها لم تحدث، بل وانتهت حال توقف النقاش عند دخول القطان والدكتور مهند أستاذ علم النفس في جامعة البصرة، الابن البار لسوق الشيوخ، المعروف

بحسن علاقاته، وامتداد انتمائه الى أكبر عشائر المنطقة. وهم كالمعتاد اتجهوا في السلام على السيد، ثم من بعده أنا الذي أخذت الموقع الثاني، وعندما لم يجدا مجالاً لاستمرار الحديث بسلاسة لكثر الصخب وعلو الأصوات، أقترح مهند خروجنا لغرض المشي، بحجة الرغبة في الحصول على نسمة هواء نقي تصلح للشم، بعد شعور داخله بالاختناق.

سألني أولاً عن القناعة بالتواجد هنا، مبيناً بالأمثلة عدم امكانية تحقيق أي شيء في هذا المكان، وقال:

- هؤلاء هم أهلي وناسي، وأنا الأعرف بطبيعة سلوكهم، وطريقتهم في التفكير، سيبقون هكذا يتكلمون ويتجادلون، وعند الفعل ستجد بعض منهم يغادرون المكان، وكأنهم غير معنيين فأجبته دون عناء تفكير:

- لكني لم أحضر الى هنا من أجل الاشتراك في الانتفاضة، بل وجدت نفسي في هذا المكان أسيراً في بداية المشوار، ثم ثائراً بالغصب فيما بعد، وخلاصة القول بصراحة إني أحاول التخلص من هذا المأزق، والاستفادة من هذا الوضع المضطرب، ومن ضعف أو انعدام سلطة الدولة لتحقيق هدف الهروب، لقد تملكني الشعور بملل البقاء قلقاً طوال الوقت.

- لكن زمن القلق قد قاربت نهايته، لم يبق من زواله الى الأبد غير القليل، لابد والحالة هذه العمل جدياً لتسريع هذا الزوال، ثم أن الحدود يا سيدي لن تذهب بعيداً، ستبقى ماثلة في مكانها، وسيبقى الوصول اليها من هنا أسهل الخيارات.

- كلامك مبهم، هل لك ان توضح ما تريده بالتحديد؟.

- لقد شاركت في انتفاضة البصرة التي نجحت في انهاء سلطة

الرئيس في ربوعها كافة، وجئت هذا اليوم لأشارك مع أهلي في انتفاضة الناصرية، عرضت الأمر على الشيخ الريسان فأيدني بشدة، وأقترح عرض الموضوع عليك، لكن الحال الذي شاهدته هنا أقصد في الحسينية لم يعجبني، كأن الجميع في أعياد شعبية، وليس قتال شخص لديه الاستعداد لفعل أي شيء من أجل المحافظة على الحكم.

هززت رأسي متفقاً معه، وكذلك فعل الريسان، الأمر الذي شجعه على الاستمرار في خطواته بالكلام الى الأمام قائلاً:

- ما علينا إذن سوى وضع الأيادي مع بعضها البعض، والتوجه الى تشكيل جهد عسكري معارض للنظام، تقوده أنت كضابط محترف. «هنا أشر بيده اليمنى إلى جهتي، وكأنه يحاضر على مجموعة طلاب»، وأكون فيه مسؤولاً عن تعبئة العسكريين الفارين من وحداتهم، وكذلك يفعل الريسان والقطان، أنا من جهتي سأجلب لك في اليوم الواحد ما لا يقل عن خمسمائة عسكري.

- من أين لنا السلاح، والعتاد والقيافة العسكرية، أراك تُبسط الأمور، وكأننا في أحراش بوليفيا زمن جيفارا. المسألة ليست هكذا في العراق.

رد بالإيجاب، قائلاً:

- نعم انها ليست هكذا، وبالتأكيد هي ليست هكذا، لكن علاقاتي الاجتماعية، والعشائرية هنا تتيح لي فرصة التأثير على الشباب، وسترى مئات بل آلاف سيأتون بسلاحهم ولباسهم العسكري بين يديك، دعنا نجرب. ما الخسارة في التجريب؟.

لم يدم الوقت إلا ساعات، وكانت المدرسة الابتدائية لسوق الشيوخ مقراً

لهذا الجهد العسكري المقترح، وغرفة المدير موقعٌ للقيادة والحركات.

في صباح اليوم التالي تجمع أول مائتي مقاتل بسلاحهم، ولباسهم العسكري. قليل منهم جاء معتمراً بندقية بلباس مدني بسيط. ثلاثة يحملون قاذفات (RBG7). واحد فقط جاء ومعه هاون ستون مليماً دون قنابر. فأصبحت باحة المدرسة ساحة عرضات، يقف على أرضِها المتجمعون بالنسق الثلاثي.

رَحبتُ بهم أولاً، وأشاد الدكتور بشجاعتهم ووطنيتهم أبطال، مُضَحينِ من أجل العراق. ومن ثم انتقلنا الى الجانب العسكري، إذ لا وقت لدينا للتأخير، سألت إن كان من بينهم ضباط، فتقدم شاب في العشرينات من عمره، عرّفُ عن نفسه الملازم كريم من صنف الهندسة الآلية الكهربائية، ووقف جانباً، طلبتُ من ضباط الصف التقدم خطوة الى الأمام. فتقدم عشرون ضابط صف برتب مختلفة.

بدأت وإياهم تقسيم المتطوعين الى فصائل، على رأس كل فصيل ضابط صف. سحبتُ سجلاً جديداً من سجلات المدرسة، سلمته الى الملازم كريم لتسجيل المتطوعين حسب الفصائل، والى حين تيسر عدد كاف من الضباط سيتم تشكيل سرايا. وقبل أن يتركنا الدكتور قال، ان ما تم التوصل اليه هذا الصباح خطوة جيدة تبعث على الاطمئنان، فأيدته وكذلك فعل الملازم كريم. وطلبت من المتطوعين باللباس المدني، ضرورة بذل الجهد بغية الحصول على لباس عسكري، سروالاً على أقل تقدير، لكي نوسم التشكيل بالمهنية العسكرية.

عند هذا الحد غادرنا الدكتور، وعاد قبل مغيب الشمس ومعه

خمسمائة وخمسون عسكرياً بكامل أسلحتهم، بينهم النقيب صلاح من الفوج الثالث اللواء الخامس عشر، وزعوا مثل أقرانهم الى فصائل. اقترح النقيب توزيع الفصائل الى سرايا، وإطلاق تسمية «لواء النصر» على هذا الجهد العسكري المميز.

❖ ❖ ❖

وحدات من الجيش العراقي تتمرد على الرئيس بقيادة لواء النصر، هكذا هي الاخبار التي انتشرت في الاذاعات العالمية، وَسرت اشاعات بين الناس عن تهيؤ ضباط عديدون الى الالتحاق بلواء النصر، وعن حصول اللواء على دبابات بات يخفيها بين قصب الأهوار. حضر الريسان الى المدرسة، أي مقر لواء النصر في اليوم الثاني ومعه مائتي عسكري مسلح من ابناء عشيرته، وما زال يحث الباقين بقصد الالتحاق. كلفَ شقيقه خالد مع اثنين من أبناء عمومته بالتجوال بين بيوت العشيرة لهذا الغرض، وَعدَ بالتحاق العقيد حمزة الى هذا اللواء في اليومين القادمين، حسب اتفاق تم بينهما، سيحصل بعد توديع عائلته في الناصرية.

لقد أخذنا نفساً فيه ثقة عالية بأننا سنعمل للانتفاضة شيئاً لم يعمله غيرنا، وفي نشوة الثقة هذه وربما لتعزيزها أكثر سار بنا الحديث الى رموز الحزب وأخطائه، وكوارث حروبه، ولولاها وظلم الرئيس، لما حدثت انتفاضة وكان العراق سائراً باقتدار في طريق التطور والاستقرار. بين الريسان في مجرى حديثه أن السيد نعيم حداد عضو القيادة رئيس

المحكمة الخاصة بالمؤامرة موجود في مضيفه الآن، فتذكرت وقع المؤامرة، ومجموعتنا فيها، واختلاف العراقيين وبينهم الحزبيين في تسميتهم، متآمرون أم ضحايا تآمر، أم قرابين قدمهم الرئيس والقريبون منه لالتهام المناصب العليا في الدولة والحزب.

قلتُ ومازال السباب الجارح من چاسب ومجموعته يتضخم صداه في اذنيَّ العاطلتين، بضخامة تقترب من ضخامة الدق من على أبراج الحفر:

– كم هي الدنيا صغيرة. عالم بائس بلا أمان، أو بالأحرى، عراق هو هكذا بلا أمان. يكون الله له في العون بهذه اللحظات الحرجة.

التفتُ الى الريسان ثم أكملت قولي:

– أرجوا أن تأخذ بالك من نعيم وتجنبه الخطر، إنه وإن كان قد أصدر ذلك الحكم الجائر بحقي وباقي الزملاء، لكنه إنسان طيب، وقع في ذاك الوقت الصعب تحت مطرقة الرئيس، كان عارف حقاً استحالة عصيان أمر الرئيس، متأكد أنه سيحشر معنا في قفص الاتهام إذا ما تأخر قليلاً عن التنفيذ.



استمرت المدرسة نشطة في تنظيمها للمتطوعين، ورص الصفوف، وتهيأتهم لمرحلة قتال ندرك صعوبتها. عصر اليوم الثاني لتأسيس اللواء كان مزدحماً بتوزيع المنتسبين على السرايا، وفي نيتنا الانتقال خطوة الى

الأمام لتشكيل أفواج خفيفة، قادرة على التحرك للقتال في أكثر من مكان بغية ارهاق الجهاز العصبي لجيش الرئيس.

كان دفء الشمس لذيذاً، وقبل أن يذهب دفئها بساعة، دَخلت من باب المدرسة التي يحرسها جنديان من جنودنا المتطوعين، سيارتان، لم يستأذن أصحابها الدخول، ولم يمنعهما الجنديان، لأنهما تحملان علامات مميزة لمحطة (CNN) الفضائية الأمريكية، ولأن خلفهما حماية من ثلاث ناقلات أشخاص مدرعة نوع همر.

ترجل منها شاب بملامح غربية، ينطق العربية بضع كلمات، إعتاد الاستفادة منها في التقرب الى أشخاص، يستهدفهم في اللقاءات التي يبعثها مباشرة الى محطته في واشنطن. وجه كلامه اليَّ وأنا جالس على كرسي المدير خلف مكتب بسيط.

سأل:

- هل أنت سيدي قائد لواء النصر.

- نعم.

- جئنا من واشنطن، لتغطية الانتفاضة الدائرة، علمنا بوجود مقر لكم في هذه المدرسة، وددنا نقل حقيقته الى المشاهد، وصاحب القرار الأمريكي.

قال قوله هذا وهو ما يزال يسهب في القول لغرض التهيؤ لإتمام اللقاء، مد الفنيون أسلاكهم داخل الغرفة التي بقيت ملامحها غرفة مديرٍ لمدرسة ابتدائية. فتحوا صحونهم المطوية فوق أظهر السيارات، بدأ اللقاء بسيل من الأسئلة عن حقيقة هذا التشكيل، وهل هو فعلاً عسكري

الطابع والتوجه، وعدد المتطوعين، وفيما إذا كان بينهم أشخاص قادمين من خارج الحدود، ومدى استعدادهم لصد هجمات متوقعة للحرس الجمهوري؟.

لقد أكمل اللقاء بالوقت الذي حدده مسبقاً نصف ساعة، ثم سأل عن القيادة الأخرى في الحسينية، فسارع الملازم كريم لإيصالهم اليها.

لقد خرجوا باستعجال واضح، وكأنهم حضروا لمهمة محددة أتموها كما يريدون، وبعد خروجهم أقترب الدكتور مهند والنقيب صلاح ليسألوا، فقلت أني لم أكن مقتنعاً بالإجابات التي أعطيتها، لأسئلة وضعتها الشبكة مقننة مسبقاً، لكني لم أجد غيرها سبيلاً لتفادي استفادة الرئيس وقادته العسكريين من مضمونها.

بعد دقيقة واحدة وصل أفراد الشبكة ذاتها الى الحسينية يتدافعون مع ظلالهم، لأن نشرة أخبار العاشرة في واشنطن أوشك بثها على الانتهاء. دخل الشاب ذاته صاحب الملامح الغربية، ومعه مساعدوه وكذلك الفنيون. سأل عن القائد في هذا المقر، أشار السيد قاسم بيده اليمنى الى الصورة المعلقة خلفه قائلاً:

– إنه القائد رضوان الله عليه.

– لقد جئت الى هنا بقصد المقابلة الفورية لقائدكم، أرجو أن تدلني على مكانه بينكم، لم يبق لي من الوقت ما يكفي لبث ما يقوله على الهواء مباشرة. فأعاد السيد اشارته الى الصورة واقفاً هذه المرة ومعها كرر القول:

– سلام الله عليه، وكما قلت لك هو القائد الأعلى لنا، ولغيرنا من

المجاهدين المنتفضين.

- جئت لمقابلته. فرد عليه السيد قاسم بسؤال لا لبس فيه:

- كيف لك أن تقابله، وهو شهيد من ألف وأربعمائة عام؟. مشكلتكم أيها الأمريكيون لا تعرفون ثقافتنا، ولا نهج تفكيرنا نحن المسلمين.

- نعم ما ذا تقول؟.

- أقول لك أن قائدنا الامام، شهيد منذ ألف واربعمائة عام مضت.

لم يجرؤ الشاب على مواصلة الحوار.

لملم شتات نفسه، وأخذ كثير من الهواء المخلوط بدخان السكائر الرديئة، واتجه على رأس مجموعته ببطء نحو الباب، ومن ثم الى المدرسة التي أوقف رتله بجانبها. ترجل قاصداً إياي قائد لواء النصر، أشرَ الى صاحبه بعدم التصوير، فاللقاء هذه المرة خاص، وقال:

- عدت لأسأل عن ماهية حربكم؟.

فأجبته دون جهد لإخراج ما عندي من الكلمات:

- في هذه الحرب رأيت جندياً يسير بلا رأس.

سأل وبعد أن أرتد خطوة الى الوراء:

- من أنتم؟.

قلت بسذاجة، قتلة الشيطان.

أستفسر وهو في الطريق منسحباً:

- أين يعيش الشيطان.

أجبت أيضا بسذاجة، بيننا من الفرات الى النيل.

❖ ❖ ❖

حضر الريسان مقر اللواء في يوم وجوده الثالث، كان حضوره مبكراً على غير العادة، دخل الغرفة الخاصة بالقيادة، أي غرفة المدير، مثل واحد مهموم، قال لم يأخذ فطوره بعد. تكلم عن خطورة الموقف، وعن قيادة ثالثة للانتفاضة في سوق الشيوخ بزغت قبل شروق الشمس، شكلّها السيد حسين البنا، بعد تجميعه أكثر من مائة شاب من عمال البناء، شرعوا في أول خطوة لهم بمقاتلة قوات السيد قاسم على خزاني وقود، تركها الجيش قبل انسحابه من المنطقة، وكذلك على النفوذ.

ومن هو حسين البنا بحق السماء؟. سأل الدكتور مهند، فأجابه الريسان:

- انه الابن البكر للأسطة حسون، يعمل خَلفة في مجال البناء، يسكن مع والده في حي الوحدة، لف عمامة من أول يوم حصلت فيه الانتفاضة، يدعي أنه من جماعة الامام.

- أي امام؟.

- لا أحد يعلم.

أكمل الريسان جام غضبه، ومن بعد طلب مناقشة ما جرى وباقي التطورات الحاصلة، وتم له ذلك فالدكتور والنقيب والملازم كريم شاركوا هم ايضا في المناقشة، التي تمخض عنها أوامر صدرت بتأجيل المهام التي كلف بها الملازم كريم، لاستطلاع احتمالات حصول هجوم من جهة الكوت، وكذلك النقيب صلاح لجس نبض الفوج الثاني اللواء التسعون في معسكره المؤقت شرق الطريق السريع، وإمكانية تطوير عملية الجس هذه الى اقتحام بهدف الحصول على أسلحة وعجلات، فالموقف الحاصل

لهذا اليوم يحتّم التأجيل، وضرورة عمل وجبات حراسة على المقر لتفادي أي احتكاك بجماعة البنا.

مرت الليلة هادئة، نشاطات للبنا بعيدة عن المدرسة، تقترب أكثر من الحسينية، كمن يريد حسم الموقف التصارعي معها أولا، ومن ثم التفرغ الى المدرسة فيما بعد، لكنه ومقاتليه مَنعوا مع حلول الصباح رتل من المتطوعين العسكريين كانوا قادمين في طريقهم الى المدرسة، صادف مرورهم قريب من دائرة الزراعة التي يتخذها البنا مقراً له، أسمعُوهم بعض كلمات نقد، وتجريح للجيش الذي فرّ من ساحة المعركة مكسوراً كما كانوا يقولون، حتى سحب أحد المتطوعين أقسام بندقيته للرد قتلاً، لمن تطاول على الجيش الذي أُقحِمَ في معارك غير متكافئة، خسرها لعدم رغبته القتال الخاسر، فتدخل آخر لتهدئة الوضع، واقتراح الالتفاف من بعيد بغية الوصول الى المدرسة.

في هذا الوقت الحرج تسرب عن السيد قاسم، عدم رضاه عما يجري في المدرسة التي أخذت بعض متطوعيه من العسكريين، وقللت كثيراً من حشود كانت تقف صفوفاً داخل الحسينية وخارجها ساعية لتقديم الولاء. فتكون بسبب عدم الرضا هذا، وطموح البنا في تزعم المنتفضين، مؤشرات عراك محتمل لاحت في الأفق القريب، ليس بين جماعة البنا وبين جماعة السيد قاسم، بل وَحُشرت المدرسة طرفاً ثالثاً باحتمالات ليست قليلة، حتى أضحت التهديدات المغلفة بقدر من العتب تصل تباعاً، ومعها اتهامات تساق مباشرة من دون غلاف، اكثرها قساوة تلك التي تقول ان البعثيين يحاولون إعادة تنظيم صفوفهم في المدرسة تحت مضلة

الانتفاضة، ينتظرون الاجهاز عليها حال اقتراب الجيش من مقراتها، وأكثرها خطورة ظهور العريف حميدي في الحسينية مُرحباً به، مدعياً الذهاب شخصياً لاستطلاع الطريق الذي لم يجد فيه آثاراً لأي حرس جمهوري، ولا إشارات لنوايا هجوم، فعززت عودته الفكرة التي جاء بها من قبل عن عدم دقة الضباط، بل وزيدَ الشك بنوايا وجودهم بين الصفوف، أفكارٌ وجدها نافذةً الى عقول السامعين بسرعة البرق.

عند هذا الحد، شعرتُ بغزةٍ في جهة قلبي، كمن صعقه تيار كهرباء، وقلت:

- إنه لأمر خطير فعلاً.

قلتها لإسماع الموجودين، وأضفت أنها الأخطر من مواجهة الرئيس، عدواً معلوماً. كما إن المواجهة أو الصدام من أي نوع، وبأي مستوى سيكلفان دماء من بين الثوار، وسيجهضان الانتفاضة في سوق الشيوخ وخارجها، وهذا ما لم أسهم فيه بأي حال من الأحوال.

وما العمل؟، سأل مهند وباقي الضباط. فأجبت والشعور من أن رجالات النظام في أبو غريب عاودوا مداهمتي بصمت مثل كومة قاذورات:

- الخيار الوحيد التحاقكم جميعاً الى قيادة الحسينية، ضباطاً وجنوداً، وما لديكم من أسلحة، عسى أن ترجحوا كفتها على حسين البنا، لأن تعادل الكفتان صراع، يتطلب فضه صدام مسلح، نتيجته خسارة أكيدة لكلا الطرفين.

أنا لن التحق لأية جهة غير عسكرية، سأعود الى أهلي في قضاء

الحويجة، قال الملازم كريم، تبعه النقيب صلاح قائلاً:

- أحس الخذلان يتملكني من أعلى قمة شعري حتى أخمص قدميَّ، أشعر أني مخنوق، وقد صار حالنا مثل حانة يبكي فيها السكارى على حالهم، سوف أصطحب أتباعي وأغادر الى مدينتي الحلة، فهي الأقرب الى القيام بأعمال هجومية على معقل الرئيس.

قلت:

- أنا لا أتفق معك، ورحت بعيداً في القول:

- ان طبيعة الانتفاضة والقتال في مجالها، يحتاج الى قواعد إدارية وجماهيرية والى سند فكري، وهذا لم يتيسر لنا ولك، إلا إذا تمردت وحدات بكاملها وأتسع التمرد ليشمل فرقاً وفيالق، وهذا لم يحدث، وسوف لن يحدث على الأغلب، عندها ستجد أنك بمواجهة مجاميع بالعشرات يقودها أمثال حسين البنا، وستدفع حياتك وجنودك ثمناً قبل الوصول الى الحلة بهذا القدر من المتطوعين، وستعرض الانتفاضة الى خطر التآكل. أنصحك الالتحاق بالحسينية أو الانسحاب من العمل نهائيا والتواري عن الأنظار، لأن القادم خطير، لا تقوى على مواجهته.

وبعد قولي هذا سألت الدكتور عن خطوته التالية فقال:

- سأتجه الى البصرة، لقد حققنا فيها خطوات يمكن تطويرها، لدينا شباب جيدون، وبقايا عسكر متفرقون، سأعاود محاولتي إيجاد ضباط ينتظمون في الصفوف المنتفضة، وينظّمون جهدها العسكري. أرى في هذه الطريقة سبيلاً وحيداً لحشد ما يكفي من جهد لتأمين الهجوم على أزلام النظام، وإرساء قواعد الدفاع ضد ما بقيّ من عسكره متفرقين

على بقايا معسكرات.

توقف عن الكلام وسأل:

- وأنت، ماهي خطوتك القادمة؟.

- أنا هدفي واضح، سأباشر طريقي الى تحقيق الحلم الموعود. سوف لن أتوقف حتى عبور الحدود.

نهضت من مكاني مكسوراً، ومع هذا أشعر بالثقة من أني تصرفت بشكل صحيح، وأسهمت في تفادي صِدام خطير، قد يحول دون تآكل الانتفاضة في هذه المنطقة التي أحببتها لأربعة أيام تمثلت في عقلي أربع سنين.



فجأة ودون استئذان شرخت شيماء درقة الصمت الذي حل مع انبلاج الصباح، وبلهفة طفل صرخت:

- سوف لن أغادر المكان، ابقوني هنا في هذا المكان.

لم أفعل شيء يغضبها ولن أتمكن من فعل شيء، يثير الموجودين في بيت حللنا فيه ضيوفاً غرباء، وكل ما فعلته، أشرت الى والدتها كي تتدخل، وتركتهم لأعيد الحسابات، وتدقيق الاتجاهات، فقرار المغادرة قد اتخذ، ولا شيء يحول دون التنفيذ بعد قطع التماس مع الثوار، خطوة واحدة وأكون في الضفة الأخرى من العالم الذي حلمت به خالياً من السجون، ومن أحكام تقام على الانسان بمجرد الشك بنواياه وبعض

الظنون. وكانت الخطوة الأولى تهيأة السيارة، لتكون جاهزة للعبور وسبيلاً لتحقيق هذا الحلم، فأشرت الى مازن أن نبدأ، وبدايتنا تجوال لنصف يوم بين بيت الأسطة جواد الميكانيكي الوحيد في المنطقة لهكذا نوع من السيارات، وبين محله في الحي الصناعي، لإجراء فحص شامل وتصليح بعض أعطال أخشى تأثير بقائها على السير في الصحراء، وجدال عن استيفاء أجور التصليح، فقال:

- أرفض أن أتقاضى أجراً من ثوار دعموا أهل سوق الشيوخ، وأضحت سيرتهم هذه تتردد على كل الألسنة. هل تقبل أنت هذا لو شاءت الظروف، وحللت عليك ضيفاً في بغداد؟.

فأجاب مازن وهو في الطريق الى ركوب السيارة:

- لا لن يقبل.

بعدها جلس الى جانبي، وأكمل:

- ان كل شيء جاهز للشروع باتجاه الحلم الذي تريد، وجهتنا ستكون المستوصف الصحي الذي أقامه الأمريكان لتقديم العلاج المجاني لأهل السوق.

فسألته:

- ماذا عن المهام التي كلفت بها من قبل السيد؟. كيف لك أن تتركها وترافقني الى ذلك المستوصف؟.

رد وهو الواثق من نفسه:

- أنا متفرغ لك هذا اليوم ومهمتي أدلك، بل أوصلك الى مكان وجود

الأمريكان في المنطقة، وهذه مهمة وضعتها لنفسي تفوق باقي المهام ومن أي طرف كان.

❖ ❖ ❖

المستوصف الصحي، اقامته القوات الأمريكية خارج سوق الشيوخ من جهة قاعدة علي الجوية التي دخلوها أولاً، وتوقفوا عند مدارج لها شهدت آلاف الطلعات في حروب، كانت نتائجها الاستراتيجية خاسرة. هو ليس بعيد، وقد غرقت ضفافه بالمراجعين من جميع الأعمار، شيخ قصده متعكزاً عصاه، طلب العودة الى الشباب، فحصل على فحوص كاملة وبعض الفيتامينات.

امرأة تحمل طفلاً أصيب بالجفاف، دخلت معه الردهة أو الخيمة المصممة ردهة طوارئ لإتمام العلاج.

شباب حضروا لمجرد الاستطلاع، أعجبوا بالشقراوات العاملات في التمريض، تحججوا بشتى الامراض، لم تنطلِ حججهم على الشقراوات، فهن مدربات جيداً لاكتشاف دعاوى التمارض والتحرش بلا أصول.

هذه مقدمة أو شرح جاء به مازن ونحن في الطريق الى المستوصف، أضاف له وأنا أهم بالوقوف، لقد أصبحت المنطقة بوجودهم، وأكوام النساء والاطفال والشيوخ مكتظة، وكأنها ساحة احتجاج على الفقر والمرض، اختفت وسطها الشعارات المناصرة للرئيس، هم كانوا يهتفون للرئيس، أتعلم أن أبي قد خصني بقول له في أحد الأمسيات، من إنهم قد

هتفوا الى الزعيم عبد الكريم، بل تخيلوا صورته في القمر، وهم من هتف الى الملك فيصل من قبله، ورفعوا سيارته على أكتافهم مهللين بطلته عليهم، وهم الآن يستبدلون أهازيج الاشادة بالرئيس، بأخرى تمجد الانتفاضة والأمل بغدٍ خالٍ من الفقر الملعون بدعم من الامريكان.

إنه الفقر، قلتها بألم، وقال عنها مازن إنه الجهل، فالفقر يا سيدي، عامل شحذٍ لهمم الناس الفقراء، وتوحيد صفوفهم من أجل القضاء عليه، وليس التسليم بوجوده والسير أمامه مثل تلك الأحصنة التي اعتادت جر العربات صيفاً وفي الشتاء.

❖ ❖ ❖

هذا هو المستوصف الذي كلمتك عنه، انظر اليه مجموعة خيم مسطرة بانتظام تتقدمها واحدة تتميز بصغرها عن الأخريات. انظر الى ذلك الجندي الواقف الى جوارها بكامل عدته الحربية، كأنه متأهب لإنجاز مهمة قتال، قال مازن عند محاولة النزول من السيارة كنوع من المجاملة، ثم أكد من أنه سيبقى في حال الانتظار داخلها حتى اتمام المشوار.

تركته داخلها، وأخذتني خطواتي المتباطئة نحو طابور طويل للمراجعين، كان الوقوف فيه بغير انتظام، رغم انصياعهم الى توجيهات بين الحين والآخر من قبل الجندي المدجج بالسلاح، وايماءاته للوقوف بانتظام، لكنهم سرعان ما يعودون الى عادة عدم الانتظام.

وقفت في هذا الصف أحاول الالتزام بالنظام، فجاء وقوفي خلف رجل

تجاوز السبعين من عمره، يتكأ على عصاه. كان هذا السبعيني ملتزم بأصول الطوابير الخاصة بمثل هكذا مراجعات، وكانت قربه امرأة تجاوزت الأربعين، تمسك طفلاً بيدها اليمنى، تحمل آخراً على كتفها الأيسر يصغره سنة، تضغط على رسغه الغض كلما حاول التحرك في المكان، فيزيد من تحركه مصحوباً بنوبة بكاء. لا يعيرها الجندي المدجج بالسلاح أي اهتمام، معتقداً أن الفقر هو السبب في هذا البكاء وأمور أخرى. لكنها لم تعر أهمية لهذا البكاء وشَمرّت عباءتها حول وسطها بحركة تنم عن اتخاذها القرار الذي تريد، فلامس طرفها المتهرئ نصف وجهي مصحوباً بحفنة تراب. تركتُ لها المجال، مرت من خلاله والرجل السبعيني، كأن وقتها محسوباً بأجزاء الثانية.

أخيراً اقتربتُ من الخيمة، قصدتُ الجندي الواقف جانباً في نوبة حراسة، لا تحسب مشددة في هذا الموقع الذي يشهد هتافات، أغلبها ترحيب بالضيوف القادمين من بعيد، قليل منها أهازيج لاذعة بالضد من النظام، ظناً من أهل الهتاف قدرتها السحرية على تأمين المرور كارت أخضر مضمون الى معسكر الأمريكان.

سألت الحارس الذي يعتمر خوذة فولاذية مكسوة بقماش مموه من نفس نوع البدلة الخاصة، عن الضابط المسؤول في هذا المستوصف، فكانت اجابته من أن جميع الأطباء ضباط، يمكنك الدخول الى هذه الخيمة، وعند ذكر المرض سيدلك المترجم على الضابط الطبيب المختص.

- لكني لا حاجة لي بطبيب، أريد فقط ضابط لأمر خاص. قال:

- الأمر سيان، يمكنك الدخول الى الخيمة نفسها، وسيرشدك

المترجم الى ما تريد، واجبي هنا للحراسة فقط، وليس لي صلاحية الارشاد أو تلبية الحاجات وان كانت خاصة، إنها قواعد الاشتباك في الحرب، سيدي.

الخيمة الأولى التي أدل عليها الحارس صاحب الخوذه، مهيأة لأعمال الاستعلامات، فيها طاولة واحدة، ومجندة سمراء بجسم تبدو عضلاته بارزة على الساعدين، والكتفين العريضين. تجلس على كرسي سفري يطوى، مسلحة بمسدس شَدَتهُ على فخذها الملآن، يشاركها الجلوس على نفس الطاولة مترجم شاب لا يتجاوز الثلاثين من العمر. عَرفَ من لغتي الانجليزية التي ألقيت بها السلام حاجتي اليه، فرد السلام بلهجة عربية كويتية، سائلاً عن الشكوى أو المرض، وعندما عرف أني لا أشكو أي مرض، وأني سفير سابق جئت لمقابلة ضابط مسؤول لأمر يتعلق برغبتي ترك العراق، دققَ في هويتي سفيراً في ألمانيا الشرقية، كنت قد أخفيتها طوال الطريق في جيب سري داخل الحقيبة اليدوية لأُم شيماء. حاول أن يقول شيئا، لكن المجندة قطعت المحاولة كأنها فهمت المغزى المطلوب، وربما جاءت محاولتها لتفادي أي تحسس تضنه باق في النفوس، بين أهل العراق والكويت، فأخذت الهوية وباقي المستمسكات، واتجهت الى خيمة أخرى، لدقائق مثلت زمناً بوقع ثقيل، وقد اقترب الحلم من حافات التحقق. خالجني شعور غامر بالارتياح، كمن نجح تواً في اجتياز حقل ألغام، عندما خرجت هذه المجندة السمراء مبتسمة، تحمل بيدها مجموعة المستمسكات المستنسخة، وبالأخرى تلك الأصلية بقصد إعادتها. ابتسمت ثانية، واستأذنت مرافقتها الى العقيد الدكتور

آدم مدير المستوصف.

وضعت الاوراق المستنسخة على طاولته، وأدت التحية عائدة الى الخيمة بقصد المتابعة الخاصة بوظيفتها في الاستعلامات.

قدم العقيد نفسه ضابطاً طبيباً في المركز الطبي المتقدم لفرقة المارينز الرابعة، اختصاصي باطنية، حاول توضيح المهمة التي وُجدوا من أجلها، أدرك من خلال الاستجابة الممزوجة بقدر من الحيرة أن كلامه غير مفهوم من زائره السفير السابق. وبنفس اللغة غير المفهومة بادلته التقديم مشيراً الى الاسم والمهنة السابقة، حاولتُ شرح غايتي ببعض كلمات جاءت بلغة انجليزية بدأت تشق طريقها في محاولة الخروج، لغرض تبيان نية الهروب، ووجود العائلة، وعندما يَئِسَ من فهم المطلوب، أستدعى مترجماً يتكلم اللهجة اللبنانية، أخذ على عاتقه نقل الصورة كاملة، وكذلك الرغبة هي أيضا كاملة.

أستأذن العقيد، لغرض الاتصال بمقر الفرقة الكائن في قاعدة علي الجوية، غاب عشر دقائق كان وقعها مثل سابقتها ثقيل، مصحوب بقلق الفشل من تحقيق الغاية، وقد اقتربت من حافاتها النهائية، عاد باسماً وكأنه نجح في اجراء عملية قلب مفتوح. طلب إحضار باقي أفراد العائلة غداً بالتوقيت نفسه لغرض الانتقال الى المقر العسكري الذي سيكون وسيطاً في استحصال الموافقات اللازمة لاجتياز الحدود.

مفاجئة هي حقاً. فرحٌ ممزوج بقدر من الأسى على ما حل في العراق. تصارع أضداد باقتراب تحقيق حلم هروب، وبقايا ناس يتوزعون بين الامكنة يفتش قسم منهم على الحرية، ويسعى القسم الآخر الى

الارتزاق، ويمسك ثالث بمعاول هدم إمعاناً بالهدم، حتى لم أعد وسطهم قادراً على التركيز خلال طريق العودة من المستوصف الى بيت مازن من كثر التفكير في النتائج وأبعاد التضاد.

عمي أبو شيماء أنت تتجه في الطريق الخطأ، سوق الشيوخ ليس من هذا الاتجاه، يبدو أنك سرحت بعيداً، قال مازن. فتنبهت الى نفسي وقد قطعت نصف المسافة بطريق الخطأ. غيّرت وجهة السير باتجاه سوق الشيوخ، ثم عاودت الغوص في بئر الذكريات، نفس الذكريات التي أظهرت حسن محمود عضو الفرع الآتي من فلسطين الى العراق، اعتقاداً بقدرة الحزب على تحرير الوطن السليب، وتوحيد الأمة العربية من المحيط الى الخليج، المتهم هو أيضا معنا بالتآمر على الحزب الذي يسعى لتحقيق هذه الوحدة، رأيته يتعثر في الرتل العاري، وقد انهال على جسده النحيل ضرباً اثنان من الخفراء، وكان يرتجف، كما لو ان الحزن، والحقد يهددان بالانفجار في داخله، وكأن عقله قد تعطل تماماً أو اختفى، ولم يبق منه سوى الألم. في آخر النهار ذاك النهار الذي كانت وطأة الحر في صيفه القائظ لا تطاق، أحس حسن في الضربة الاولى على كتفه الأيسر معنى الموت، فتكور على ذاته عارياً مثل حلزون جاءت به الصدفة، تحت قدمي جندي مبهور بانتصاراته في كومة ماء آسن، لما نظرت الى وضعه قلت في حينه كم صعب أن يكون الجسد مختلف عما يريده صاحبه أن يكون.

انتهى المشهد، وقد خلفت الضربة الثانية على صدغه بركة دم لها حجم جسمه العاري وهيأته المشوهة، لم يبق سليماً فيه سوى عينين

جاحظتين، منهما يعرف الناظر ساعتها مقدار حقده على هذه الأمة التي ضن إمكانية مساهمته في توحيدها، وقبل أن يفقد وعيه أمره چاسب أن يتغوط في المكان، يتمرغ في الغائط بنفس المكان، وقبل أن يفعلها نظر الى من حوله، بلعَ دموعه خجلاً ثم فعلها. ومع هذا أقول أن فعله لها لم يكن مخجلاً ولم يكن مثيراً، فمثله حدث مراراً من قبل، ثم اننا جميعاً تحولنا بفعل التكرار الى أجهزة بشرية تخرج الاستجابة طوعاً لإيماءة السجان دون خجل، وتحولنا أيضاً الى أشباح، تعيش تيهاً في عالم غير العالم الذي فكرنا به ملائماً لعيش الانسان، وغير العالم الذي تخيلناه مناسباً لما بعد النضال. قلت دون وعي مني وبصوت سمعه مازن:

- التبول على الذات البائسة مألوف.

- التغوط الاجباري على النفس كذلك مألوف.

- الموت بالسم هو أيضاً مألوف.

فقال مازن، ماذا تقول، فقلت:

- غير المألوف لنا مجموعة تعيسة، هي كبوات يفقد فيها البعض وعيه، من ضربة قد تأتي بقوة لا يحتمل وقعها الشديد، يعجز بسببها عن الذهاب الى الحمام، ينتظر يوماً آخر ومروراً آخر على طريق يتحسس المارون بين صفي خفرائه الواقفين على الجانبين أن دقائقه دهرٌ من السنين.

- غير المألوف أن يبتسم الحارس بوجه أحدنا ابتسامة ليث، يحاول افتراسه بعد انقضائها مباشرة. وغير المألوف أيضاً نجاح سرمد بتهريب

برتقالة من أرزاق الخفراء في بحر عام، يحتفل أهل الزنزانة بالتهامها بقشورها وليمة دسمة بعد انتصاف الليل.

❖ ❖ ❖

أقام السيد مازن حفل وداع ليلي، وليمة عشاء، نحر فيها كبشاً كان قد اصطفاه لعيد الأضحى القادم. دعى الريسان والقطان والسيد قاسم والدكتور مهند وآخرين من وجهاء سوق الشيوخ احتفاءً بالضيف، وتوديعاً له في المشوار الجديد، الى العالم الجديد، وفي اللاوعي تخفيفاً من الذنب السابق ذو الصلة بالاتهام، الذي وجهه له مساعداً لحسين كامل، حيث لم يغادره ذنباً مؤلماً على الرغم مما فعله طوال الأيام التي تلت، وغالى به، وكأن الرواسب أخذت مكاناً لها في أخاديد عقله العميقة، لا تريد مغادرتها بسهولة. أما الرواسب المكنونة في صندوق تجربتي، فلم تعد متمترسة خلف جدار الذاكره، ولم يعد يعصف بها النسيان حال خروجنا من بغداد، فاندلق صوتها من صورة چاسب وعصاه الغليظة وطريقة الشتم المميزة، ومن بعض الأوامر التي كان يصدرها غريبة، عندما يكون مخموراً، ساعياً الى فتح أساريره على الآخر أو مكتئباً يتجه الى غلقها على الآخر أيضاً. وجد مازن في عينيَّ أثناء سردها وقد أنزلت دمعاً من دون سيطرة مني، ووجدني ساعياً الى اخفائها، لكني لم أتمكن. اقترب من اذنيَّ كثيراً، عارف بخراب سمعها، مُصرحاً بوجود قنينة ويسكي كان قد جلبها من محل للمشروبات الكحولية، أستبيح قبل

أيام، أخفاها ليوم تأتي حاجتها، وجاء هذا اليوم، أقترح خلط قدح منها بمشروب البيبسي كولا، لا يحسه السيد، ولا غيره من الجالسين. فبينت له أن الموقف لا يساعد على احتفال من هذا النوع.

إن هذا الذي تسمونه چاسب، مجنون حقاً أو كافر لا رحمة في قلبه، لقد عميت بصيرته، قالها السيد، فأجبته هذا غيض من فيض، فهناك الكثير أقلها حرجاً على سبيل المثال، إخراج أحدنا، لا على التعيين من طابور التعداد الصباحي، طالباً منه التغوط في الممر، وإعطاء عصاً الى آخر، يأمره بضرب الغائط من زاوية تقترب من الأعلى، لنشر رذاذ النجاسة على وجوه الجميع، كما يطلب أحيانا تفريغ المعدة من غازاتها بوجود الجميع، شرط اصطحابها أصوات مسموعة. الويل لمن لا يستطيع التغوط، ولا ضبط إيقاع الغازات بأصوات مسموعة. تلك الطلبات جعلتنا نحبس الفضلات، وكذلك الغازات لأيام نبقى فيها قلقين من طلبه الغريب هذا، ومن عقابه الشديد في حال عدم حصولها كما يريد.

إنهم ونظامهم شياطين، قال السيد، فقلت موجهاً كلامي للموجودين من حولي:

- هم أبرع من الشيطان، إنهم متخصصون في التعذيب بقدر يبقي من لا يأتي اسمه في أوامر التصفية على بعد شعرة من الموت، يلعبون لعبة الموت، يدفعون الواحد منا نحو الموت ثم يسحبونه بمهارة عجيبة من حافة الهاوية، وهو في الرمق الأخير، ليبقوه قريباً من الحياة، ينتظر الأمر القادم بالإماتة، عندها لا يحتاجون الى سحبه، يتركونه يموت وهم يرقصون على جثته فرحين. إنهم آلات بلا مشاعر، لا يتألمون على

حال أحد حتى لو كان من بينهم. إنهم حقاً آلات. سلطة العقاب المطلقة جعلتهم آلات بثياب بشر. بسبب هذا أصبحت وطوال اقامتي في سجن أبو غريب أشك حتى بالأهداف التي طُوعنا من أجل تحقيقها، وبكافة الحزبيين الباقين خارج أسوار السجن، على الرغم من معرفتي بعدم منطقية هذا الشك. لقد دمروا خلايا المنطق في عقولنا، وحولونا الى مخلوقات موهومة بالشك في كل شيء.

❖ ❖ ❖

حاول الريسان الحيلولة دون إتمام الحلم الموعود أو مشروع الهروب، وكذلك الدكتور مهند والقطان، حذروا من تيه الصحراء، وألغام وضعتها الحروب على طولها وفي العرض، وعساكر أجنبية ملأتها انتشاراً في كل مكان، ومن استيقاظ كائنات الرمال التي كونت لها إعشاشاً في بعض الأخاديد. لكن السيد قاسم اختلف معهم، كأنه يريد التخلص من مأزق أو إحراج تسببه وجودي الطارئ في ميدانه القتالي، فبارك الخطوة أولا، وحث على ضرورة تنفيذها اليوم قبل الغد، مؤكداً ان الفرص التي تأتي اليوم قد لا تتكرر في الغد، مشبهاً إياها بقطار سريع يتوقف في المحطة مرة واحدة فقط، خاتماً حديثه بالقول «إذا عزمت فتوكل».

أما البنات، وبعيداً عن الجالسين وهم يتحاورون، فقد احتفلن في الطابق الثاني من البيت بقصص متناثرة عن بغداد، وعالم آخر سيكون مفتوحاً بعد اتمام ما يريده الأب، ويسعى جاهداً الى تحقيقه، وإن لم

يعرفاه بالتفصيل، لكن تكرار الحوادث والأحاديث جعلهن يقتربن في التخمين من حدود الهدف المطلوب. تمنت رسمية الذهاب هي أيضا الى ذاك العالم فقد ملت هذه القيود، وكثر الممنوعات وانتظار ابن الحلال، فارس على صهوة جواد أبيض، لا تؤمن بهذه السبل لإتمام الزواج، ولا تستطيع الوقوف بالضد منها، وقد أفشت سراً الى البنات المحتفلات من انها مبتئسة من الاحداث الجارية، تشعر في داخلها قلق غامر من الغد، ومن العودة الى الماضي الذي ستكون فيه البنات أولى الضحايا، وستدفن أحلامهن في المشاركة باختيار الحبيب الى الابد.

انتهى الحفل، وانتهت وليمة العشاء، وتبادل الذكريات، وانتقاد النظام، وأماني الزواج وتأمل المستقبل الخالي من الظلم قريباً من أنتصاف الليل. ومن بعد هذا وقفتُ في الباب مودعاً لمن حضر. أخذت الشيخ الريسان في الاحضان، هذا الرجل الذي يحس الناظر اليه بالطمأنينة والراحة، قبلتُ وقار لحيته البيضاء، فقال وهو يتبادلها:

– إن المكان الذي تتواجد فيه هنا أصغر منك إنسان بعقل كبير.

ضحكتُ بفرح، محاولاً إظهار التأييد لهذه النصيحة من خلال الربت على كتفه بإشارة فهمها، ثم واصلت الضحك رغبة مني في تقليل أثر القلق البادي على وجهي رغم كل الاصطناع في التمثيل.

من جانبه طلب الحفاظ على العائلة في هذه الصحراء، التي لا يطمئن اليها الشيطان. ختم وداعه بعبارة سنفتقدك يوم تمر علينا أيام ستكون خطيرة كما قلت.

حل الدكتور مهند آخر المودعين، تبادلت معه السلام قبلاً كالمعتاد، قلت:

- اترك سوق الشيوخ على الفور فالوضع لا يحتمل التأخير، مكانك ليس بين الثوار السائرين بقوة الانفعال هنا أو في البصرة، إنه هناك في الجامعة بين الطلاب، الذين يفهمونك وتفهمهم ببساطة الكتاب المفتوح.

عدت من بعد هذا التوديع المثير للشجون الى الفراش. حاولت الاستسلام الى النوم، الا أن وقع الايام التي مرت وتوقعاتي بما يتعلق بردود فعل الحكومة وقدرة الثوار البسيطة، جعلتني عاجزاً عن النوم، اصارع القلق من حلم طال انتظاره قد لا يتحقق، خائفاً حد الرعب على مستقبل عائلة ضيفتنا أربعة أيام، كانت وجميع أفرادها في غاية الكرم والأخلاق، وعلى غد غير مضمون، وقوات من الحرس الجمهوري تتحشد باتجاه الثوار، وأهل سوق الشيوخ من دون أن يعلموا، كأنهم مخدرين بأمل التخلص من بؤس عيش، وظلم لا يريدون أن يعلمون طبيعته، وعلى آلاف الشباب الذين حملوا السلاح سعياً الى انهاء الظلم، واحداث فعل التغيير لغد ينشدونه أفضل، كذلك على الذين ركبوا موج التغيير بسلاحهم وبدون سلاح، وأولئك الرجال من أبناء العشائر الذين مسكوا بنادقهم تقليداً للكبار، وعلى ليل طويل فيه النوم غير مضمون.

بعد هذا الخوف الهائم عم الهدوء أو هكذا يبدو من الخارج.

هدوء غريب مثل ذاك الحاصل لمن يسكن زنزانة على انفراد في سجن بائس مثل أبو غريب، يحصل هنا في سوق الشيوخ بعد ويلات نقاش واستذكار ماض ضعفت فيه القلوب، وشاخت مبكراً خلاله النفوس،

أبقاني ساعياً في سهره على تكوين أحلام ما بعد الحلم الكبير باجتياز الحدود.

ومع هذا فلم أجد غير النوم سبيلاً لتحقيق الاحلام.



وهم التحاور مع عزرائيل

رمال وغيوم خفيفة الظل، وشجيرات متفرقة على الجانبين، واحلام أوشكت ان تتحقق مع دوران اطارات السيارة المسرعة في طريقها من المستوصف الأمريكي قرب سوق الشيوخ الى القاعدة العسكرية القائمة على أطراف الصحراء. الطريق فيه رهبة مُرةَ، يعود أمرها الى هذه الصحراء التي عُرفَت بقساوتها، وهجران أهلها لها منذ عشرات السنين، لقد تركوها مرتعاً للأشباح، وتركتُ انا سيارة الفولفو تتوسط في سيرها الحذر مدرعتي همر في طريق يتمهل سائقيها في السير عليه، وكأنهما في موقف قتال، أو أنهما يتحسبان لأمر من هذا النوع بسبب عدم الثقة بأهل المكان.

قاعدة أو واحة وسط صحراء، تحيط بها أسلاك شائكة، مكهربة أجزائها، ترتفع فوق بعض مواضعها هوائيات للاتصال اللاسلكي، بابها الرئيسي من الحديد يتحرك بالكهرباء، تنتشر في محيطها الداخلي ناقلات همر مدرعة لكتيبة استطلاع عميق، تغطيها شباك غش، اتخذ الجنود من ضلالها مرتعاً للراحة والنوم، أكثر من تلك المهمة التي صممت من أجلها حجب أنظار العدو من بعيد. عدوهم على هذه الأرض

غير موجود، تركهم وباقي الأشباح يقيمون قواعدهم على أسطح رمالها دون استحياء.

أنتصف النهار عند الوصول. وقفت سيارتيّ الهمر، فأعطى قائدها العريف أدور إشارة التوقف لسيارتنا عند الخيمة اليمنى، كانت هذه الخيمة واحدة من اثنتين تنتصبان وسط هذه الغابة من ناقلات الاشخاص المدرعة.

تفضل سعادة السفير، أشر العريف أدور ثم قال:

- إن هذه الخيمة لك وللعائلة، ستقيمون بها حتى تنتهي الإجراءات الأصولية، أما تلك الخيمة التي على يسارك فهي للسيد العقيد برادلي آمر الكتيبة.

دخلنا الخيمة فوجدناها قد أعدت للعائلة حسب المعلومات التي تجمعت من لقاء الأمس في المستوصف. أرضيتها مطاط مضغوط، ملحق بها حمام، ومرافق صحية على جنب، وضعت داخلها ثمانية أسرة سفرية هو العدد الكلي لأفراد عائلتنا، وطاولة مدورة في زاويتها اليسرى المقابلة للباب، عليها صحن فاكهة طازجة وعلب مشروبات غازية وقناني ماء، وبعض أنواع من النستلة.

رجا الضابط المسؤول عن العلاقات أخذ راحتنا داخل الخيمة، ثم تقدم لنا بعد دقائق لتحديد بعض الاجراءات. حاول أن يكون ودوداً، مزح بالقول:

- ها أنكم الآن في أمريكا، موعد اللقاء مع الآمر في الساعة الرابعة عصراً داخل مقره في تلك الخيمة القريبة، أتمنى أن تتمتعوا بقدر من

الراحة حتى موعد اللقاء.

توزعت البنات على الاسرة الموجودة، في الوقت الذي جلست أنا على كرسي كان موجوداً حول الطاولة الشاخصة في اليسار، أتأمل الوضع الجديد، سألت نفسي:

هل حقاً ضمنت النجاح في تحقيق الحلم الموعود؟.

وهل يعطيني الوضع الجديد فرص التكلم بأعلى صوتي لأروي قصتي وبقية الزملاء؟.

هل حان وقت التحاور مع العالم وأدعياء حقوق الانسان عن صديقي لؤي المحمود الذي لم يكتف السجانون الذين كان في داخل كل واحد منهم ذئب يفتش عن فريسة، وثعلب يهوى المكر في سرقة الأرواح من أصحابها؟.

رحت مسترسلاً أضع كدمات حزني في هذه الخيمة العسكرية، غير آبه لما يجري في داخلها، وما تفعله نجلاء في تنقلها قفزاً من سرير الى آخر في مكان تخيلتهُ مدينة العاب، عندما لم يقبل عقلها الثاقب قبوله سكناً على أطراف الصحراء. حاولتُ البوح بمحتويات ذاكرتي، المؤلم منها لمن حولي بعد إحساس هائم بفك قيودها الجائرة هنا والآن، ماتت الكلمات في محجرها، وبموتها عاودتُ التذكر دون بوح، لواقعة الحرق، طريقة الاماتة، أنين العميد لؤي أول السيل الجارف للذكريات في هذه البقعة البعيدة من أرض العراق.

توقفت عندما أفلتت الذاكرة صوراً شمية لرائحة اللحم الآدمي

المشوي، ملأ فحيحها أنفي المزكوم، كأن مواقدها تشتعل من جديد هنا والآن.

التفتُ الى من حولي وجدت الجميع على أسرتهم باستثناء نجلاء التي لم تهدأ بعد، فحمدت الله أنهم لم يشونني حياً أنا أيضاً، وغصتُ ثانية في عالم ذكريات، فيها عبد الله ذلك الحارس الذي جاء الى قاطع السجن عصراً ماسكاً بيده سلماً معدنياً، وضعه على الأرض أثناء تجمع كان قد طلب اتمامه قبل المغيب، عمل قرعة بين الواقفين، قال:

- من يظهر اسمه، فقد اختاره الحظ أن يتقدم، يصعد دون كلام. هنا والآن ممنوع الكلام، وممنوع الأنين، إنها لعبة حظ.

جاءت النتيجة عليّ فصاح هذا هو المطلوب، اصعد هذا يوم سعدك.

الصعود كان مراً، لكني صعدت وتمددت كما أراد، نادى سرمد، طلب منه احضار حبل موجود في المطبخ، ليربط جسدي بعد أن وصفه بالعفن. لم يتأخر سرمد، نفذ الأمر في الحال، فالتأخير غير وارد في قواميس الحراس القائمين على تنفيذ برنامج التدجين.

اكتمل الربط المحكم بثوانٍ، وعيون الحاضرين شاخصة تحاول معرفة القادم من الخطوات، غير مطمئنين للنتائج التي تأتي مفاجئة في كثير من الأحيان.

حليم وسرمد يؤمران بحمل السلم ومن رُبط عليه، والدوران به ركضاً على شكل دائرة أجلس وسطها شكري، ومن بعد هذا أوقف الدوران ليوقف السلم عموديا ويتركه حتى يسقط مرة من اتجاه القدمين، ويعيدون ايقافه مرة أخرى ليسقط من اتجاه الرأس.

وقف عبد الله في وضع الفرجة فرحاً من تجربة أجراها للحظ العاثر، وحارس آخر أخذ من شباك غرفة الخفر المطل على باحة القاطع مكاناً لتصوير ما جرى بكامرة تصوير فيديوي صغيرة. أخر مشهد، لقطة فيها السلم متكئ على حائط القاطع، مقلوب فيه الرأس نحو الأسفل، وأوصال أحسها مقطعة، تخيلتها مكومة أمامي مثل جثث جنود تناثرت أشلائها بانفجار لغم، اعتاد تلفزيون بغداد الحكومي عرضها في برنامجه اليومي صور من المعركة.

قال هذا يكفي كأنه مُخرج لمشهد فيلم رعب، جاء أداء الممثلين فيه مطابقاً للسيناريو المكتوب، وقال لبقية الزملاء من المساجين، اذهبوا الى غرفكم، واتركوا صاحبكم على حاله حتى صباح الغد. لا أتذكر إني غفوت لحظة، إذ ومع كل نفس أتنفسه أحس وكأن معدتي تُقتلع من مكانها تحاول الخروج من فمي المقلوب دون سيطرة مني.



سقطت بعض دموع على خديَّ دون سيطرة على منابع لها يتحكم بها الحزن، وليست الارادة، تنبهت شيماء الى آخرها كانت بحجم قطرة مطر صيفي. سألت عن السبب، وقبل حصولها على الاجابة التي تريد، طلبت الانتباه الى وجه والدتها وقد بدا شاحباً تكسوه الصفرة بشكل واضح. استعجلت النهوض من مكاني، قصدتها راقدة على السرير، تئن من وجع شديد في الصدر، وخدر في اليد اليسرى. وجع تحسه لأول مرة

طوال حياتها المليئة بالآهات. اقتربتُ منها، كان جسمها ينز عرقاً، كل بقعة منه تكسوه الصفرة بلون الكركم، نَفَسها يخرج بصعوبة، كأنها تعاني مشكلة استنشاق للهواء، رأيتها تقاوم نوبة جديدة من الغثيان، فتجمدت أوصالي خوفاً عليها، لعلمي حسب خبرة لي في هكذا نوع من الأوجاع، أنها ذبحة صدرية، عرفتها جيداً يوم ضربتني في برلين وبغداد. ودون وعي مني خرجت من الخيمة مذعوراً لا أعرف ما أعمل، سوى مناداة أول عسكري أمريكي أراه قريباً، لأطلب طبيباً على الفور، فالأمر طارئ.

لم تمضِ ثلاث دقائق حسبتها جيداً، حتى حضر طبيب الوحدة شاب في الثلاثين من العمر، تؤشر هيئته وتقاسيم وجهه أنه من أصول صينية، فحص الضغط أولا، فوجده مرتفعاً بنحو حاد، وأكمل فحوصات متعددة لضربات القلب والتنفس قال عن النتيجة، بوادر ذبحة خفيفة، لأسباب انفعالية تتعلق بالانتقال الى الوضع الجديد. أكد الحاجة الملحة الى دواء لخفض ارتفاع الضغط، وإذابة التجلط في الدم، لكنه غير موجود في هذه الوحدة التي يعد جميع منتسبيها من الشباب. حاول الطمأنة بقليل من الكلمات التي فهمت منها التزام الراحة، وأخذ حبتين فاليوم للاسترخاء، وهو من جانبه سيتدبر العلاج اللازم بعد ساعة من مستشفى الميدان الرئيسي.

انقضت الساعة ونحن السبعة نقف حولها وكأننا حراس يرومون تجنيبها الأذى من فعل خارجي، هبطت في تمام انقضائها طائرة اسعاف سمتية، نزل منها طبيب اختصاصي باطنية ومترجم الى العربية، ومجموعة أدوية. أجرى فحصاً سريرياً، عمل تخطيطاً للقلب، أشاد

بتشخيص الطبيب العام لهذه الوحدة. وقف عند رأسها حتى تناولت جميع الأدوية. قال انه وطاقم الطائرة والمترجم سينتظرون حتى زوال تأثير التجلط، وهبوط الضغط الى المستوى المطمئن طبياً.

❖ ❖ ❖

رحب العقيد برادلي بيَّ ضيفاً في خيمته حسب الموعد المحدد، سأل مجاملة عن أحوال الزوجة، وإن توفرت في جعبته تفاصيل مرضها. أشار الى ارسال الوثائق المستنسخة الى المقر القيادي الأعلى، للبت في موضوع المغادرة الموعودة لأرض العراق، والى السياقات التي تقتضي الانتظار أيام سوف لن تدوم طويلاً للحصول على نتيجة توقعها إيجابية، حسب القوانين الامريكية التي تسمح بإجلاء المدنيين من ساحة حرب تكون فيها الولايات المتحدة طرفاً، وقبول ضيافتهم.

هكذا استمر الحديث مجاملة عرفَ من خلاله أن اصولي عسكرية، ضابط مظلي سابق، فحوله باتجاه القفز، ومخاطر الأجواء والطائرات الأنسب، وعدد المرات التي سجلها قفزاً حراً، وامتلاكه شهادة تقدير في هذا النوع من القفز، وبينت من جانبي بعض تجاربي العملية في القفز بعدة أجواء، لينتهي الحديث بإعادة الترحيب والمشي مجاملة الى حدود الخيمة الخاصة بالعائلة، خمسون متراً على وجه التحديد.... خيمةٌ كانت تعج بالحركة، اذ لم يتّعود سكنتها التجوال بين العسكر، فأصبحت بنظر البنات مكاناً محصوراً لابد من التحرك فيه، وأصبحت بالنسبة

الى الأمُ ردهة مستشفى، أما أنا فبقيتُ عند رأيٍ قلته بداية الطريق الى سوق الشيوخ، «أن المرور من الباب المؤدية الى تحقيق الحلم الموعود سيكون صعباً»، وعلى أساسه طلبت بإلحاح، أن يكون الصبر سبيلاً الى تحمل أعباء قيود التحرك، في ملعب الخيمة الصغير.

حل اليوم الرابع في الخيمة التي نتقاسمها مأواً وملعباً وسجناً في آن معاً. اقترب منها عصراً جندي كأن اصوله أفريقية. نادى بصوت جهوري:

– سعادة السفير، يود الآمر مقابلتك لأمر مهم سيدي.

– نعم سأكون عنده بعد عشر دقائق.

انتهت العشر دقائق، ولما دخلت خيمته، لاحظت بشائر الفرح واضحة على وجهه الأبيض المدور. اتجه للخروج من خلف طاولة صغيرة كان يجلس خلفها، مبتسماً كمن حقق انتصاراً في معركة صعبة، تكلم بهدوء معطياً المجال الكافي لأن أفهم القصد ثم بارك، حصول الموافقة على اللجوء والعائلة الى الولايات المتحدة الامريكية، راجياً التهيؤ حتى وصول الطائرة السمتية بغضون الساعات الثلاث المقبلة. قدم تفصيلاً للرحلة قائلاً:

– ان الطائرة القادمة ستقلكم الى قاعدة خالد الجوية في المملكة العربية السعودية، ومن هناك وبالتحديد صباح الغد ستأخذون طائرة عسكرية (سي ١٣٠) الى الولايات المتحدة الامريكية. يمكنكم اختيار الولاية التي تودون العيش في ربوعها، فالولايات المتحدة قارة، ولكل ولاية نظامها وطبيعة عيش فيها مختلفة عن الأخرى، أنصح التوجه الى

كاليفورنيا فهي غنية، جوّها معتدل طوال السنة، لا تعاني مشكلات تمييز عنصري.

كانت مفاجأة لم تكن في الحسبان، دفعتني الى التعليق على الموافقة بصيغة تعجب:

- الى أمريكا؟.

- نعم أمريكا.

- لكن أمريكا لم تكن في حساباتي.

معضلة لم يتم إدراكها أو وضعها بالحسبان من قبل، وكأن حلم الهروب عمل غشاوة أمام مصدات التفكير، حيث لم أحسب عيشي والبنات في أمريكا، التي وبمجرد ذكر اسمها ثارت في داخلي رعشة قلق، لم يتنبه الى حصولها الآمر.

فكرت على الفور بالبنات اللواتي تقع أعمارهن في سني المراهقة. سألت نفسي كيف لي التعامل معهن في أمريكا؟. أمريكا التي امتلأت ذاكرتي بمساوئها في تثقيف حزبي شربته علقماً عدة عقود.

لا. لا يمكنني الذهاب الى أمريكا، لم يخطر في بالي خروجنا من بيئة مقيدة جداً الى أخرى منفتحة جداً.

لا أستطيع الذهاب الى دولة أحمل ثقافة الضد الحزبية من وجودها، امتلأت ذاكرتي بتعابير العداء لها دولة عدوة للامة العربية.

ماذا سأقول لزملائي؟، وماذا أقول لنفسي؟.

لا. لن أذهب الى أمريكا.

أسئلة وعبارات وإن مرت في العقل دون أن تظهر على اللسان، لكن

العقيد لاحظ التمتمة وشرود التفكير، بعيداً عن أمر افترض حسن وقعه على النفس الهاربة من الظلم، فسأل:

- ما الأمر؟.

- لا أستطيع الذهاب الى الولايات المتحدة الامريكية بسبب وضع عائلتي الخاص.

- نعم!. قالها بصيغة تعجب.

أفصحت عن عدم رغبتي الذهاب الى أمريكا، بسبب العائلة، متحججاً بست بنات قسم منهن شباب. وكرد فعل سريع قال:

- وما المشكلة، فنصف أمريكا نساء، وقسم كبير من النصف بنات، الجميع يعيشون بالاعتماد على النفس، وفي حرية مطلقة.

علقت هنا بعبارة قصيرة (هذه هي المشكلة). لكنه لم يفهم قصدي، وعندما أدركت عدم قدرته على استيعاب طبيعة المشكلة، قلت انها مشكلة يصعب شرحها.

عاود الجلوس حول طاولته الحديدة الصغيرة، وكأن حماسته للموضوع قد خفتت، وحل محلها الجد، فسأل عن الجهة التي أريد الذهاب اليها، قلت:

- المملكة العربية السعودية، ومنها الى سوريا.

توقف عن الكلام، وكذلك فعلت، وكأننا سويا في مأتم.

ذهبت لحظتها بعيداً في تفكيري، شردت به ثانية الى سوريا معتقداً أنها ستكون محطتي الأخيرة، لحسابات حزبية سياسية، أما السعودية فهي مجرد محطة سوف لن أتوقف فيها أكثر من اسبوع، ها أنذا قد

عدت بتفكيري الى سوريا والى الأدب السياسي القومي الذي نشأت وتربيت عليه، والى استقبال لي ولعائلتي، توقعته سيكون حافلاً من قبل حكومتها وقيادة الحزب.

لكن الآمر الذي خرج من صمته قطع الوقع الدائر للتفكير قائلاً:

- هنا انتهت مهمتنا، الذهاب الى السعودية ليس من مسؤوليتنا، ولم يندرج ضمن قوانينا في الحرب، وفي هذه الحالة عليك الذهاب بسيارتك وعلى مسؤوليتك الخاصة. لكني سأقوم بإعطائك مخطط توضيحي للطريق، وأملأ خزان سيارتك بالوقود، وأزودك بكتاب عدم تعرض نافذ في عموم المنطقة بين العراق والسعودية التي توجد فيها قوات التحالف.

سكت قليلاً وسأل عن الوقت الذي أرغب فيه مغادرة معسكره.

نظرت في ساعتي مكسوراً، فوجدت الوقت متأخرا لهذا اليوم، فقلت يوم الغد سيكون مناسباً في جميع الأحوال، وتركت الخيمة حاملاً معي الكثير من مشاعر القلق والاكتئاب، أما هو فلم يخرج لتوديعي مشياً الى خيمتي كما فعل في المرة الأولى، ولم اشأ أن أسأل نفسي أو أشغلها بالسبب.



اقتربت الساعة من الحادية عشرة ظهراً، حيث اكتملت عند اقترابها جميع التحضيرات الخاصة بالتحرك صوب الحدود تبعاً لذاك المخطط المرسوم يدوياً. وَدعَتُ الآمر مجاملة، شكرته حسن الضيافة، وجهود

التحصيل على لجوء لم يحقق الحلم الموعود، فاكتفى بابتسامة فيها عتب ردا لهذه المجاملة البسيطة.

وضعت المخطط، وكتاب عدم التعرض بمواجهتي أسفل زجاج السيارة الأمامي. شرعتُ متوكلاً على الله وحدسي في السير باتجاه الحدود، حسب المسافات على عداد السرعة. أبقيت الشمس على يساري بزاوية تزيد عن الخمسين ساعياً المحافظة على استقامة الاتجاه.

ست ساعات كان فيها الصمت مطبقاً داخل السيارة، وكأن الواحد من ركابها الثمانية منشغل بأمر يختلف عن الآخر، باستثناء نجلاء التي كانت منشغلة بالتحرك في المكان الذي تجلس فيه، وكان متوسط سرعتنا ثمانين كيلومتراً في الساعة، لم نحد طوالها عن الاتجاه. نظرت من النافذة أراقب المشاهد الصامتة للصحراء التي راحت تتوالى أمام عيني لوحة بائسة، وبعد لحظات لاحت في الواجهة كثبان رملية، من فوقها أخذت لها الشمس الضخمة وضعاً لتغطس في تيه الصحراء.

حسابات المسافة والاتجاه واشارات الدلالة على المخطط لم تذكر أية كثبان. في تلك اللحظة عاودت مخاوف الطفولة المكبوتة ذاكرتي، فسألت من حولي عن الكثبان، لم يجب أحد بسبب عدم معرفتهم شيئاً عن المخطط وعن الصحراء. فأعدت السؤال بصيغة كمن يكلم نفسه:

- أين هو الطريق المعبد؟. فلم يجب أحد أيضاً، وقد كسا الخوف تعابير وجوههم.

اقتربت من الكثبان، استنتجت أن اجتيازها مواجهة مسألة صعبة بل مستحيلة، وان المناورة باجتيازها جانباً مجازفة قد تفضي الى مزيد من

التيه.

حاولت التفتيش عن خطأ تسبب في مواجهة الكثبان، عجز إدراكي المقيد بالقلق من اكتشافه في هذا المكان النائي من أرض العراق. خشيتُ من سير في التيه لهذا الليل الذي سيحل عن قريب، فأصبت بخيبة أمل ألزمتني الاستدارة والسير عكس الاتجاه السابق، وعلى حدسي وخبرات قديمة في تحديد الاتجاه تقديرياً.

مررنا في طريق عودتنا قسراً، على نياسم طرق مليئة بشظايا قنابل منفلقة من معارك مدفعية، دارت عن بعد قبل أيام، مبعثرة فوق الرمال، مدببة نهاياتها كالمسامير، ثقبت احداها الإطار الامامي الأيمن للسيارة، ومن بعد خمس كيلو مترات مَزقّت أخرى الاطار الخلفي الايسر.

توقفت حائراً، بعد الحاجة الى اطار رابع لإكمال المشوار من مكان لا تمر منه سيارات ولا بشر. سألت نفسي عن كيفية الخروج من هذا المأزق وسط صحراء لا ترحم، فلم أجد إجابة تخفف مقادير انفعالي قلقاً، سوى الاستمرار في السير على دولاب الحديد. وقبل الشروع بالسير تمنيت لو كنت نفسانياً لأسجل مشاعر قلق لف جسدي في هذا المكان النائي مثل سمك لفه شباك صيد جائر وسط البحر، فجاءت غيمة سوداء زادت من وقع البؤس، وضاعفت كم القلق، بعد أن عجلت من حلول الظلام قبل اكتمال المغيب، وأطبقت على المكان سكوناً مرعباً، ليصبح وكأنه قد خلا من كل هسيس، فأوجد في داخلنا كماً من الهم والاكتئاب لم نخبره من قبل، كذلك لونت وجوه البنات بصفرة مخضرة، كأن الدم توقف في عروقها عن الجريان، كما أنهت حركة نجلاء الطفلة التي لا تحب

الظلام، حتى غاصت في حضن أمها بلا حراك، إلا لعينين تفتشان عن سبيل الخلاص من ظلام مخيف.

شل القلق الغامر جل التفكير، الا من توقعات تتعلق بأشباح الصحراء، وقد اقتربت من عملية البلع، كما فعلتها مع غيرنا وردت أخبارهم عرضاً عند أهالي سوق الشيوخ. التفكير في البقاء داخل السيارة طوال الليل لا ينفع، وقد تأتي الأشباح في أي وقت تشاء. الاستمرار في السير على دواليب الحديد قبل حلوله هو الخيار المتاح لتفادي هذا وذاك، لكن السير بها على الرمال الوعثاء مسألة صعبة، بل وتقترب من المستحيل، لكن لا حل سواها من أجل الوصول الى الطريق السريع ومن ثم عوداً الى سوق الشيوخ.



ذَهبت الغيمة سريعاً فبانت شمس الصحراء قريباً من الغروب نعسةً، وقد أبقت خيوطاً منها كانت متناثرة على يميني، وتحول الحلم بسببها من حدود تأملتها سبيلاً في أن تنقلنا لذاك العالم الآخر، الى طريقٍ أردناه أميناً يعيدنا الى سوق الشيوخ. لكن الشمس الدالة على الاتجاه لم تصمد طويلاً، فنعاسها تحول الى غفوة مسن، وكأن الأشباح التي تكلم عنها أهل سوق الشيوخ قد ابتلعتها فجأة عند مرور غيمة أخرى دهماء، فكونت جواً يسوده التوتر، دفعني الى ممازحة نجلاء لتبديد تزايده.

ليل هذه الصحراء أليل، أين ما يولي فيه العابر وجهه تطارده حشود

الأشباح التي تنطلق مسرعة من خلايا الذاكرة المليئة بصور مشوهة عنها، وبقية مخلوقات تكونت غريبة من حكايات الجدة أيام زمان. ألزمتُ نفسي لأن أوقف انطلاقتها بقص الحكايات، التي بات نموها غزيراً مثل عشب هذه الصحراء في مواسم المطر، أردتها سلاحاً لمواجهة الخوف، فهي كذلك بالفعل، فتابعت قص الحكايات لساعات، وكذلك تتبع الأثر على ضياء السيارة، حتى دخلت رمالا صماء متحركة، لا يمكن السير عليها الا لجمال خُلقت للسير على هكذا رمال تنغرز فيها الأقدام. فانغرزت دواليب سيارتنا الأربع.

بكت نجلاء في حضن إمها، واصفرت وجوه البنات وكذلك، الأُم التي لم تمض على اصابتها بالجلطة القلبية سوى أيام.

وضعت يدي على مقود السيارة كي أفكر، لم تسعفني الذاكرة بشيء يذكر، نزلت منها عجلاً، درت من حولها مرتين، فلم أجد حلاً للخروج من تمسك الرمال بدواليبها الأربعة، وكأنها لا تريد الفكاك، ولا من أخرى جاءت مدفوعة نحونا بفعل الرياح الغربية لتستفيد من حاجز الريح الذي كونته السيارة لتبني لها كثباناً في المكان، فدرت ثالثة ورابعة، فهداني الخوف أن أحفر بيديّ حول تلك الدواليب الغائصة في الرمل، عساني أجد صخرة أضعها في الأثر، تساعد الدولاب لأن تتمسك بها في قفزتها الى الأمام، فكانت الكومة التي أخرجها ترتد أضعافها رملاً الى المكان تغطي الحفرة من جديد، وتزيد من كم الخوف، حتى كدت أتقيأ.

حل الليل تماماً، فكان ليلاً، هدوءه موحش، وكان القمر قد اعتلى مكانه في زاوية من السماء التي انتشرت في ربوعها قوافل النجوم، كأنه

صعد منبراً لينشر من مكانه ضوءاً على أشباح الصحراء، يدفعها الى الخروج من مكامنها. صحتُ من مكاني جالساً قرب الدولاب الأيسر، اطفئوا ضياء السيارة كي لا ينضب شحن البطارية، فانطفأ الضوء، ومن بعده زادت الوحشة. بقيت هكذا أحفر في المكان، أتنقل من دولاب الى دولاب آخر، حتى اكتشفت أن ما أقوم به مجرد إقناع لذاتي المتعبة من أني أفعل شيئاً، يبعدني قليلاً عن الاستسلام، ويقنع من حولي أني لم استسلم بعد.

فَتحَتْ شيماء باب السيارة دون استئذان. فقلت وأنا في طريقي الى النهوض من المكان الذي أقحمت فيه قسراً كحفّار قبور:

– ماذا تفعلين؟.

قالت:

– لابد أن أفعل شيئاً أساعد فيه. ثم جلست في المكان تحفر، واستمرت في الحفر الباهت، دقائق سمعتُ فيها قرقعة خبط غير نظامية على باب السيارة التي انفتحت، وصوت من نجاة يقول، اصعدوا فهناك أشباح متجهة الينا ركضاً.

دفعتُ شيماء الى داخلها وأغلقت الباب، ومن بعدها وجدت نفسي خلف المقود ثانية دون معرفة مني كيف تم هذا وبهذه السرعة غير المعقولة، لكني فعلتها، وبعد اتمام فعلها فتحت ضياء السيارة وأدرت محركها، لأوجد في ليل هذه الصحراء الهادئ بعض من ضوضاء لم تعتدها الحيوانات، ولا الأشباح. شاهدت مجموعة ضباع، اقتربت أربع منها، وقفوا أمتارا منا.

قالت شيماء:

- هذه الاشباح التي تكلم عنها أهل سوق الشيوخ.

وقالت نجاة:

- لا. إنها كائنات الرمال قرأت عنها في أساطير البابليين، تستيقظ بداية الليل، تلملم رزقها وتعود الى جحورها بداية النهار، وقبل أذان الفجر بالتحديد، ستبقى تراقبنا حتى حلول الأذان، اكتموا انفاسكم فهي تشم رائحة الأنفاس من بعيد.

كان لكلامهن وقع السهام على باقي البنات، حتى دفن رؤوسهن في جنبي أمهن التي باتت مشدوهة، فقلت اهدأوا إنها الضباع، ألم تسمعوا عويلها، هي تخرج ليلاً للبحث عن طعامها، تقتات على الجيف، لن تهاجم من كان واقفاً، ومن لم تشم في جسده رائحة الخوف.

قالت نجلاء:

-إني جائعة، ناولوني طعاماً سيقتلني الجوع.

فانبرت شيماء من مكانها رافضة إخراج الطعام من مكمنه، كي لا تشمه الكائنات المتربصة في الخارج، ناصحة بعدم شرب الماء كي لا نضطر الى الخروج لإفراغ المثانات في هذا العراء الذي تتربص فيه الأشباح.

في هذا المساء، وفي مساءات العتمة، حولت رأسي صندوقاً أعبئ فيه حكاياتي القديمة، اردتها اليوم لتتناسل في حوض هذه السيارة المطوقة بالضباع المفترسة تحت سقف ليل، أحسبها ملائمة للوصول الى نهاياته الكفيلة باختفائها من المشهد المرعب، فبدأت حكايتي الأولى، في اليوم

الأول لالتحاقي الى مدرسة عمران الابتدائية في الجمجمة، كان بيتنا قريبا من جدول النيل، وكان الحضور الى المدرسة مشياً، والبعض القليل يأتي على حمار يشده الى جذع نخلة من نخيل البستان الموسوم بـ «الرهيمية»، لم يكن من بين الطلاب آنذاك من يرتدي بنطالاً، فجميعهم (يرتدون الدشداشة)، أول مرة أرتدي فيها البنطال، وأنا في الصف السادس الابتدائي، كان يوماً فريداً أتذكر فيه الزملاء الذين تجمعوا حولي يتفحصون ذاك البنطال الباهت. لقد أخذت مني هذه الحكاية بتفاصيل انفعالاتها وأسئلة البنات ساعة من الزمن، أعقبتها بأخرى تتعلق بالالتحاق الى متوسطة الحلة، التي يستلزم الذهاب اليها شراء عجلة هوائية، فاشترى لي الوالد عجلة نوع (هير كلس) هولندية الصنع كانت مشهورة آنذاك، وكان عبد النبي صاحب المحل القريب من المدرسة هو تاجرها الوحيد في الحلة.

قطعت شيماء استرسالي بقص الحكايات قائلة:

- أبـي، ألم ترَ ضياءً لسيارات تسير على يميننا بمسافة بعيدة؟. فاتجهت أنظار الجميع الى اليمين ذاته.

كان ضياءً لأربع سيارات بالفعل، تسير بالرتل، خمنت حالها عسكرية، فبادرت بإنارة مصابيح سياراتنا بشكل متقطع، تطول مرة وتقصر مرة مثل لغة المورس في التشفير العسكري الذي كان سائداً في الحرب العالمية الثانية، وبعد تكرارها لما يقارب نصف دقيقة، جاءتني اشارة من إحداها كانت في المقدمة، متقطعة أيضا وعلى الصيغة نفسها، ومن بعدها تحول اتجاهها نحونا. عندها دبت الحياة في البنات المأسورات، واستيقظت

نجلاء من غفوة كانت تصطنعها للهروب من الموقف، وخرجت كلمة يا اللّٰه استنجاداً من ألسنة الجميع.

نظرت الى الضباع، وجدتها تتحرك في المكان هي أيضاً، وكأنها استدركت الخطر المحدق بها، وبعد أن تشاورت مع كبيرها الأقرب الى السيارة، وأدركت الفشل في اتمام الصيد الذي انتظرته الى ما بعد انتصاف الليل، تركت المكان كمن يجر أذيال الخيبة، وغاصت في قلب الصحراء.

❖ ❖ ❖

أربع سيارات، أزاحت بوصولها دثار الخوف، كانت دورية استطلاع مكلفة بمسح المنطقة، لم تعلن عن مهمتها، وَقفت الى جانبنا، نزل منها ضابط أمريكي، أشار الى أن أخرج رافعاً كلتا يدي، فنزلت منفذاً الأمر. انتبهت الى نفسي كأني أغالي برفعها، فأدركت مقدار الخوف الذي أعيشه والبنات.

نظر الى داخل السيارة، وعند مشاهدته العائلة، تراجع الى الخلف، وطلب انزال اليدين، ثم سأل عن الوضع، وبدلاً عن الاجابة عدت الى داخل السيارة لأخرج ورقة عدم التعرض التي زودني بها العقيد برادلي، وكذلك المخطط، فتعرف بتفحصها على كل التفاصيل.

قال:

– يمكننا نقلكم الى الخط السريع، ومن هناك تتولون امركم، نحن

غير مخولين اجتيازه بأي حال من الأحوال.

أجبته بعدم امكانية ترك سفينة نجاتنا وسط تيه الصحراء.

لم يفهم، فنوهت عن مهمتها في ايصالنا لما نريد هروباً الى السعودية، فنوه بالمقابل الى أن الحل الوحيد هو إخراج السيارة من وحلتها، ثم سحبها الى الطريق النيسمي غير البعيد عن هذا المكان، سبيلاً للوصول الى الخط السريع بسير مستقيم. شكرته وقلت:

– نعم هذا هو الحل الأمثل.

تأمل قليلاً ثم أشار الى جندي من مجموعته، ليربط سلك السحب المثبت في سيارة الهمر بسيارتنا الغاطسة في الرمل، وبعد أن فعلها قال:

– أركب، سنخرجكم من هذا المأزق.

سار بنا ربع ساعة ثم توقف، وأشار الوصول الى الطريق النيسمي المقصود وقال:

– لا تخرج عنه فهو كفيل بإيصالكم الى الخط السريع الذي تريدون.

غادَرَنا ملوحاً بيده، علامة على الرضا عن أداء مهمته التي لا صلة لها بالاستطلاع.

خرجت من صمتي بعد ساعة مسير، وجهت كلامي مباشرة الى أُم شيماء، سألتها فيما اذا كانت ترى في الأفق خِيَماً بيض تعكس أسطحها شعاع قمر نافذ من بين الغيوم المتفرقة مثلما أرى، تبين أنها ترى كذلك مثلما رأيت، لكنها تجد صعوبة في التمييز، فحسمت أمري بالتوجه صوبها خياراً هو المتاح تجنباً لموت التيه في هذه الصحراء، كأنها المنقذ من تلك الأشباح التي ما زلت أحسها تجوب الصحراء. قرأت عبارات

تحذير باللغة الانجليزية، تعني ممنوع الاقتراب من الأسلاك الشائكة المقامة كسياج لخمسين متراً، ساعدتني على فهمها شيماء معلمة اللغة الإنجليزية.

تقدمت اليها حذراً، فتحت الضياء العالي للسيارة ثم أطفأته، إشارة الى وجودنا قريباً من السياج، توحي الكتابات والعجلات وناقلات الاشخاص المدرعة أن المعسكر تابع الى الأمريكان. أجزمت بتبعيته هذه، اذ لم يبق معسكراً في هذه المنطقة تابع الى العراق.

اقتربت أكثر، تباطأت أكثر، ومع هذا فاقترابي الحذر دفع الجنود الموجودين في الداخل الى شهر أسلحتهم علامة تحذير من الاقتراب الأكثر.

قف مكانك، نادى الجندي الذي كان في المقدمة شاهراً السلاح. وهو في الطريق الى السيارة وسبابته على الزناد، توزع الباقون من الجنود نصف دائرة حولها، هدفاً ربما اعتقدوه معادياً، كأنهم عمالقة بكامل معداتهم الحربية، لم نتعود مشاهدتهم من قبل حتى خوض هذه التجربة التي لم تنفع بعد.

وجه جندي المقدمة ضياء خوذته علينا ونحن في داخل السيارة، أدرك قبل الاستفسار أننا عائلة تاهت في الصحراء، أطّلعَ على ورقة عدم التعرض، طلب منا البقاء في مكاننا وأبقى جنديين مسلحين لحين عرض الموضوع على الآمر المعني في هذا المعسكر.

عشر دقائق كانت فسحة الانتظار، حضر ضابط من هذه الوحدة، اعترض على ورقة عدم التعرض بالقول أن منحها للسكان المحليين، ليس

من صلاحية العقيد برادلي.

لكنه منحها، واطلع على أوراقي، وحصل لي على اذن بالسفر الى أمريكا، قلت بصوت لا يخلو من مسحة تعجب، فرد:

- سنصادرها وما عليكم سوى التحرك من هنا على الفور، لأن المنطقة عسكرية.

لقد أذعنت بسرعة دون أن أتكلم، وكأن لساني قد توقف عن النطق، قلت في نفسي، إنها ساحة حرب، وهم المنتصرون فيها دون جهد يذكر، سألته بعد أن انعتق اللسان من قيده، عن اتجاه الطريق السريع بصرة – ناصرية لأتأكد، وتركت المكان بعد تأشيرة من يده على الاتجاه، وتحديد المسافة عشرون كيلومتراً.

هنا خرجت أُمُ شيماء من صمتها متعجبة ومستغربة هذا الفرق الشاسع بين معسكرين أو بين آمرين لوحدتين تتبعان جيشاً أمريكياً واحداً، فيه الأول دعمَ وأوصى وأخذ بالاعتبار وضع العائلة ورغبتها الهروب خارج البلاد، وفيه آخر احتجَ، وتجهمَ، واعترضَ، لم يعر اهتماماً لعائلة تاهت وسط الصحراء، ولا الى اشباح فيها أخفت آلافاً حاولوا عبورها من قبل.

تَمتمتُ بصوت لا أريد سماعه من قبل المحبطين:

- هكذا هي قواعد الخسارة في الحروب.

المحبطون يتنفسون الصعداء، انتعشوا بظهور ومضات بعيدة لأضواء سيارات تمر بين الحين والحين على الطريق السريع، مؤكدة الأمل بالنجاة، ولما دققت بها وتأكدت منها فعلا لسيارات تمر على الطريق

المقصود، غمرني شعور لم أخبره من قبل قوامه الاعتزاز بالنفس، ومن أنني قد أنقذت العائلة من أشباح الصحراء، بسيارة كانت تتهاوى في سيرها مثل سلحفاة ضخمة.

لقد تغيرت صفرة الوجوه، وبدأت الحركة تدب في أجساد نجاة ونجلاء، ومع هذا فالظلام الذي بدأ يخف مع انبلاج الفجر، لم يمحُ من الذاكرة فكرة الأشباح في هذه الصحراء، وقصص أهل سوق الشيوخ عن ابتلاعها أجساد المئات من الأشخاص.



ترجلت نجلاء متحررة من قيود الجلوس طوال النهار، وغالبية الليل في سيارة تسلل الى داخلها الظلام حتى سكن جوفها، وامتد لأن يبسط على الطريق غلالته السوداء. وَقفتْ الى جانبي متشبثة بالإبهام الأيسر، كأنها أدركت وهي بهذا الصغر من العمر أن وجودها هكذا يساعد في وقوف أصحاب السيارات، لإنقاذنا من وحشة الليل وأشباح الصحراء. إنها مازالت خائفة من سواد الليل وعتمته. من جانبي استحسنتُ الفكرة، قبلّتها تشجيعاً لأفكار عرفت بها ثاقبة من قبل، كنت أحملها على كتفي مرة، وأضعها على غطاء المحرك الخاص بالسيارة مرة أخرى، استقوي بها وتستقوي بي. ونحن هكذا نتناوب دور الاستقواء، لمحنا ضياء سيارة من بعيد، فأعدتُ حملها على الكتف، وأعطيت اشارة تعني طلب العون.

اقتربت السيارة أكثر، بدت كبيرة من تلكم التي تسحب مقطورة،

جاءت وحيدة دون المقطورة، سائقها مستعجل يحث خطى الوصول الى المدينة القادمة، وربما يكون هو كذلك خائفاً مثلنا نحن الواقفون على جانب الطريق. أعدت الاشارة ثانية، فقلدتني نجلاء في اشارة بريئة جاءت صادقة معبرة عن الحاجة الفعلية للتخلص من هذا المأزق المخيف. خفف السائق سرعته ليتبين الموقف عن قرب، تردد في الوقوف خاصة وان الظروف السائدة على هذا الطريق لا تساعد على الوقوف غير المضمون، فقطاع الطرق كثيرون، والمنتفضون كثيرون، ورجال الدولة هم أيضا كثيرون، يحسب الماشي على هذا الطريق لوقفته ألف حساب.

كأن نجلاء أدركت هذا التردد، أو انها فهمته من خلال السيارات التي مرت ولم تقلل من سرعتها، فأطلقت صيحة اعتمرت كلمة واحدة (عمو) وأشرت بيدها اشارة معبرة عن عمق الخوف في داخلها.

وقف السائق على الفور، لا يمكن تفسير أسباب وقوفه، هل كانت تعاطفاً مع الطفلة وأبيها والعائلة التي لم يرها بعد؟. أم أن هناك دافعاً آخر أجبره على التوقف؟. إننا لا نعرف وهو كذلك لا يعرف، قال فيما بعد أنه وجد نفسه مدفوعاً الى التوقف. وجّهَ ضياء سيارته القوي على سيارة الفولفو، رأى بعينيه أنها قد مشت على دولاب حديد، عندها ركن على جنب، أنزل زجاج باب مقصورته، سأل عن الحال، فأجبت:

نريد الذهاب الى سوق الشيوخ، وقد انفجر اطاران من اطارات سيارتنا، ونحن الآن مصابون بداء العجز عن مواصلة السير، وبأمس الحاجة الى المساعدة اذا ما كان هذا ممكناً.

أقتنع السائق أبو حسام بالقصة التي قدمتها موجزةً. أبدى الرغبة

بتقديم المساعدة بإيصالنا الى تل اللحم بخيار وحيد هو سحب السيارة بحبل سلكي بعد أن تأكد أن مقصورة القيادة لسيارته لا تتسع لثمان أشخاص هم أفراد العائلة المعزولة على شارع سريع في ليل موحش جوار الصحراء.

الخيارات محدودة هنا والآن.

لقد بدأنا عملية السحب، صاحَبها ضجيج يسمع من بعيد. شرار يتطاير من احتكاك الحديد بالإسفلت، وكأنها ماكنة لحام.

تل اللحم ليس بعيد عن بداية السحب، نصف ساعة فقط أوصلتنا اليه، هو في الأصل منطقة تَجمُّع، تحوي على محطة وقود خالية من المشغلين، ومن الوقود، وعلى بيوت خشبية جاهزة «كرفانات» متروكة، تبدو وكأنها تعود الى شركة كانت تعمل في المنطقة، سحبت منتسبيها قبل حصول القتال. القليل من هذه البيوت فيه نور بسيط والغالب يلفه الظلام، وأفراد يتجولون هنا وهناك. وآخر يقف قرب سيارة كورونا، كأنه ينتظر شيئا ما. تبين أن ما ينتظره نقل الماره التائهين بأجر طلبه عالياً أربعون ديناراً لإيصالنا الى سوق الشيوخ، في وقت عده متأخراً عند اقتراب الفجر.

❖ ❖ ❖

رحب مازن بنا ضيوفاً عائدين من جديد، ترحيباً لا تقل حماسته عن أول مرة حضرنا فيها الى البيت، ظاناً أن الضيف الذي يعزه ألغى مشروع

الهروب، وعاد مناصراً الثوار في دفاعهم عن سوق الشيوخ من هجوم زادت قناعاتهم في حصوله إذا لم تسقط بغداد.

وما أن حط طائر الليل في هذا البيت من جديد، تركتُ ذاكرتي المتعبة من فشل المحاولة أثناء النهار، تسقط ما ينضج من شجرة الحكايات، وكان مازن يُلِمُ ما يتناثر منها، وكنت أغور حتى القاع في أخاديد زمن أبو غريب، وتلك الحيطان الكونكريتية الصماء والغرف التي لا تنطق، لكن مازن لم يعلق مثل كل مرة، تلفع بالصمت، ظل يتملاني بإمعان كأنه يراني أول مرة، ثم نحى الصمت قائلاً:

- أني فرح بالنجاة من أشباح الصحراء التي ابتلعت من قبلكم كثيرون حاولوا عبورها الى الطرف الثاني من الحدود. أرى ضرورة ترك الفكرة بكاملها، والاستعاضة عنها بالبقاء في سوق الشيوخ، لحين سقوط الرئيس.

سألت:

- من قال أو تنبأ بسقوط الرئيس؟.

أجاب:

- فكرة كررها حميدي الذي أصبح مستشاراً عسكرياً للسيد قاسم. هو من نهاه عن الخروج بمقاتلين لإسقاط مناطق لم تسقط بيد المنتفضين حتى الآن، بانتظار سقوط بغداد.

سألت:

- ماذا حصل للحرس الجمهوري وما آل وضعه؟.

أكد قائلاً:

- اننا لم ندخل مع قوات الحرس أي معركة، وهي غير موجودة في المنطقة، وان بغداد ستسقط في القريب.

ولما لم أتفق معه، قلت بعصبية:

- بغداد لن تسقط. سقوطها معجزة من اللّه....معجزة لا يمكن أن تحصل في هذا الوقت وفي هذا الزمان. إنكم ستُحسَبون من الأبطال إذا ما صمدتم أمام هذه القوات القادمة من بغداد لمدة أسبوع.

رد بثقة تحسب عالية:

- هل هذا معقول؟. لقد صمدنا أمام وحدات عسكرية، بل تغلبنا عليها في القتال، وسوف لا نختلف في قتالنا مع الحرس الجمهوري.

فأكملت استنتاجاتي قائلاً:

- صحيح أنكم سوف لا تختلفون، لكن الذي سيختلف هو الجهد العسكري الذي يقابلكم في ساحة القتال، أنتم لا تمتلكون فوق الأرض الرخوة سوى الحماس، وهو لا يكفِ وحده عاملاً للصمود في حال استمرار القتال. وتحولت في الكلام من الاستنتاج الى السؤال ومن بعده سؤال:

- أخبرني من أين لكم السلاح المتوسط والثقيل؟. أنتم لا تحتكمون الا على بنادق خفيفة.

- قل لي من أين تأتون بالعتاد اللازم لديمومة القتال؟. ومن أين تجلبون الوقود؟. وختمت كلامي راجياً عدم الزعل إذا ما قلت:

- ستكونون محظوظون، لو صمدتم اسبوعاً لا أكثر. حتى أني أشك بهذا المقدار.

هل هذا معقول؟. قالها مازن مستغرباً بطريقة دفعتني الى التأكيد:

- نعم هو عين العقل، وسترى بنفسك ما سيحصل في وقت ليس بعيد من الآن.

قول أرعب مازن الشاب الشجاع، عندما بين أن الخوف بات يتملكه بطريقة لم يألفها من قبل. فاعتذرت له وبينت أني لم أقصد اخافته، بل ذكرت حقيقة أعانتني على ادراكها معسكرات الجيش، التي تعلمت فيها تقادير الموقف، وساعدتني على ادراكها الأيام الثلاث التي عملت بها معكم، خَبرتُ فيها اساليبكم في القتال، واستعدادات لم ولن توصلكم الى حافة الصمود، ولم تهيأ لكم مستلزمات النجاح.

وماهي خطوتك القادمة؟. سأل مازن في محاولة لمدارات اليأس في داخله. فأجبت:

- إني سأعيد الكرة من أجل الهروب ثانية وثالثة، حتى أنجح في الوصول الى السعودية، أو تبلعني أشباح الصحراء، لأني واثق من أن أخباري لما يتعلق بمحاولة الهروب والوقوف معكم، قد وصلت الرئيس، وإذا ما خرجتُ من التجربة الاولى الخاصة بسجن أبو غريب بنصف عقل، فهذه المرة لم أسلم ولا العائلة التي لم يعد لي سواها شيءٌ في هذه الدنيا. هذا قراري ولن أتنازل عنه مهما واجهت من صعاب. سأحاول شراء إطارات، لأعاود الكرة من جديد، لقد اقتربتُ من فهم الصحراء. تصبح على خير اشعر بالنعاس، أريد أخذ كفايتي من النوم، سيكون يوم الغد طويل، وستكون حاجتي الى طاقة عالية لإكمال الاستعدادات الى الانطلاق من جديد مهمة.



أخذ مازن على عاتقه التفتيش عن بائع اطارات، في أزمة اختفى خلالها الباعة، وأصحاب المحال التجارية الرئيسة، وبعض مصلحي السيارات، فتكونت مشكلة بعد فقدان السيارة اثنين من اطاراتها الأربعة في تلك الصحراء التي بانت، وكأنها مزروعة بشظايا قنابل عنقودية، وانفلاقات مدفعية، بدلاً من نبات الصبار.

تجولنا في شوارع سوق الشيوخ التي يعرفها مازن جيداً، وفي منطقة صناعية طالما مر عليها من قبل، فلم نجد سوى محلاً واحداً لا يملك إطارات من النوع المطلوب، أما الباقين فقد أغلقوا محالهم وهم منشغلون بالخوف، وتطلعات التخلص من سهامه الآتية من اشاعات يتداولها السكان عن اقتراب هجوم الحرس الجمهوري على الناصرية، تمهيداً الى هجوم آخر على مدينة سوق الشيوخ التي احتلت لها مكاناً قريباً من الصحراء، تعدّها بغداد قاعدة انطلاق للراغبين في الهجرة من العراق الى خارجه، ومحوراً محتملاً لإيصال الدعم الى المنتفضين. وبدلا عن الاستمرار بالتفتيش قصد ابن عمه جابر صاحب الخبرة الجيدة في بيع وشراء السيارات، سأله المساعدة في تدبير اطارين لسيارة صديق عزيز، وحل لمشكلة أعاقت تحقيق حلمه في الخلاص من هموم العراق. لكنهم لم يتوصلوا الى حل معقول. الحل عسير، في أيام تعد هي الأخرى عسيرة.

سمع جابر هو أيضاً بقصتي لتأسيس جهد عسكري منتفض في المدرسة، ومساعي المشاركة مع أهل سوق الشيوخ في ثورتهم، ومحاولة الهروب. أيد الرأي القائل بأن لا شيء يمكن كتمانه في هذا السوق. دفعه تعاطفه الجاد مع مشروعي الخاص بالهروب الى اقتراح الاستفادة من

اطارات سيارته التي يطابق حجمها اطارات سيارة الفولفو، حلاً لمشكلة انسان ذاع صيته ضابطاً قيادياً شارك المنتفضين مسعاهم الوطني، لمَعَ اسمه في عموم المنطقة، وربما خارجها الى مدينة الناصرية على أقل تقدير.

بعد دقائق من هذا العرض المغري، ارتدت الفولفو حلتها الجديدة، أربعة اطارات نظيفة بحكم القليل من الاستخدام، فاستدرت حولها منتشياً بحلتها ثم فحصت الزيت، وعند تيقني من حل المشكلة تنفست مسترخياً، واشتريت ما يكفي من الوقود، تمهيداً للانطلاق بمحاولة أخرى جديدة مؤمل لها النجاح وان حل الظهر، وقتاً غير ملائم للانطلاق. أدرت المحرك، لكنه لم يدور، فكانت المشكلة هذه المرة ميكانيكية.

عسى المانع أن يكون خيراً، قالت أُم شيماء، دعنا نلغي المشروع برمته، والعودة الى الدبوني بانتظار ما ستسفر عنه الانتفاضة التي أحست وكأن شعلتها آخذة بالانطفاء، وكأن القدر لا يتوافق مع حلمنا، معتقدة أن ما حصل ويحصل مجرد عقبات أرادها اللّه حائلاً دون حصول الأكبر من فصول المأساة.

إن أُم شيماء هكذا تؤمن بالروحانيات، وبالقدر وخشية الأُم من عطل وسط الصحراء يقدمنا للأشباح طعماً سهل الابتلاع ونحن أحياء، فقالت بلفظ عليل، رأيت حلماً في الليلة الفائتة عن وحش بأنياب فيل يطارد نجلاء بين الكثبان.

أعوذ بربي من شر الشيطان.

ومن مجهول صحراء بت أخافها ومن بؤس الانسان.

سأصلي ركعتين لطرد الارواح الشريرة، ولإغماض عيون العسس التابعين الى السلطان.

أما أنا فعكسها تماماً لم أتعود التراجع، ولا أخاف الصحراء، ولا أومن أصلا بالأشباح، كما إن ألم السجن الذي لا تعرف تفاصيله، وكذلك صوت چاسب، والجري عارياً في نوبات التعذيب، وتلقي سيل من الضربات ما زالت انفعالاتها تلسعني وخزاً مثل أبر تُغرس في عمودي الفقري، جعلتني على العكس منها مصراً، ودفعتني لأن أسأل:

- هل يعقل التراجع حبيبتي؟. وأكملت القول:

- إن ما عانيته وما أتوقعه من معاناة العودة إن حصلت تزيدني إصراراً على مواصلة المشوار الى آخره. لا، لن نعود الى الدبوني ولا الى أي مكان في العراق، سنجد حلاً لهذا العطل الميكانيكي. إنه ليس فأل سيء كما ترين. العودة يا حبيبتي موت محتوم ليس لي وحدي، بل لنا جميعاً، لو كان الأمر يتعلق بيّ لطاوعتكم وعدت الآن. ان الأحداث الجارية عزيزتي ستضاعف الشر في عقل الشيطان، ستوقظه من غفوة يراها مؤقتة، سيتجه الينا من جديد، وستكونون من بين ضحاياه هذه المرة.

عند هذا القول استسلمت أُم شيماء لقرار لا رجعة فيه، وعاودت تكرار عهد قطعته على نفسها في أن نكون سويةً، يؤازر بعضنا بعضا فيما نعمل. هي في الحقيقة لم تتعود مخالفتي في اتخاذ القرارات.

اتجه مازن بعد سماع أطراف الحديث الذي دار بيننا الى بيت أحد الميكانيكيين المعروفين في سوق الشيوخ، جلبه في السيارة الكورولا التي

استولى عليها من مقر الشعبة الحزبية، بعد أن تركها صاحبها وهرب من المقر قبل سقوطه بساعات.

أجرى الميكانيكي القادم فحصاً شاملاً، فوجد العطل في مضخة الوقود. عطلاً يستلزم تبديلها، وهي غير موجودة بين الأدوات التي اعتاد ابقائها تحوطاً للحالات الطارئة، وقد لا تكون موجودة في عموم سوق الشيوخ. قال مثل هكذا سيارات قليلة الانتشار في المنطقة، وأي مادة يراد تبديلها تُجلب من الناصرية.

صدمة أخرى أجلستني في المكان أفكر في حل.

الحل الذي وجدته مناسباً شراء سيارة وان أقتضى الأمر صرف كل الرصيد الذي نحمله معنا لعاديات الزمن، وها قد حلت أولى العاديات لهذا الزمن الصعب. لكن مازن العارف بشؤون المنطقة، لم يؤيد عملية الشراء في مثل هذا الوقت الذي يدفع المستغلين الى اصطياد أهل الحاجة ومضاعفة الاسعار، وبدلاً من الشراء أرتأى مبادلة السيارة الحزبية الكورولا المستولى عليها من قبله، بسيارة الفولفو قائلاً:

- سأبقي سيارتك عندي الى أن تعود، أو يأتي أحد من طرفك يستلمها إذا ما هدأت الاحوال وسقط النظام. ثم أنهى مقترحه بابتسامة المتمتع بنشوة الانجاز في ظرف صعب، وبعض كلمات منمقة لتلطيف الأجواء:

- هذه سيارة حزبية وأنت حزبي سابق، دفعت اشتراكات بقدر سعرها وربما أكثر بكثير، لك الحق بها بما يفوق حقي رجل لم أنتمِ الى الحزب. خذها وأتكل على اللّه، سأتخلص منها راضياً، طالما أشعرتني سياقتها بالخجل.

لقد نـزلَ مقترح مـازن عليّ وقع نسمة هـواء بـاردة في عز الصيف. دفعني على الفور الى اعطاء مفاتيح سيارة الفولفو، واستلام مفاتيح الكورولا كذلك على الفور، فهي الأصلح لعبور الصحراء، كونها جديدة وإن صغرت في الحجم قليلاً عن السيارة السابقة.



اجتياز الحدود

سأوصلكَ بنفسي الى الخط السريع، الى نقطة تدخل منها الصحراء المعروفة بالتيه، وأعود الى أهلي، من حيث أتيت لأقص عليهم ألم الخشية من حصول التيه، ومن سرف دبابات قيل انطلقت من وحدات مختلفة للحرس الجمهوري شرعت من بغداد، قالها مازن قبل وضع أقدامنا في سيارة الكوريلا سفينة النجاة مع بداية الصباح.

قلت:

- الخط السريع ليس بعيد، والوصول اليه بات واضحاً من قبلي وضوح الشمس، وسهلاً بعد التنقل عليه رواحاً ومجيئاً عدة مرات جعلتني عارفاً كل مطباته والشقوق والعلامات التي أزالها العساكر الذاهبون الى الحروب يتمنون النصر، والآتون منها موجوعون لعدم تحقيقهم النصر.

قدرت الوقت ساعة تكفي زمناً، لإيصالنا الى المنفذ المثبت على المخطط وحيداً لدخول الصحراء، تضاعفت الساعة مرتين فأصبحت ثلاث، بسبب إيقاف السير على الجزء القريب من قاعدة علي الجوية نتيجة التنقل المكثف للقوات الامريكية في المنطقة.

حل الظهر وكأن حلوله جاء غير متوقعاً، لا أريده وقتاً لدخول

الصحراء. ومع هذا لم أعد أفكر بالتوقف عند أنتصاف الطريق، لا أحب الحلول الوسط، فدخلت جوفها المفتوح من جهة تل اللحم، نقطة وضعتها دالة على المخطط مناسبةً للشروع، وقد ارتسم في عينيّ بعد اجتيازها عشرة أمتار لمعان ابتسامة فكهة. أحسست قدرة فائقة للتغلب على صحراء طالما فكرت في قهرها من أيام الشباب، عندما اضطررت الى عبورها على ظهر حمار برفقة مهرب، عائداً من سوريا الى العراق عام ١٩٥٦. تذكرت المكان الذي توقفت عنده، وقربة الماء المحمولة على ظهري، والمهرب السوري الذي سلمني بضاعة ثمينة الى آخر عراقي لم يتحرك، ولم يسمح امتطاء حماره ليلاً، الا بعد استلام المبلغ المتفق عليه عشرة دنانير عراقية. تذكرت دوافع الهروب آنذاك والعودة منه كادراً حزبياً نشطاً، قارنتها بدوافع الهروب لهذا اليوم سفيراً سابقاً، ومديراً حالياً، وإصراراً على ترك الوطن الذي يحكمه حزب انتميت اليه مبكراً وقد خان أمانة الانتماء، غدر بمن انتمى اليه، فقررت تركه وطن، بلا ميلٍ للعودة اليه من فرط ما أسدى لي من عذابات.

أحسست في هذه اللحظة التي أدخل فيها جوف الصحراء مهموم بويلات المجازفة، من أن عذاباته ما عادت تحزنني، بل حبه الماثل في داخلي.

هكذا تراءت لي الذكرى وتداعياتها، كأني وأنا أستذكر وقائع محاولتي السابقة في اجتياز الصحراء، إنما أمنح نفسي قوة إضافية للسير في طريق المحاولة الجديدة. ضحكتُ على هذا التضاد.

تمتمت كمن يخشى البوح بسر خطير حتى لنفسه:

- سأبلغ الحلم الموعود.

- ماذا؟، قالت أُم شيماء ثم سألت عن مخارج الكلمات غير المسموعة.

رفع زير الحكايات رأسه فتهدلَ منه اللسان، وكاد ينهمر غيث الحكي، فأشعرني حاجة ملحة الى التفريغ من مخزون كبته الملآن، لكني تمنعت عندما أدركت أن اتيانها في هذا الوقت وقبل اكتمال مشروع الحلم بالهروب، سيكون مجرد ملء فراغات تركها الإصرار على تحقيقه في ذاكرتنا المهلهلة، وعندما ألحت أُم شيماء على كسر التمنع قتلاً للوقت الجاثم على صدورنا في هذه الصحراء، قلت في محاولة مني لتلطيف الأجواء:

- لا تشغلي بالك، لقد تذكرتُ شيئا يعود الى ثلاثة عقود ونصف من الزمان، نتيجته مفارقة لا تحصل حتى في الأفلام. كررت عليها القول، ألا تشغل بالها فالعقل مليء بالمفارقات.

بانت السيارة الكورولا التي استبدلت بسيارة الفولفو سفينة نجاة نشطة في ابحارها، شجعتني على دفعها بسرعة جاوزت المائة كيلومتر في الساعة، فتناثرت تربة الارض الرملية، قالبة بإطاراتها النظيفة وجهها الأجرد.

حلقتُ بعينيَّ في مرج السماء المفتوح وامتداد الصحراء، فاصطدمتا ببعض المرتفعات الرملية البسيطة، وقليل من الأشواك. نظرت الى عداد السرعة والمسافة التي قطعتها خلال أربع ساعات، ومع هذا لم الحظ علامات تدل على الطريق المثبت في المخطط، معبداً يؤدي الى نقرة السلمان.

أبو شيماء انتبه، هناك اشارة متقطعة بضياء صادر من جهة اليمين، قالت أُم شيماء، فقللت السرعة الى النصف، لأدقق في النظر صوب الضياء، فتبين لي أنها ناقلة أشخاص مدرعة، تعني إشارتها أمر بالتوقف في المكان الذي نحن فيه.

وقفت في المكان، بقيت جالساً خلف المقود بانتظار ما سيطلبه العسكري الآتي، سيد هذا المكان وجل المنطقة في هذه الحرب. أقترب منا، ظهر من فتحة مدورة في أعلى الناقلة المدرعة، عسكري، من قوات التحالف. أعطى الاشارة بالتوقف على مسافة يمكن من حافاتها تبادل الكلام بالصوت.

كانت السماء قد هدرت بالرعد طوال الليلة الماضية، فأعطت الشمس دفئاً لذيذاً في النهار، وصفاءً ساعد على تمييز الأشخاص والاشارات من بعيد. تأكدت عن قرب أن العسكري القادم الينا من تل على أرضنا العراقية بريطاني. أشار لنا هذا البريطاني إشارة فهمتها إطفاء وجوبي للمحرك، فاعترتني رعشة أحسستها باردة عند إدارة المفتاح باتجاه الإطفاء تنفيذاً للأمر. هممت بالنزول بعد تأكدي توقف المحرك عن الدوران لتبادل الكلام، فتلقيت اشارة أخرى تعني البقاء في داخلها.

سأل الضابط البريطاني بلغة انجليزية بسيطة عن وجهتنا، وقبل أن يحصل على الاجابة المطلوبة، أكد أننا نسير في حقل ألغام غير مؤشر، وأكمل:

- سأسير في ناقلتي هذه أمامكم. اتبعوني بمسافة لا تقل عن المائتي ياردة. سَيّركم يكون على الأثر الذي تتركه إطارات ناقلتي، وإذا ما

شاهدتم اختلاف بسيط بقشرة الأرض، يعني احتمالات وجود لغم زرعته القوات العراقية قبل انسحابها.

ترجل من ناقلته، وصف اللغم والعلامات الارضية التي تدل عليه، وأكمل ما بدأه:

- عند مشاهدتك لغماً أو تشك بوجوده على طريقك تَوقفْ في مكانك، سنعود الى معالجته على الفور.

بعد هذه المحاضرة الموجزة وسط رعب التواجد في حقل ألغام سار الضابط بناقلته بطيئاً، توقف بعد ربع ساعة مسير، ترجل من على ظهرها معلناً انتهاء حقل الالغام، وانهم في هذه اللحظة خارجه. كان حقلاً يمتد يميناً أميال عديدة، وكذلك الى الشمال.

سأل بتمعن هذه المرة عن الوجهة التي اليها نريد، اطلع على بعض الأوراق، والنوايا وقليل من تفاصيل الحلم. أمعن النظر في المخطط الذي سرنا على هديه. شك في الاتجاهات التي أوصلتني والعائلة الى هذا المكان، قارن بما عنده من خرائط مثبت عليها توزيع القطعات الحليفة على عموم الأرض العراقية، أكد أن السير هو في الاتجاه الخطأ، وان هناك انحرافاً عن الاتجاه الصحيح بمقدار ثلاثين درجة الى اليمين، هو من تسبب في الابتعاد عن خط السير المقصود بحدود خمسين ميلاً، ثم أكمل حديثه بثقة عالية قائلا:

- ان الاستمرار في السير لساعتين في الاتجاه الذي تسيرون عليه سيوصلكم الى منطقة عين التمر في محافظة كربلاء، التي تتواجد عليها قوات عراقية.

عـاود النظر الى المخطط، كأنه يفتش عن سبب لهذا الانحراف. ابتسم بقوة، وهو كذلك يبتسم، أكد بالثقة ذاتها ان المخطط صحيح، وان سبب الانحراف هو اختلاف التقدير الخاص بالمسافة بين الأميال والكيلومترات.

- نعم، ماذا تقول؟.

كرر قوله السابق:

- إن المسافات قد وضعت على المخطط في الأصل بالأميال بحسب النظام الأمريكي، بينما الاستخدام الفعلي على الأرض، والتدقيق على عداد السيارة كان بالكيلومترات، كما هو النظام المعمول به في العراق. ألم يكن هذا صحيحاً؟.

- نعم إنه صحيح بالفعل.

أكمل قوله:

- نحن والأمريكان نتعامل في قياساتنا للمسافات بالأميال، الأمر الذي تسبب في إحداث هذا الانحراف.

من جانبي صَمتُ بدهشة مرة، صمتاً فيه كثير من الحيرة والتوجس، وخفايا أسرار، وعندما فككت قيده سألت عن الحل؟:

- الحل يا سيدي هو التوقف عن السير بذات الاتجاه، لأن الحدود التي تقصدها باتت بعيدة، لا يمكن بلوغها قبل حلول الظلام، كما لا تصح المجازفة بالاستمرار في التنقل ليلاً مع عائلة بينها أطفال، والوقت أقترب من المغيب. ليل صحرائكم خطير، لا أنصح الخوض في تجاربه، أنتم أهل العراق أعرف بغدر صحرائكم.

أحسست وكأن جبلاً من الهموم فوق ظهري بات يحنيه قبل الأوان، وأحسَّت شيماء وكأنها والبنات على حافة منخفض عميق وسط هذه الصحراء اللعينة، يكاد يبتلعهم.

اتكأتُ على جانب السيارة حائراً، في موقف صراع بين المجازفة بمواصلة السير ليلاً بعد تعديل الاتجاه وتجربة أول أمس لم يطويها النسيان، وبين العودة الى نقطة الصفر والبدء من جديد.

أدرك البريطاني صعوبة اتخاذ القرار، وحيرة العودة الى نقطة الصفر، ابتسم الى البنات اللواتي يحملقن بوجهه الأبيض، يتابعن كلماته بقلق بالغ، حاول اعانتنا على اتخاذ القرار الصائب، فقدم مقترحه العودة الى مكان أمين نقضي فيه الليلة، والبدء بالسير من جديد على المخطط بعد تحويل الأميال الى كيلومترات. وعندما تيقين من اقتناعه بالاقتراح أشار الى اتجاه الطريق السريع ناصرية بغداد، وبالذات تل اللحم الذي نعرفه علامة مميزة لنا، ونقطة انطلاق تكررت من عليه أكثر من مرة.



كانت ظلال سيارتنا تمتد الى الأمام رويداً كلما اقترب المغيب، وكانت الرمال تتناثر من حولها مسرعة، ويتناثر معها في الافق الفسيح نبات الصبير.

عم السكون، فما عدنا نسمع أصوات كانت تأتينا من قريب أو بعيد.

بجوارنا كاد المغيب أن يكتمل في نصف المسافة الى تل اللحم، وكلما اقتربنا منه يستوي على السماء احمرار شفيق يعطي أمل، ويصيّر الهواء أكثر برودة وأزكى رائحة.

ها هو تل اللحم، قلتها مدركاً أن ليله كئيب، وان الصمت يخيم في ربوعه مع التحام ظلمة الليل فيزيده وحشة. البيوت الطينية والأخرى الخشبية باتت مختلفة عن الليلة التي مررنا بها قبل يومين، كأن أهلها قد غادروها. لم تعد مسكونة، ولم يعد الشباب يلهون في باحاتها الواسعة كما كانوا قبل الحرب، كأنها أصبحت مرتعاً لتلك الأشباح القادمة من الصحراء مع بدايات الليل. محطة الوقود الوحيدة مقفلة كما هي منذ يومين وما زالت كذلك، قدّمَ إقفالها اضطراراً فرصاً جيدة لبعض الباعة الحالمين بتطوير تجارتهم من تهريب الوقود، والانتقال الى مصافِ الأغنياء. لم لا؟، والتاريخ القريب يشجع الحالمين ليكونوا أغنياء، حتى إن كثيراً من أغنياء العراق الجدد هم تجار حروبه التي أغنى وقوعها فقراء وأفقر أغنياء، وسحق الواقفين وسطهم من الموظفين والاساتذة والعلماء.

لكن باعة تل اللحم مختلفون، لا يمكنهم تحقيق حلم الغنى، بدايتهم كانت ساذجة، تأسست على مزج الماء بالوقود.

البيوت الخشبية المبعثرة بعضها متروك، قليل منها حافظت على شبابيكها وأبوابها، وعلى مواقعها التي كانت عليها قبل يومين. شعرت بوقوفي أمام إحداها بنثيث من كآبة انفعالية عبرت من داخلي مثل غيمة راعدة، وابقت عيناي تحرثان في بحر الصمت والظلام، خشية ان لا أجد مكاناً للبنات، وحصول اعتداء علينا في هذا الليل الموحش.

طرقت الباب التي صمدت باقية على حالها، تأكدت من عدم وجود أحد في الداخل. أعطيت العائلة إشارة النزول من السيارة والبدء بالتنظيف وتهيئته للمبيت، ليلة واحدة قد تكون الأخيرة لهم في هذه التجربة المريرة.

اشترك الجميع في حملة تنظيف لم تستمر طويلاً، فالبيت عبارة عن غرفة واحدة بمساحة لا تزيد عن عشرين متراً مربعاً. وضعوا على أرضه الخشبية أفرشة بسيطة كانت معنا، فشدهم الى دواخلهم التعب وارهاق المجازفة في السير بالاتجاه غير الصحيح، وإعياء الملامة والخوف من المجهول، وكذلك من أشباح الصحراء، ليغطوا في النوم دون تناول العشاء.

حاولت قتل الوقت بالاستماع الى نشرات الأخبار العابرة من المذياع الخاص بالسيارة حتى لم أعد راغباً برفع أصابعي من على مزولة الدلالة الخاصة بالإذاعات العالمية، كمن يفتش عن أمل ولو بسيط ينبئه بتأخر هجوم مقابل تعد له قوات الحرس الجمهوري على الناصرية وعموم الجنوب العراقي، يعطي الفرصة اضافية للبدء من جديد، وخوض تجربة العبور الثالثة للحدود. وكنت بين النشرة والنشرة أهم باسترجاع بعض الأفكار التي قاومت آليات الاسترجاع من اللاشعور، عساها تبقيني واعياً أصارع النعاس حارساً لهذه السيارة أو لسفينة النجاة الوحيدة، لا أريد خسارتها على يد أحد السراق المتربصين، ولا أريد انتهاء المشروع وتبدد الحلم الذي عشت من أجله ست سنوات. أعطاني الاحباط عزماً إضافياً، وأبعدني التوارد المتوالي للأفكار عن الاستسلام الى النوم،

وادخلتني الذاكرة في نفق الزمن البعيد الى ليلة ذهبت فيها قبل عام من الآن الى بيت العقيد سرمد، زميلي في السجن وفي الفوج المظلي الأول. تذكرت خطوات دخولي بيته في الأعظمية كأني أسمع وقعها، وطلبي منه الخروج الى الحديقة التي شاخت أشجارها من الاهمال، لمناقشة أمر هام يتعلق بمصير البلد. تذكرت كذلك جميع التفاصيل والاستجابات، ورد سرمد الذي جاء بصيغة سؤال:

– ما هو الأمر الهام الذي جاء بك في هذه الساعة من الليل ؟.

قلت:

– العودة الى العمل السياسي السري بالضد من الرئيس، وحدنا الحزبيون المتخرجون من أبو غريب، قادرون على تجميع باقي الحزبيين الخيرين والوقوف بوجهه.

رد يومها سائلاً:

– عن أي عمل سياسي تتكلم والرئيس مد أنفه في أحشائنا؟.

– أية سياسة هذه التي يحاول كل من في مركبها التجذيف على مزاجه، ويريد كل من جلس في مقصورة قيادتها أن يصفق له بعد كل كلمة ينطقها، ويضع كل حارس من حراسها في حجرة بندقيته رصاصة، مستعداً أن يطلقها على رأس من لم يصفق.

– هل نسيت ما حل بنا ونحن لم نعمل شيئا بالضد من وجوده؟.

– ماذا سيعمل لو وصلته أخبارنا؟.

لم ينتظر مني الجواب، إذ أجاب هو عن كل أسئلته قائلاً:

– سيبيد عوائلنا هذه المرة. ألم تفكر بالبنات اللواتي أنجبتهن؟.

سأحسب أني لم أسمع شيئاً.

توقف قليلاً عن الكلام وقد تجمع ألم السنين التي قضاها في أبو غريب من حوله، كمن يريد استعادة تركيزه ليقول شيئا مهماً. نجح أخيراً في استعادته عاملاً مساعداً لإكمال كلامه:

– لقد أخذت المخابرات ولدي زيد من بيتي يوم أمس ولم يعد حتى الآن. لقد اقتادته مفرزة على رأسها چاسب. لم أنسَ هذا الوحش الكاسر، وذاك الغموض في داخله والقسوة، ووقع الضرب على الظهر التي لم يحسنها رجل مخابرات قبله. ولم أنسَ كل ضربة منه يوم كانت تدخلني في نوبة صرع هستيري، أعتقد صعوبة الخروج منها، وعندما أخرج أصلي كي لا أعود اليها ثانية، لكنه يعيدني قسراً، وأزيدك علماً أني أعيش لحظات العذاب ذاتها. مازالت عصاه توجعني حتى في المنام. أي مفارقة هذه، التي سيتحمل فيها الابن ذنوب أب لم يرتكبها في الأصل؟.

– آه ربي سيواجه العذاب الذي واجهت. كم أتمنى لو لم أغادر أبو غريب ليحول بقائي في الزنزانة دون دخوله اليها. ما الذنب الذي أرتكبه سوى أنه ابن سرمد السجين السابق في ذاك السجن الذي كان يحوي عشرات الالاف من المشتبه بهم والذين يتواجد بينهم آلاف من الأبرياء، اذ لا وقت لأجهزة الحكومة المشغولة بالحرب التدقيق في التهم الموجهة لهم، ولا الى محاكمتهم، بعد أن وضعت النجاة من الحرب التي دخلتها لاعتبارات شخصية همها الوحيد، وكذلك تثبيت حكم من أمر بدخولها؟.

– هل هذه عدالة ؟.

– لا أستطيع استيعاب مجيئك هذا اليوم لاهثاً مثل عداء خاسر، وفوق

لهاثك الناشف هذا تريد إعادة تاريخ أسود في حياتنا. إنهم يا سيدي لم يتركونا بحالنا وإن تركناهم. ثم ان الحزب حسب قناعتي قد أستُخدمَ أداة هدم سلمت الى شخص الرئيس، فاستخدمها بامتياز. أمر غريب وبعد كل هذه الأحداث والخبرات تأتيني مدفوعاً بانفعال أهوج، وراء عمل في الحزب ذاته، والمبادئ والأفكار ذاتها. كيف تأتيني بهذه الساعة وتعرف جيداً أنهم يراقبون حتى أنفاسنا؟. وفوق هذا تطلب العودة الى العمل السياسي بالضد من وحوش، بَنَت مواقعها بطريقة لا يمكن الاقتراب منها عراقياً، ولا حتى اقليمياً. آه لو تعرف ما بداخلي؟.

لم أكمل باقي المشهد الذي تداعى من سطح الذاكرة مثل فيلم وثائقي مسجل بدقة، وبان من أمامي مشهداً آخر واقعياً هذه المرة، ألحظ فيه رجل يتجه صوب السيارة، شاهراً سلاحه بهيئة ثائر، لباسه المدني والكوفية التي وضعها على رقبته، وان كان ملتحيا تعطيه انطباع أنه ليس من بين المنتفضين المتدينين.

اقترب مسافة تكفي لسماع السلام الذي ألقاه وسأل:

– لمَ التواجد هنا في هذا الليل الموحش؟.

وضعت قبضتي على العصا (التوثية) التي كانت سلاحي الوحيد للدفاع، وهممت بالترجل من سيارتي، ومعها قلت:

– أني عابر سبيل وعائلتي، حل علينا الليل في دياركم هذه، لم يكن لنا من بد سوى الانتظار، فوجدنا مكاناً لنا حتى الصباح، عساه يأتي لنغادر دون عودة هذه المرة.

بدا صوتي لهذا الرجل القادم، كأنه مألوف، فأرخى قبضته من على

السلاح، وحث الخطى ليتقرب أكثر وبسرعة أكبر، كمن يريد تمييز صاحب الصوت ليؤكد ظنه، ومن جهتي أكملت خطوة الترجل منتصباً مستعداً للدفاع، هززت العصا، اتخذت وضعاً اعتقدت أنه يمكنني من تفادي هجمة لمسلح ببندقية لم يستخدمها حتى اللحظة، وعندما أقترب وبان شكلي واضحاً قال:

- من؟... أبو شيماء.

- نعم هو أنـا، وسألته ألم تكن أنـت الرفيق ماجد مسؤول الحزب الشيوعي في المنطقة، ومن ثوار الانتفاضة الذي نظمناه في المدرسة ؟.

- نعم هو أنا. ثم انحنى ليعانقني وسط المسافة التي كونها الحذر بيني وبينه.

أعاد سؤاله عن أسباب التواجد هنا وفي هذا الوقت، بصيغة أخرى تنم عن قدر من التعاطف والاستغراب، دفعانى الى شرح محاولة العبور الفاشلة للحدود مرتين.

من جانبه قال دعنا من هذا الآن، وتعال معي الى بيتنا الخشبي الذي على يمينك، بغية الاستراحة، وبالمرة التعرف على رفاق جئنا سوية بمهمة اصطياد القادة البعثيين الهاربين من مواقعهم، حتى اننا وعند مشاهدتنا سيارتك الكوريلا المعروفة بعائديتها الى الحزبيين من أعضاء الشعب، وضعناك واياها هدفاً ثميناً للصيد. ثم غيّر حديثه قائلاً، تعال لتشرب الشاي، ومن بعده عد الى عائلتك لتأخذ قسطاً من الراحة، وسنقوم نحن بحراسة السيارة، لا تقلق فهي وأنتم بحمايتنا الآن.

قبل خطوات من بيتهم الخشبي حاول تلطيف الأجواء بالقول:

- ألم تر كم هي المفارقة عجيبة، نحن الشيوعيون نحميكم أنتم البعثيون، وحزبكم أحل ذبحنا بطريقة بشعة منذ مجيئه الى الحكم أول مرة عام ١٩٦٣، وما زال ينحر رقاب رفاقنا كلما تمكن من أحدهم.

أكمل كلامه، فخشي من سوء الفهم، حاول حرف الحديث بالقول ولو أنك لم تعد بعثياً، ولا يمكن عدك من البعثيين.

❖ ❖ ❖

بدأتُ نشيطاً كالعادة، البدلة الكاملة، وربطة العنق الزرقاء، وسيجارة الكنت أخذت مكانها في الفم، دققتُ في وضع السيارة ماراً على الاطارات، ومياه التبريد وزيت المحرك، في الوقت الذي احتلت فيه البنات أماكنهن في داخلها، يتأملن معي أن تُكمل مهمتها سفينة نجاة، فتكرار الفشل احباط قد لا يخرج المحبط من حاله بسلام.

تثاءبت نجلاء. دعكت عينيها بكلتا يديها، وكأنها لم تشبع حاجتها الى النوم، فالساعة لم تبلغ السابعة صباحاً، حيث البدء بهذه المحاولة الثالثة التي أردتها مبكرة، على غير العادة التي جرت متأخرة نسبياً في المحاولتين السابقتين. تذكرتُ الشباب صائدي القادة الحزبيين، فذهبت الى مكانهم، وأنا أودعهم، شاكراً موقفهم وحراستهم سفينتنا، قلت:

- سوف لن تجدون ما تصطادونه، فالطرائد على هذه الأرض تتلون كالحرباء، والصيادون وأنتم منهم لم يتعودوا الانتظار، طريقتكم هذه فيها قدر من الانتقام، والانتقام بحد ذاته فعل يجر الى مثيله، وهكذا

ستبقون بحال من الدوران في محيط دائرة مغلقة نتيجتها خسارة لكل أهل البلاد.

رد السيد ماجد:

- لقد حضرنا الى هذا المكان وفي داخلنا جزع، عملنا لمدة طويلة تحت الأرض أفقدتنا القدرة على الانتظار، وجدنا في الصيد فرصة مناسبة لأن نظهر، ونخرج محتويات معاناة ثلاثين سنة من البطش وكأننا لسنا من أهل الأرض. ثم ليس لدينا ما نخسره، بعد خسارتنا الوطن الذي نريده حراً، شعبه سعيد.

توقف عن الكلام برهة وسأل:

- ألم يكن خروجك منه في يوم مثل هذا خسارة؟.

ثم أجاب بنفسه على السؤال:

- توكل وسنتذكرك واحدا منا خسرناه في غفلة من هذا الزمن الصعب.

عدت الى سيارتي حاملاً عجز عن الرد وحيرة كلام كان صحيحاً، في داخلي تصميم لأن أكمل المشوار، ليس لأنه صحيح، بل هروب من غير الصحيح وفشل في اصلاحه. وضعتُ المخطط في الجهة المقابلة لمقود السيارة الذي أجلس خلفه بعد تحويل الأميال الى كيلومترات، لا اريد تكرار الخطأ هذه المرة، فالوقت لا يسمح بالتكرار، والبنات اللاتي سايرن المشروع من دون أي سؤال، أحس وكأن في عقولهن ألف سؤال، وكأن التكرار الحاصل للمحاولات جعل حركة الزمن من أمامهن بطيئة، لابد من تسريع وقعها لتفادى سيل الأسئلة، التي لا اريد سماعها قبل خط

الحدود.

انطلقت سريعاً، فتطايرت رمال الصحراء من خلفنا عالية، مكونة سحابة غبار تشاهد من المتبقين في تل اللحم ومن صائدي الحزبيين الكامنين، مشفوعة بدعاء العبور، وتحقيق الحلم الموعود.

بانت المسافة شاسعة بين تل اللحم وبين طريق فرجينيا الذي رسمه العقيد برادلي آمر كتيبة الاستطلاع في اللقاء الأول، خلال المحاولة الاولى التي سجلت فاشلة، طريق معبد بالإسفلت كما ثُبت على المخطط ذاته، يمتد الى قضاء السلمان المعروفة بسجنها المشهور، معزولاً عن العالم من أيام الملكية، أعرفُ أن من يصله سالماً يضمن اجتياز الحدود بأمان، ويعرف العقيد برادلي هذا جيداً كما اشار وأكد أنه، والمنطقة المحيطة به مؤمنة من جيوش الحلفاء.

كان السكون رهبة آسرة، لم تجد عيناي خلال السير في طريقه من علامات، ومثيرات قادرة على تقليل الاحساس بالأسى الذي ارتسم على وجوه الجميع، ولا قادرة أيضاً على طرد فكرة الاشباح التي تتخيلها نجلاء تقيم أعشاشاً لها وسط الصحراء. صخب المحرك وحده كان قادراً على كسر السكون الماثل في الصحراء، لكنه ومن نواحٍ أخرى، خلقَ أجواء استماع رتيبة، زادت من شعورٍ تَلَبسنا، من أننا موجودون في قفصٍ، قضبانه تركيبة من القلق والخوف.

ساعتان من السير السريع على المخطط المرسوم، تُظهر تلاً في القريب، تعكس أشعة الشمس الساقطة على زجاج عجلة عسكرية تتخذه موضعاً للرصد، ضياءً متقطعاً أو ومضة ضياء مشع يمكن مشاهدتها

بوضوح. تجرأت خطوات نحوه. أية سكينة وَضعت عباءتها على جسدٍ يرتجف هماً، وأي أمـان حل سريعاً مثل غيم ماطر بعد عطاش. قلت سأتوجه اليه موقعاً عسكرياً على ما يبدو، سأتأكد من صحة السير بالاتجاه المطلوب، قلتها ويديّ على مقود السيارة تمسكان به بشدة، كمن يخاف فقدانه.

كان التل موقع رصد، تقيم وسطه الناقلة المدرعة موضعاً لها، ظهر جالس على مقدمتها عسكري يتأمل الطبيعة المشمسة، دقق في السيارة القادمة وركابها. أعطى اشارة التوقف. ترجل من فوق ناقلته، تبين قيافته الميدانية أنه أمريكي، قدم نفسه الملازم جون آدمز.

كررت قصة التيه في المرتين السابقتين، والخشية من حصول الثالثة، طلبت المساعدة في تدقيق الاتجاه، وكانت أول مبادرة منه وفي أثناء تناوله المخطط، تسليمنا قنينتي ماء أنعشتنا نفسياً، فالماء بهذه الصحراء حياة، والحفاظ عليه لازم لديمومة الحياة، فشعرنا لحظتها أن احتياطينا من الماء قد تعزز إيذانا بالمحافظة على الحياة.

ألقى جون نظرة على الاتجاه والعلامات الدالة والمسافات المثبتة عليه، أكد صحتها ودقة الاتجاه الى طريق فرجينيا ليس البعيد عن التل الذي نقف بمحاذاته، وأكد كذلك أن الوصول اليه بهذه السيارة صعب وقد يكون ضرب من المستحيل لوجود كثبان رملية متحركة، تضع الانسان في حال الضياع الحتمي للاتجاه الصحيح، إذا لم يملك (قنباصاً) لضبط الاتجاه. فسأل:

– هل تملكون قنباص؟. فأجبت:

- لا نملكه، نسير فقط على المخطط، وعلى موقع الشمس الذي أضعه على شمالي والسير بخط مستقيم. فقال:

- إذا أرت ضمان الوصول الى الطريق، لا بد وأن تترك فكرة السير باتجاه مستقيم، عليك المناورة من جانب الكثبان، وهي مخاطرة قد تضيع فيها الاتجاه.

أخذ ثوان للتفكير بأمر ما، ثم طلب الانتظار دقيقة واحدة لأجراء اتصال من جهاز الناقلة اللاسلكي. أومأ من بعده في أن نتبع ناقلته في سيرها. توقف بعد عشرة دقائق عند حافة السراب الذي رأيته من قبل وصولي التل، وكأنه بحيرة وسط الصحراء، تبين أنها ليست بحيرة، ولم تكن شواهدها سراب، إنها خزانات وقود عملاقة، نُصبت على الأرض لتزويد الجهد الآلي الحليف في المنطقة بالوقود. أشار بالتقدم صوب أحد المضخات الكهربائية لملء خزان السيارة بالوقود، بعدها جلب صندوق مملوء بقناني الماء، وبعض المشروبات الغازية من العريف الذي يدير المضخة. أعاد الرجاء متابعة الناقلة بهدف الوصول الى طريق فرجينيا الذي توقفنا عنده بعد نصف ساعة قائلاً:

- هذا هو الطريق المقصود، هناك نقاط سيطرة عسكرية لقوات التحالف ستجدها على طوله، ضرورة الالتزام بالسير عليه ضمانة وحيدة للوصول الى خط الحدود ثم أومأ بإشارة وداع تغلفها ابتسامة نجاح.



ظَهرت السيطرة الأولى بعد ساعة من السير الآمن، يقف عندها عسكريون تشير علامات قيافتهم أنهم فرنسيون، على يمينهم مجموعة سيارات عراقية لم يغادرها أصحابها بأوامر صدرت إليهم من أفراد السيطرة ذاتها.

أوقفت سيارتي بمسافة عن العسكري الفرنسي لا تقل عن العشرة أمتار، ترجلتُ منها وسرت باتجاهه، أول عمل قمت به القاء السلام بكلمات تذكرتها فرنسية، بَقيَتْ عالقة في مخيلتي منذ الاشتغال في باريس ملحقاً عسكرياً، قبل احد عشر عاماً، استجاب لها الجندي الفرنسي بابتسامة رضا، سأل:

- من أين لك هذه الكلمات الفرنسية؟.

اخرجتُ هوية الاقامة الصادرة من الجهات الفرنسية ابان تلك الخدمة، فشعر بقدر من الارتياح. أدى التحية العسكرية نشطةً، سمح بالمرور، مع مشورة بضرورة إبقاء السير على هذا الطريق المكسو بالإسفلت لمسافة أربعين كيلو متراً، في نهايته تنتهي حدود العراق، وتبدأ الأراضي السعودية، ثم أعاد الايضاح:

- نقطة الحدود هي انتهاء الاكساء الاسفلتي بالضبط.

تحركت عدة أمتار فتملكني شعور أعادني، من أوهام الخيال التي اعتدت الغرق بها مداراة لحالي طوال الطريق، الى واقع حياة. تأملت فيه وجه البنات اللواتي بدأ الشحوب يغادر وجناتهن، وعاود الدم التدفق فيها من جديد. ومن دون سيطرة مني على منحى الذاكرة حضرت صور الزملاء في القاطع الخاص، تمنيت وجودهم معي الآن، وفي هذه اللحظة

المميزة من عمر توقف العد في سنيه يوم دخول ذلك القاطع اللعين، ترحمتُ على من مات غدراً حسب أوامر السلطان وتوجيهاته. مرت من أمامي خيالات صور لمرتضى وحامد وصالح وآخرين، وكذلك محمد صبري الحديثي ميتاً على أرض الممر، تنبهت فجأة الى يدي نجلاء الناعمتين تلعبان بشعري من الخلف، وكأنها تتعمد إعادتي الى الوعي، وكإثبات لهذه العودة القصدية فتحت مذياع السيارة، فكان مثبتاً على اذاعة مونت كارلو، وكانت تقدم موجزاً للأنباء خبره الأول شروع قوات الحرس الجمهوري بالتقدم من عدة محاور باتجاه المحافظات الوسطى والجنوبية، والثاني إيضاح من أنها قد اجتازت في محورها الوسطي محافظة بابل برتل يتجه صوب الديوانية فالسماوة، ورتل آخر في المحور الشرقي اجتاز محافظة واسط، تقترب وحداته من الناصرية متجهة الى قضاء سوق الشيوخ ستدخله هذه الليلة. فصرخت دون سيطرة مني على مخارج الكلمات:

- يا إلهي ماذا سيحل بمازن وعائلته وباقي الثوار المنتفضين؟. كيف سيصمدون وأين سيتوجهون؟.

❖ ❖ ❖

أخذتنا مشاهد الحسرة على أهل سوق الشيوخ يميناً وشمالاً، كمن يتأرجح في فراغ، حتى تنبهت الى نهاية الطريق المكسو بالإسفلت وبداية آخر من التراب. تذكرت كلام الضابط الأمريكي، وايضاح الآخر

الفرنسي من أن النهاية هنا إشارة لبداية الحدود السعودية هناك. أحسست اللحظة زمناً أشرق من جديد، كَذبتُ احساسي بالزمن، التفتُّ صوب الشمس رأيتها تدخل محاقاً تكسوه الصفرة المحمرة، كأنها تودع من تابعها متوجساً طول النهار، صاحَبها مطر نزل من غيمات متفرقة نثاً في هذه اللحظة وفي هذا المكان، أعطى الأرض لوناً خاصاً عند انتهاء الطريق المعبد في اشارة الى مغادرة أرض العراق، من دون علامات عادة ما تميز نقاط الحدود.

كان الوقت قد فقد تأثيره المقلق، والانتظار المتحرك على بساط الصحراء تحول الى خفقات قلوب، ومشاعر زهو بالإنجاز. لم يعد الصمت مرعباً لهذا السير الذي جمع بين الصباح والظهيرة وقليل من المغيب، وبين تناول قطع خبز يابسة، وقضاء حاجة في عجالة خلف كومة رمال. الوقوف في المكان وابقاء الأيدي ماسكة بمقود السيارة الكورولا، كان لازما للخروج من تيه الإحساس، ولتأكيد الخروج أعدت النظر الى الشمس، كمن يريد التأكد أنه المغيب وليس الشروق. كررت المحاولة لإتمام الخروج من تناقضات الاحساس، ومن الصدمة التي كونّها النجاح لهذه المحاولة الثالثة باجتياز الحدود، وبعد التأكد من الخروج كلمت نفسي كلاماً لم يسمعه أحد سواي:

هنا انتهى الهم الذي رافق نفسي القلقة ست سنوات، وبدل منه برزت ذكرى أول ضربة أتلقاها في أبو غريب، وذاك البؤس الذي انتابني من وقعها، والشعور بخسارة شيء، تبين لي هنا أن ذاك الشيء هو الوطن.

هنا وفي هذا المكان البعيد، الخالي من العلامات، ومن المخلوقات

تحقق حلم لي بترك الوطن الذي احبه. الحلم الذي انتظرته بشوق وحنين، لتفريغ ما في جعبتي من هموم وآهات.

هنا انتهت خشيتي من الموت، وخوفي من السلطان، وخبث القريبين من عرشه.

هنا أشعر كأني لم أدخل الصحراء هرباً من احتمالات العودة الى أبو غريب ثانية، بل لإبلاغ السلطان رفضي طريقته في الحكم، وارتيابه من الرفاق المخلصين.

سأبدأ من هنا حياة بلا قلق ولا أسرار، ولا خوف من العود مرة أخرى الى زنزانات السجن اللعين.

وبعد آخر كلمة قلتها، استغربت هذا الشعور الذي سيطر على نفسي المتوترة، في بقعة أرض يبتعد فيها الانسان عن حافة الوطن بما لا يزيد عن المترين، فشعرت باختلاط المشاعر بالانفعالات التي أواجهها للمرة الأولى عند اجتيازي العراق واقفا عنه بمترين، قلت هل يعقل أن مترين فقط يمكن أن تغير وجه حياتي والعائلة معاً.

ضحكت بشدة، وبكيت بقوة، حيث لم تعد هناك مسافة بين الضحك غبطة من تحقيق الحلم الموعود، وبين البكاء حسرة على وطن لا تبدو العودة اليه في القريب. ولم يعد هناك فارق بين الفرح من هذا الانجاز بعد محاولتين فاشلتين كادت تودي بحياتنا طعماً سهلاً لأشباح الصحراء، وبين الغضب من نفسٍ تركت وطناً، ومن وطن قتل النفس قبل دخولها تجربة اجتياز الصحراء.

عند هذا الحد من تناقض المشاعر والانفعالات، ارتفعت يداي من

على المقود لا إرادياً، لم أكلم أحداً من الذين شاركوني المحاولات الثلاث، فتحت باب السيارة، ثم أعدت غلقها، كمن تذكر أمراً ما، أعدت تشغيلها، سرت بها سفينة أثبتت قدرتها على النجاة عشرة أمتار، ثم أوقفتها ثانية بمكان أضحى خط الحدود الوهمي خلفه بهذا المقدار. حركة لم أجد لها تفسيراً فيما بعد، سوى كونها تتعلق ببقايا الخوف الذي كان مترسباً في خلايا العقل عن رجال السلطة، واحتمالات وجود أحدهم في المكان أو آخر كان يتابعنا لابساً طاقية إخفاء لا تكفي المترين عن منعه من اعادتنا الى السجن الكبير.

ترجلتُ مضطرباً بسبب تلك المخاوف والشكوك والأوهام، وكذلك بسبب تناقضات الانفعال، كأني في وضع أبدو فيه غير مسيطر على نفسي المتوترة. اتجهت الى حافة الطريق، فهوت أكفي على أكوام حصى فصلتها حرارة الصيف عن خليطها من الاسفلت. جَمعتُ منها حفنة، مثل حجيج يجمعون قرينات لها من وادي منى. وقفت على حافة هذا الطريق الترابية، قدماي خانتهما الجرأة لأن يقفا خارج نقطة الفصل بين الدولتين المؤشرة بنهاية الاسفلت، وقد بانت لي وكأنها نقطة فصل بين الموت، وبين الحياة. بين العيش كتماً للأنفاس، وبين التمتع بالحرية من دون قيود.

بدأت رمي الحصى باتجاه الوطن الذي خرجت منه تواً، كمن يرجم الشيطان أو يرجم صداقات لكبار القوم يمثل بعضهم روح الشيطان، وربما قصدت رجم العراق الذي اعتقدت خدمته بالانتماء الى الحزب وعدم قدرته وطناً للحيلولة دون معاقبتي على تهمة غير موجودة في

الأصل. وقد يكون لا هذا ولا ذاك، بل عود غير مسيطر عليه الى تقاليد قديمة عند العراقيين عندما يرمي الراغب في ترك المكان الذي لا يود العودة اليه، سبع حجارات باتجاهه كي لا يعود اليه ثانية بأي حال من الأحوال. أو ان الرجم سلوك جاء من اختلاط تلك الرموز مع بعضها البعض لتمثل صورة نمطية للشيطان. كل الاحتمالات جاءت واردة في هذه اللحظة، وهذا المكان.

توقفت قليلاً، حوّلت ترنيمة اللعن الى صيغة عتاب على أهلي في العراق، لما فعلوه بعراقهم وبأنفسهم طوال تاريخهم الطويل. حاولت تذكر بعض أجزاء من خطبة الامام علي في أهل العراق، فشلت بسبب سدود أقامها الانفعال عَوَقتْ من سيل التفكير والتذكر. عندها عاودت الرجم مصحوباً باللعنة التي امتدت قائمتها طويلة من صديقي الرئيس الذي يشبه الشيطان، الى چاسب آخر أعوان الشيطان أو الصورة المستنسخة عن الشيطان، كأني وُضعتُ رغماً عني في موقف هستيري غير قادر من السيطرة على السلوك المتداخل في مجاله اللعن والرجم والعتاب الى أن نزلت أُم شيماء متعجبة من هذا الموقف الذي لم تشهده طوال الفترة التي قضتها معي ثلاثة عقود زواج، اذ لم يسبق لها أن شهدت فقدان السيطرة على المشاعر مثل هذه المرة، حتى قَلِقت من حصول أمر ما، قد يبقيها نادمة على مطاوعتي السعي الى تحقيق حلمنا بمغادرة البلاد.

اقتَربَت لتكون بمسافة أحس وجودها، جاءت عينيّ بعينيها المضمختان بالدموع، وهي تتكشف على وجنتيها الجميلتان تاركةً أثرين واضحين بسبب تراكم الغبار، كأنهما جدولان اقتربا من الجفاف.

مسكت يدي التي ترمي الحجارة، وبعد أن تأكدت من التنبه لوجودها ملاصقة لي، حاولت تهدئتي وعندما يئست، سألتني:

- لم كل هذا؟.

قلت:

- أني صرت إنساناً آخر، أنا لست شامل الذي كنته، نصفي الآن إنسان أعرفه، ونصفي الآخر مجهول لا أحسه ولا أعرفه.

فأكملت عتبها قائلة:

- ألم يكن الوطن غايتك في النضال طوال الحياة؟. الم تشبع مسامعي مرات ومرات، أن هذا الوطن باق وانكَ قد نذرت حياتك من أجل البقاء؟. ما لذي تغير هنا والآن؟. أجبت وقد نزلت الدموع من عينيَّ بغزارة:

- أنا الذي تغيرت، لقد غيروني غصباً عني في السنوات التي غبتها عنكم مسجوناً في أبو غريب اللعين، لم اشأ النطق بكلمة واحدة عما أصابني طوالها، لقد منعوني من النطق، وحذروني من الهمس في غرفة النوم التي وضعوا فيها أجهزة تسجيل، وهددوني بمصير أسود يطالك حبيبتي، والبنات فيما لو نطقت، فصار رأسي صندوق موصد على كائنات أبو غريب وخيالات شخوصه الوهمية. لقد عشت كل السنوات الست بعد إطلاق سراحي أكبت مشاعري، أمنع الكلمات التي تحاول الخروج مني، أحمد الله أني قد أمسكت بها مراراً في آخر مرحلة لها قبل الخروج. عشت خرساً، أخاف إفشاء أسراري عن طريق حلم عابر أو كابوس مرعب. هكذا عشت سجيناً، وسجاناً في الوقت ذاته. سجاناً لنفسي بأمر من الصديق الذي رافقته عشرون عاماً، لقد أجبرني

وشياطينه المنتشرون في كل مكان على سجنها في صندوق حديدي لا تخرج منه الاسرار.

– دعيني أُخرج ما بداخلي، أُفرغ ما بالصندوق بعد أن فتحته الأقدار هنا في هذا المكان بعيداً عن الشيطان، وأعوان الشيطان.

– دعيني أرجم الطغاة، والأفاقين بنار الحصى التي جمعتها، واللعنة التي أعرفها حتى يهلكون.

ـ صدقيني سيهلكون، ستهلكهم شكوكهم، وأفعالهم في وقت ليس بعيد من الآن.

مَسَكت يديّ ثانية، وقعت في نوبة بكاء صاخب، لا تريد أن تتركني أسبح في بحور أزمتي، ضَغطَت بقوة كي تسحبني الى الوعي.

لكني ما زلت أهذي بلا وعي عندما قلت:

– أريد البقاء هنا لأفرغ كل المخزون، لم أعد أخاف الموت، ولا البوح بالأسرار.

ولما وجدتني هكذا مازالتُ منفعلاً، فاقداً السيطرة على حالي قالت:

– هذا العراق الذي قضيت جل حياتك تخدم مبادئ حريته، تتأمله وطنا كريماً وأُمة عظيمة.

لماذا هذا كله؟. لا يا عزيزي أبو شيماء، لا يستحق منك الوطن كل هذه العبارات. هذا العراق أكبر مني ومنك ومن كل الرفاق الذين خانوا الرفقة، وتحولوا الى شياطين تغمر الوطن بالدماء. أنا مثلك لم أشأ التكلم في الموضوع، هكذا أفهموني بعد أيام من عودتي، والبنات الى العراق من برلين. لقد أكدوا لي مشاركتك في مؤامرة ضد الحزب، وان

المحكمة قد حكمت عليك بالإعدام، وصديقك الرئيس الذي تلعنه الآن قد خفض الحكم سبع سنوات نظير صداقتك له، وخدمة الحزب والثورة.

سكتُ قليلاً، التفتُ إليها ومن ثم الى البنات اللواتي شل انفعالي غير المعهود تفكيرهن، وأعاق امكانية شعورهن بمتعة حل اللغز الخاص بعبور الصحراء، فقلت:

- دعيني أخرج هموم عاشت معي، تنفست مع أنفاسي. انتظريني بالسيارة سأقص عليك الحكاية التي حذروني من النطق بها طوال السنين التي مضت. الآن فقط أشعر بالحرية وأشعر أني قادر على اخباركم بها:

- أن السجن في أبو غريب كان عقوبة فعلٍ لم يكن موجوداً في الأصل. وإن السجانين بينهم الرئيس حرصوا على نفث غلهم حقداً في أجسادنا التي جعلوها حقل تجارب لتمرير الأحقاد. وشكلوها مسخاً يخاف الهواء الذي يتنفسه خارج أسوار البيت، هذا ما دفعني الى وضع الهروب حلماً راودني سنين، وجازفت بتحقيقه اليوم على الرغم من أنني وطوال الطريق لم أشعر أنني وفي جميع محاولاتي لعبور الصحراء، أنني فعلتها هرباً من احتمالات العقاب ثانية، وان كنت لا أنكرها، بل وكل همي ابلاغ الرئيس رفضي أساليبه في ادارة الدولة والمجتمع. دعونا نستمر على هذه الخطى، سوف لن يكون اليوم أحسن من الغد، وسوف لن يكون الغد أحسن من الذي يأتي بعده من أيام. هكذا هو العراق منذ أن بزغ فجر الثورات وأحل فيها الثوار القتل، سبيلاً للحكم والسيطرة على الآهات.

التفتت أُم شيماء الى البنات وعندما وجدت قدراً من الحزن على

وجوههن، قالت:

- ماذا نعمل، هذا هو نصيبنا في هذه الدنيا.

سكتُّ قليلاً، وعندما عاد الوعي الى نفسي الحائرة، أَشَّرّتُ إشارة تعني الانطلاق صوب السعودية بداية مشوار جديد.

.... انتهت ....

إصدارات للمؤلف

١- **مقدمة في علم النفس العسكري** (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكري، بغداد ١٩٨٣.

٢- **المعنويات بعد الحرب**، مديرية التوجيه المعنوي، ١٩٨٩.

٣- **المخالفة في الحياة العسكرية**، عواملها النفسية وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد ١٩٩٠.

٤- **نوايا وحروب**. دار العارف، بيروت ٢٠٠٣.

٥- **أزمة المجتمع العراقي**. دار الكنوز، بيروت ٢٠٠٣.

٦- **دوامات المحنة**. الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.

٧- **المعنويات في الميدان**، نظرة في التقويم والقياس. مطبعة الرشيد، بغداد ٢٠١١.

٨- **حصاد العاصفة**، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١١.

٩- **جراح الغابة**، «رواية» فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.

١٠- **وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن**، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٣.

١١- **سيكولوجية المخالفة**، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.

١٢- **تلك هي** «رواية» دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.

١٣- **الاجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب**، وزارة الدفاع، ٢٠١٣.

١٤- **حصاد العاصفة**، الجزء الثاني (التداعيات الادارية والامنية لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٤.

١٥- **الضغوط النفسية في الحرب**، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد ٢٠١٥.

١٦- **حفل رئاسي** «رواية» منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٥.

١٧- **الشجاعة والخوف في المعركة**، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد، ٢٠١٥.

حياة المؤلف

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام ١٩٤٦.

- تخرج من الكلية العسكرية العراقية، الدورة (٤٣) عام ١٩٦٦. واحيل على التقاعد عام ٢٠١٤.

- حصل على البكالوريوس آداب من الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام ١٩٧٦.

- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس عام ١٩٧٩.

- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام ١٩٨٧.

- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام ١٩٩١ .

- خدم ضابطاً في الجيش العراقي لخمسين عاماً، تدرج من آمر فصيل وسرية ومساعد آمر فوج، ثم مديراً لشعبة الاستخبارات النفسية، ومديراً لمديرية البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار لوزير الدفاع وملحق عسكري في باريس، ومستشار في مكتب القائد العام للقوات المسلحة.

- عمل مدرسا لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام ١٩٩٢

حتى ٢٠٠٠، وباحثا في علم النفس والسياسة، وكاتبا لعمود في الصحافة العراقية.

- مدير مركز الشرق للبحوث والاستشارات.

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.